

رابطة الأدب الإسلامي العالمية
مكتب البلاد العربية

الشخصية الإسلامية في الرواية المصرية الحديثة

تحليل ونقد

د. كمال سعد خليفة

العبيكان
obeikan

رابطةُ الأدب الإسلامي العالمية

مكتب البلاد العربية





الشخصية الإسلامية في الرواية المصرية الحديثة

تحليل ونقد

تأليف

د. كمال سعد محمد خليفة



ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

خليفة، كمال سعد محمد

الشخصية الإسلامية في الرواية المصرية./ كمال سعد محمد خليفة.- الرياض، ١٤٢٧هـ

٢٥٢ ص؛ ١٤×٢١ سم

ردمك: ٨ ـ ١١١ ـ ٥٤ ـ ٩٩٦٠

١ ـ القصص التاريخية العربية- نقد ٢ - القصص الإسلامية أ. العنوان

ديوي ٨١٣,٠٠٩ ١٤٢٧ / ٥٧٣١

ردمك: ٨ ـ ١١١ ـ ٥٤ ـ ٩٩٦٠ رقم الإيداع: ١٤٢٧ / ٥٧٣١

الطبعة الأولى الخاصة بمكتبة العبيكان

١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م

الناشر



الرياض. العليا. تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

ص. ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

هاتف: ٤١٦٠٠١٨ - ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

فمنذ أن وعيت، وتفهمت القيمة الإبداعية والإنسانية للإبداع الأدبي، وأخذت أطالع كثيراً من الأعمال الأدبية للأدباء في مصر بشتى توجهاتهم الفكرية، وهوياتهم الإبداعية، ممن لهم حضورهم المتدفق على خارطة الإبداع.. منذ أن وعيت ذلك، وأنا مبهور بهذه الإبداعات الرائعة، إلى أن اتجهت بدراساتي نحو الأدب الإسلامي. وأتيحت لي الفرصة خلال هذه المرحلة، أن أرتاد هذه الأرض البكر، المليئة بالمقومات الحضارية الرائدة في مجال الإبداع الأدبي من خلال قراءتي لإبداعات الأديب الإسلامي الدكتور «نجيب الكيلاني».. «المنظّر الأول لنظرية الأدب الإسلامي»... كما قال شيخ الروائيين العرب الأديب «نجيب محفوظ».

وأثناء هذه القراءات، بهرتني إلى حد كبير تلك النماذج الإسلامية الرائعة التي تطرحها إبداعات الكيلاني، ووجدتها تختلف كثيراً عن أطروحات الإبداعيين المعاصرين له أمثال: / عبد الرحمن الشرقاوي، وثروت أباظة، وطه حسين، ونجيب محفوظ... إذ لكل منهم هويته الإبداعية، وخصوصياته الفكرية، التي يمتاز فيها عن غيره، بل ربما تختلف من عمل إلى عمل آخر، من نتاج المبدع نفسه.

وكان ذلك دافعي نحو دراسة هذه القضية، ومحركي الأول تجاهها وليس ذلك فحسب، بل هناك ما لمسته من أجهزة الإعلام من مدى الإصرار على محاصرة «الشخصية الإسلامية» وتشويهها، والسخرية منها، بل وتحطيمها، في أكثر الأعمال الأدبية المذاعة أو المتلفزة....

وليس هذا لشيء، إلا لأنها الشخصية التي صنعها الإسلام، ورباها هذه التربية السامية...!!.

من ثم، كان لزاماً، أن أتناول هذه الشخصية في هذه الإبداعات، وأناقش مبدعيها مناقشة هادئة لا تخرج عن الواقع النقدي للإبداع، والحضاري للأمة الإسلامية، حتى نتبين مدى الجور الذي وقع على هذه النماذج الإنسانية الحضارية في واقعنا الإسلامي... ومن ثم، مدى الجرم الذي ارتكبه هؤلاء عندما وضعوها في إطار لا يتناسب ومقوماتها الحضارية الإسلامية.

من هنا، اخترت الفكرة، وذهبت أتابع القراءة حول النماذج الرامزة إلى الإسلام، لألملم ملامحها، بوصفها أنموذجاً بشرياً «تلتقي خلاله المبادئ الإسلامية، والقيم الإنسانية الرفيعة فتنتصب قدوة، أو أنموذجاً يتميز برد فعل معين تجاه الأحداث والمواقف، فتخطئ وتصيب شأن طبيعة البشر، لكن عطاءها النهائي، أو محصلة سلوكها، توحي بالأمل، وتترك التأثير المقنع، وفق قناعات فكرية وفنية مقبولة لدى المتلقي... فهي شخصية ترمز إلى قيم الحق والخير والفضيلة، وتصارع نزواتها وضعفها وهواها بالطريقة الطبيعية، وعلى ضوء التربية الإسلامية، أو التجربة الحضارية للمجتمع المسلم الصحيح» (١)

وذهبت أبحث عن هذه الشخصية محاولاً مناقشة إشكالياتها في نماذج من روايات كتّابنا المصريين في الأدب الحديث فأضعها تحت

---

١ - رحلتي مع الأدب الإسلامي ص ٦٩ نجيب الكيلاني «بتصرف» مؤسسة الرسالة طبعة أولى ١٩٨٥م. بيروت.

مجهر الرؤية الإسلامية التي سنعرض لها في إطاريْها الإيجابي والسلبي، لنتعرف على قيمة هذا التصوير وأثره في بناء الشخصية الفنية من جهة، وبناء الرواية من جهة أخرى، لنقدم الرؤية الخاصة للمبدع في ضوء إبداعه لهذه الشخصية التي تمثل مع غيرها من مفردات القص الأدبي أيديولوجية (مذهبية) فكرية معينة تحكم تصوره، وتسفر - في جلاء - عن المعتقد الفكري للمبدع، وإلى أي مدى نجح الكاتب في إبداع هذه الشخصية وما قيمتها في البناء الكلي للعمل الفني الذي نحن بصدده.

ستتناول الدراسة - بالتحليل والنقد:

أولاً:

الشخصية الإسلامية في الرواية عامة، النمط الإنساني المرتبط بالإسلام في الروايات الواقعية والاجتماعية والسياسية، النموذج المستمد من الواقع الاجتماعي، أو السياسي، أو الاقتصادي، التي ترتبط في تكوينها الإنساني بعقيدة الإسلام، أو ترمز إلى قيمة من قيمة الإنسانية في حياة البشر.

ثانياً:

الشخصية الإسلامية «التاريخية» في الروايات التاريخية التي يتناول النماذج الإنسانية في تاريخنا، وتقدم أنموذجاً فاعلاً في تشكيل هوية الأمة ولثراء هذه الشخصيات وإشراقها في ذاكرة الأمة، ووعيها الثقافي، وحضورها الفاعل في حياتنا على امتدادها منذ بزوغ فجر الإسلام وحتى العصر الحديث، في إطاريها السلبي والإيجابي على امتداد خارطة الإبداع في مصر.

في ضوء هذا المنهج النقدي التحليلي طرحت هذه النماذج الإنسانية الإسلامية، التي عثرت عليها في الروايات الأدبية للكُتَّاب المصريين، متخذاً منها نماذج تطرح - في جلاء ووضوح - المذهبية الفكرية لكل مبدع، والتشكيل الإبداعي الذي يستغله في تقديم هذه الرؤى أو الأفكار المطروحة خلال الرواية.

ومن ثم، كان من الضروري تقديم رؤية الإسلام، أو تصوره للشخصية الإسلامية، حتى يمكننا تشريح النص الروائي على ضوء هذه الرؤية الإبداعية للكاتب، لتتضح لنا معالم مذهبه الفكري والإبداعي في المقاربة النقدية، التي تطرحها هذه الدراسة.

وبناء على ذلك ستعنى الدراسة بتقديم الرؤية الفنية للشخصية، مفهومها، وإمكاناتها، وطاقاتها الإبداعية، ثم الرؤية الإسلامية أو التصور الإسلامي لإبداع هذه الشخصية، المنتجة من الواقع أو التاريخ بوصفها من أهم مصادر إبداعها... ودور الدين (العقيدة الإسلامية) في بنائها، ومن ثم نتاجها الفكري، بوصفها شخصية، وهي هذا الفكر الذي يرفع من قيمة الإنسان في المجتمع ويجعله من أهم مقومات بنائه الحضاري.

ونتناول أخيراً مجموعة من النماذج المختلفة التي تتصل في مهمات حياتها بالإسلام وأدواره المختلفة في تشكيل هوية الإنسان في الحياة.. فهي شخصيات محسوبة على الإسلام ومن ثم، ترمز إليه في مجمل معطياته الحضارية... حتى إن الانحراف - في نظر هؤلاء المبدعين - ليس انحراف النماذج في ذاتها، ولكنه انحراف في المُعْطى الحضاري الذي يرمز إليه هذا النموذج أو ذاك..

أنماط الشخصية الإسلامية

الشخصية منذ لحظة ميلادها على صفحات الرواية، وهي تنمو وتشبّ، وتوغل داخل العالم الإبداعي، تتميز بعدة مميزات أو خصائص أو سلوكيات، تضعها في إطار أو تشكيل معين، مختلف فيه عمن سواها. إذ التطابق بين الأشخاص، أمر يكاد يكون مستحيلاً، إن لم يكن كذلك. والشخصية الإسلامية في الإبداع الفني، لا تختلف عن غيرها من الشخصيات إلا بمقدار ما يطبعها الدين الإسلامي بسلوكياته، ومعطياته التي تميزها عن غيرها من شخوص الرواية، وبمقدار التزام هذه الشخصية بهذا الدين يتحدد إطارها، فالشخصية الإسلامية التي ارتبطت في ذهن المتلقي، بوظيفة أو سلوك أو عمل يتصل بالدين، سواء اقتربت من دائرة المثال الإسلامي أو انحرفت عنه، فهي شخصية إسلامية سواء تحيا الإسلام روحاً وسلوكاً، أو ابتعدت عن دائرته أو انحرفت عن الصراط المستقيم، فتذبذبت بين الخير والشر، أو الاعتدال والانحراف، إلا أنها ما تزال في دائرة الإسلام، إذ سماحة هذا الدين ورحابة آفاقه، لا تطرد المنحرفين، بل يسعى لتقويمهم واستوائهم على الصراط المستقيم.

لا نقصد من ذلك المسلم بصفة عامة، إذ إن كل مسلم ملزم بأن يتخذ تعاليم الإسلام سلوكاً ومنهجاً في الحياة، وإنما نقصد المسلم الذي وظفه الروائي في عمله الفني، ليقوم بأداء وظيفة من وظائف الإسلام كإمام المسجد، أو موثق عقود الزواج (المأذون)، أو الشيخ المعلم في كُتَّاب القرية ونحوهم..

وهؤلاء يتخذهم الروائي إشارات قد يعلي من خلالهم مبادئ الإسلام أو يطعن في تعاليمه، إن كان عدواً للإسلام بغية هدمه، فهذه الشخصية على هذا النحو هي التي سوف نتصدى لها في بحثنا هذا؛ لأننا رأينا بعض أصحاب النيات السيئة تجاه الإسلام يريدون الطعن في الإسلام من خلال أعمالهم الفنية.

والروائيون عندما يقدمون هذه الشخوص التي ترتبط في مظهرها أو وظيفتها بالدين الإسلامي يختلف كل منهم في تقديم رؤيته لهذه الشخوص، فمنهم من يقدمه في صورته المشرقة، لا سيما علماء الدين، ورموزه التاريخية والحضارية من أبناء الأمة وبناة حضارتها الخالدة، كما يتضح ذلك في المسلسلة التلفزيونية التي قدمها التلفزيون المصري: «القضاء في الإسلام» ، حيث يتناول نماذج رائعة من الشخصيات للقاضي»..

ومنهم من يقدمونهم في صور سلبية شائهة، رامزة إلى الدين الذي تمثله من منطلق فكر منحرف لا يأبه لعقيدة أو دين، فيقدم الشخصيات التي ترتبط في وظيفتها أو مظهرها بالدين من منطلق هذا التصور أو الأيديولوجية التي ترفض العقيدة الإلهية، وتلهث وراء فلسفات فكرية منحرفة، تتبلور في: كون الإسلام أو الدين لا يقدم الحلول الناجعة والناجحة لأزمات الإنسان العصري، سواء أكانت نفسية أم اجتماعية أم اقتصادية، بحجة الواقعية التي يقدمها بعض مبدعي الرواية في مصر، أو حاجات الفن وما يتطلبه من سخرية أو تفكّه كما يدعي بعضهم...

والشخصية الإسلامية ليست وليدة العصر النبوي، أو أنها لا تبرح القرآن العظيم، أو كتب السيرة النبوية الزاخرة الغاصة بالنماذج المشرقة، والخالدة في صفحات التاريخ وذاكرته، كما يظن بعض كُتَّاب الفكر التقدمي، الذين يسمون أنفسهم بالتقدميين!!.. لكنها شخصية كل عصر، وكل زمان، وكل مكان، منذ بزوغ فجر الإسلام، وحتى يومنا هذا، بل حتى يوم الدين، فإن الدين الإسلامي الخاتم يحيا الحياة حتى النخاع بامتدادها وعمقها، والحياة نفسها تحيا العقيدة وتنفعل بها إذا ما أراد الناس ذلك، فإنها ﴿**فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا...**﴾ [(١)].

فالدين الإسلامي يتحرك دائماً، ولا يكف عن الحركة (يتحرك لتحرير الإنسان كل الإنسان في الأرض، في كل الأرض، من العبودية لغير الله، وليرفعه عن العبودية للطواغيت بلا حدود من الأرض أو الجنس أو القوم أو أي مقوم من مقومات الأرض الهزيلة السخيفة) [(٢)]، ليصنع إنساناً نظيفاً ومتحرراً وذا فاعلية وحركة في مجتمعه، ليصبح وليد هذا الدين الذي انتشله من الجهالات التي تستطيع أن تمسخ بشريته إلى نوع آخر من المخلوقات لا ينتمي إلى الآدمية المكرمة من بين خلائق الله - عز وجل - في هذا الكون العظيم.

وبمقارنة عابرة سريعة بين حياة الجاهلي قبل الإسلام، وحياة هؤلاء الذين دخلوا الإسلام، وهُمْ هُم الذين كانوا يعيشون الموبقات والرذائل التي كانت سائدة قبل الإسلام، ثم لما دخلوا الإسلام تغير فيهم كل

---

١ - سورة الروم، من الآية: ٣٠.

٢ - في ظلال القرآن ص: ٢٠٨، مجلد: ٤، سيد قطب - دار الشروق - ط: ١٧ سنة: ١٩٩٢م، مصر.

شيء.. الفكر والوجدان والسلوك، حتى لكأن الشخص منهم قد خلق خلقاً جديداً، وذلك لأنه التزم بتعاليم الإسلام وتربيته السليمة التي اقتنع بها أتباعه[١]

فالشخصية الإسلامية هي النموذج أو النمط البشري المأخوذ من الحياة (الواقع)، أو المستمد من التاريخ، ينطلق في كل حياته من الرؤية الإسلامية فيجسد فكرة، أو معنى، أو رمزاً لقيمة إنسانية، التقت فيها أو خلالها المبادئ السامية والقيم الإنسانية الرفيعة.. يتميز برد فعل تجاه ما يعرض له في حياته من أحداث أو مواقف، فتخطئ وتصيب شأن طبيعة البشر، لكن عطاءها النهائي يوحي بالأمل، ويترك التأثير المقنع وفق قناعات فكرية وفنية مقبولة لدى المتلقي.

من ثم، فهي شخصية (ترمز إلى قيم الحق والخير والفضيلة والجمال، تصارع نزواتها وضعفها، وهواها بالطريقة الطبيعية، وعلى ضوء معطيات التربية الإسلامية، أو التجربة الحضارية للمجتمع الإسلامي النظيف والصحيح، ذلك المجتمع الذي تفرزه العقيدة الإسلامية بشمولها، ومثاليتها وكمالها مادياً وروحياً أو تطمح نحو تحقيقه، فإن (قوة المسلم لا تكمن في ضخامة طاقاته المادية بقدر ما ترجع إلى النهج الذي يتولى تربية هذه الطاقات ويحفظها ويهيئها للمشاركة في عملية البناء الحضاري) [٢].

١- راجع رحلتي مع الأدب الإسلامي/ ٦٩، ومدخل إلى الأدب الإسلامي/ ٥٠، بتصرف، نجيب الكيلاني.

٢ - مجلة الأمة عدد: ٦٧ (رجب ١٤٠٦ هـ) مقال (في الأبعاد المنهجية للعمل الإسلامي) للأستاذ أحمد سلام.

والشخصية الإسلامية بهذا التنوع والتدفق والفاعلية نستقبلها عن المصدر الأول للعقيدة الدينية الإسلامية التي يدين بها هذا المسلم، القرآن الكريم الذي يزخر بالنماذج والأنماط الإنسانية الكثيرة والمتنوعة في الإطار الإيجابي، وكذلك السلبي، وهي أنماط عامة وشائعة، وليست بغريبة عن البشر أو المجتمع الإسلامي، تتضح فيها أو خلالها المعالم الروحية أو النفسية التي كثيراً ما يغفل عنها علماء النفس المتخصصون في دراسة النفس البشرية.. (ولكن على جانب من الملاحظة والنتائج المختبرية، فإن إغفالهم لهذا الجانب الروحي من الإنسان في دراستهم للشخصية، قد أدى إلى قصور واضح في فهمهم للإنسان، وفي محاولة معرفتهم للعوامل المحددة للشخصية السوية وغير السوية. كما أدى ذلك إلى عدم اهتدائهم إلى الطريقة المثلى في العلاج النفسي لاضطرابات الشخصية - كما سنوضح ذلك بعد لأن الجانب الروحي في الإنسان هو الذي يميزه عن الحيوان، فهو مشارك له في أشياء، ويتميز عنه بخصائص الروح، التي تجعله ينزع إلى معرفة الله سبحانه وعبادته والتشوق إلى الفضائل والمثل العليا التي ترتفع به إلى مستويات عالية من الكمال الإنساني) [١] الذي أهّله لخلافة الله في الأرض، وحمل أمانته..

أما الجانب المادي في الإنسان والذي يتفق فيه مع الحيوان، فإنه حقيقة مُعترف بها في خلق الإنسان وسيكولوجيته.. ومن هنا ينشأ

١- القرآن وعلم النفس ص: ٢٠٧، ٢٠٩ بتصرف، د/ محمد عثمان نجاتي - دار الشروق - رابعة - ١٩٨٩. مصر.

الصراع داخل النفس البشرية بين الجانب الروحي (الروح) والجانب المادي (الجسد)، ويضطرم في داخليتها ويتطور ويتأجج خلالها، فمن استطاع أن يوفق بين الجانبين، ويصنع لنفسه توازناً بين مطالبهما في إطار المنهج الرباني الذي خلق هذه النفس، ينجح وينال سعادة الدنيا والآخرة، ومن ينساق وراء شهواته ومطالبه الجسدية (الهوى) غير معترف أو آبهٍ للجانب الروحي، أو أغفله، استحق ما أعده الله له من العذاب والشقاء المقيم، في الدنيا والآخر كذلك: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ [١].

فالله (عز وجل) عندما خلق هذا الإنسان، جعل في طبيعة تكوينه استعداداً لفعل كل من الخير والشر، استعداداً لاتباع أهوائه وشهواته، والاستغراق في الملذات الحسية التي تجعله يلتصق بالأرض لا يبرحها، وركَّب فيه كذلك استعداداً للتسامي إلى آفاق الفضيلة والمُثُل الإنسانية التي ترفعه إلى درجة الكمال الإنساني البشري، وألهمه ما يسمى بـ «الصراع» (العراك داخل النفس) كي يصمد للاختيار، فيختار الطاعة أو المعصية، الخير أو الشر، الحب أو الكره، الدنيا أو الآخرة، فإذا انتهى الصراع، وانحازت النفس إلى الشر، تكون قد خرجت من دائرة الآدمية إلى الحيوانية [٢] ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً

(١) - سورة النازعات، الآيات (٣٧-٤١).
(٢) - سورة الفرقان، الآيتان: (٤٣ -٤٤).

﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴿٤٤﴾ ﴾ أما إذا انتهى به الصراع، إلى شاطئ الخير، وانحازت نفسه إليه، وعافت الشر، فإنه يقع من دائرة الآدميين في مركزها..

ومن هنا، يستطيع أن يخلق لنفسه توازناً بين مطالب الجسد، ومطالب الروح، في إطار رؤية العقيدة الإسلامية لهذا التوازن؛ ليصبح الإنسان مسلماً حقيقياً، فالإسلام عندما يتجه نحو هذا الإنسان يعتبره (قيمة حقيقية، وقوة للتعبير والحركة في الحياة، بما أودع فيه من القدرة العقلية والجسدية، وقابلية التكيف المستمر، دليل ذلك أنه جعله مكلفاً مسؤولاً يستطيع من خلال تلك القدرات أن يحقق خلافة الله على الأرض التي خلقت له خلقاً فريداً متميزاً، وهيئت تهيئة متناسقة، ووضع فيها كل ما يساعد على أداء الأمانة الكبرى في العيش والحركة والتغيير)[١]، خلال حياته التي يحياها في الواقع، وشتان بين إنسان يعيش حياته ملتصقاً بجدران المادة لا يبرح الأرض التي يعيش فوقها، منقراً بترابها، مشدوداً إلى طينها، وبين إنسان يقف كذلك على الأرض نفسها، لكنه يمد بصره إلى الآفاق البعيدة لكي يمنح وجوده معنى، ويمكّن تكوينه النفسي من التوازن والامتلاء من المحدود إلى المطلق، ومن الحفر الضيقة إلى السماء الرحيبة، ومن الفناء إلى الخلود[٢].

١- مقال بمجلة الأمة عدد (٣٤) (الإسلام ودور الإنسان في التنمية) د/ محسن عبد الحميد.
٢- مقال بمجلة الأمة عدد (٦٧) (حوار في المعمار الكوني) د/ عمار الدين خليل.

والقرآن الكريم (دستور الإسلام) لا يطرد الذين تهجع نفوسهم، أو تركن إلى الضعف أمام مطالب الجسد في لحظات متفاوتة، فما تقع إلا وتنهض وتؤوب إلى مكانها من مركز الدائرة - دائرة الإسلام - لأنه يفتح أمامهم باب التوبة على مصراعيه، فتصبح في حالة من حالات النفس الإنسانية التي يعرض لها القرآن الكريم في كثير من أنماطه البشرية المختلفة.. وهي كالآتي[١]:

الأولى: النفس الأمارة بالسوء: وهي النفس التي تنغمس في ملذاتها، وتلهث وراء شهواتها، قال تعالى: (**وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾**) [٢].

الثانية: النفس اللوامة، وهي النفس التي تبلغ مرتبة أعلى من الكمال الإنساني، فيبدأ ضميرها في الاستيقاظ، فينكر ويستنكر ضعف إرادته، وخور عزيمته، وانقياده لأهوائه وشهواته، وملذات الحياة الدنيوية، مما أوقعه في الخطايا والمعاصي، فيشعر بالذنب، فيلوم نفسه على ما فرط منها، ويتجه نحو إلهه مستغفراً تائباً، فيصبح في هذه الحالة تحت تأثير النفس اللوامة. قال تعالى: ﴿ **لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾** ﴾ [٣].

١- القرآن الكريم وعلم النفس ص: ٢١٤ وما بعدها، د/ محمد عثمان نجاتي.. والقرآن الكريم يصنف النفوس البشرية من الناحية العقدية إلى مؤمن ومنافق وكافر.

٢- سورة يوسف: آية/ ٥٣.

٣- سورة القيامة، الآيتان: ١- ٢.

الثالثة: النفس المطمئنة، وهي التي تكون عندما يكون الإنسان قد أخلص التوبة والعبادة والأعمال الصالحة لله (عز وجل)، وابتعد عن كل ما يغضب الله، تَحَكَّم تَحكُّماً كاملاً في أهوائه وشهواته، وقام بتوجيهها إلى الإشباع بالطرق، أو خلال القنوات المشروعة التي عينها وبينها الشرع الحكيم، فحقق بذلك التوازن التام بين مطالبه البدنية ومطالبه الروحية، فإنه يصل إلى أعلى مرتبة من الكمال الإنساني، وهي المرتبة التي تكون فيها النفس الإنسانية في حالة من الاطمئنان والسكينة فتبلغ درجة النفس المطمئنة.. قال تعالى: (**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي**) [(١)].

فهذه المفاهيم الثلاثة للنفس في القرآن، ما هي (إلا حالات تتصف بها شخصية الإنسان في مستويات مختلفة من الكمال الإنساني، التي تمر بها أثناء صراعها الداخلي بين الجانبين - المادي / الروحي - من طبيعة تكوينها، فحينما تكون شخصية الإنسان في أدنى مستوياتها الإنسانية، بحيث تسيطر عليها الأهواء والشهوات والملذات البدنية والدنيوية، فإنها تكون في حالة ينطبق عليها وصف النفس «الأمارة بالسوء» وحينما تبلغ الشخصية أعلى مستويات الكمال البشري، حيث يحدث التوازن التام بين المطالب البدنية والروحية، فإنها تصبح في الحالة التي ينطبق عليها وصف «النفس المطمئنة». وبين هذين

١- سورة الفجر، الآيات: ٢٧-٣٠.

المستويين، أو هاتين الحالتين حالة أخرى، مستوى متوسط بينهما، يحاسب فيه الإنسان نفسه على ما يرتكب من أخطاء، ويسعى جاهداً في الامتناع عن ارتكاب ما يغضب الله، ويسبب له تأنيب الضمير، ولكنه لا ينجح دائماً في مسعاه، فقد يضعف أحياناً ويقع في الخطيئة، إلا أنه سرعان ما يفكر في النهوض من هذا السقوط، والأوبة إلى الله.. والشخصية في هذه الحال تسمى «النفس اللوامة»..) (١).

ولعل علماء النفس الذين عُنوا - لا سيما - بالتحليل النفسي، ودراسة الشخصيات على ضوئه، وعلى رأسهم «سيجموند فرويد» الذي أسس هذه المدرسة في العصر الحديث نحا نحواً قريباً - في تقسيمه للنفس البشرية إلى ثلاثة أقسام - من القرآن الكريم، في تقسيمه السابق لحالات النفس البشرية في عمومها، أو به أشبه.. فقسَّم فرويد النفس إلى: «الهو، والأنا، والأنا الأعلى..» (٢).

أولاً: الهو: في رأي «فرويد» هو ذلك الجزء من النفس الذي يحوي الغرائز التي تنبعث من البدن، وهو يطيع مبدأ اللذة، ويهدف دائماً إلى الإشباع من غير مراعاة للمنطق، أو الأخلاق أو الواقع، و«الهو» بهذا المعنى يشبه إلى حد ما مفهوم «النفس الأمارة بالسوء» في القرآن الكريم.

ثانياً: الأنا: هو ذلك الجزء من النفس الذي يقبض على زمام الرغبات الغريزية المنبعثة من «الهو» ويسيطر عليها، فيسمح بإشباع ما

١- القرآن وعلم النفس ص: ٢١٥، ٢١٦ (بتصرف).

٢- نفس المرجع ص: ٢١٦، ٢١٧ فيما ترجمة الدكتور/ محمد عثمان نجاتي عن دراسات لفرويد: الأنا والهو، ص: ١٤ : ١٧، ومعالم التحليل النفسي ص: ٤٦ - ٤٨ من طبعة دار الشروق ١٩٨٢م، ١٩٨٣م بمصر.

يشاء منها، ويؤجل ما يرى تأجيله، ويكبت ما يرى ضرورة كبته، مراعياً «مبدأ الواقع» أو العالم الخارجي، بما يتضمنه ذلك من قوانين وقيم وأخلاق وتعاليم دينية.

ثالثاً: الأنا الأعلى: هو ذلك الجزء من النفس الذي يتكون من التعاليم التي يتلقاها الفرد من والديه ومدرسيه، ومن قيم الثقافة التي ينشأ فيها، ويصبح قوة نفسية داخلية، تحاسب الفرد وتراقبه، وتنقده، وتهدده بالعقاب، وهو ما يعرف عادة «بالضمير»، ويرى فرويد أن «الأنا الأعلى» يمثل ما هو سامٍ في الطبيعة الإنسانية، وهو بهذا المعنى يشبه إلى حد ما مفهوم ما وصفه القرآن الكريم بـ «النفس اللوامة».

ويقوم «الأنا» - في رأي فرويد - بالتوفيق بين «الهو» في الواقع أو العالم الخارجي، و «الأنا الأعلى» بحيث يسمح بإشباع رغباته في الحدود التي يسمح بها الواقع، ويحد من تطرف «الأنا الأعلى» بحيث لا يجعله يسرف في النقد والتهديد بالعقاب بدون مبرر معقول.. وإذا نجح «الأنا» في وظيفته التوفيقية، أمكن أن يتحقق للإنسان الاتّزان والسواء والصحة النفسية، وعلى ذلك نستطيع أن نجد شبهاً بين التي يؤدي إليها نجاح «الأنا» في وظيفته، وما يحققه للإنسان من اتزان وسعادة وبين حالة «النفس المطمئنة» التي يصل إليها الإنسان بالتغلب على أهوائه. وبتحقيق التوازن بين مطالبه البدنية ومطالبه الروحية، مراعياً في ذلك «مبدأ الواقع» الذي يفرضه نظام الحياة في المجتمع المسلم، من القيام بالعبادات المفروضة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والعمل الصالح، واتباع قواعد الأخلاق الإسلامية.

تلك كانت أقسام النفس في رؤية العالم النفسي التحليلي «سيجموند فرويد» وهي تختلف اختلافاً جذرياً عن حالات النفس كما جاءت في التصور القرآني للنفس الإنسانية ومن هذه الاختلافات التي ترينا انحراف المنهج، في تحليل الشخصيات لدى هذا المفكر الوجودي ما يأتي [1]:

١- مفاهيم النفس (الأمارة بالسوء - واللَّوَّامة - والمطمئنة) في القرآن الكريم ما هي إلا حالات مختلفة، تتصف بها النفس أثناء صراعها الداخلي بين الجانب المادي والجانب الروحي في شخصية الإنسان - الإنسان الواحد.. وهي ليست أقساماً للنفس كما يرى علماء النفس (فرويد).

٢- المفاهيم القرآنية للنفس (الأمارة بالسوء - اللوامة - المطمئنة)، لا تكون أثناء مراحل نمو معينة يمر بها الإنسان، أما مفاهيم النفس لدى «فرويد» (الهو، والأنا، والأنا الأعلى) أقسام مختلفة للنفس، وتتكون كذلك في مراحل مختلفة من النمو، «فالهو» هو نفس الطفل عقب ميلاده مباشرة، إذ يكون الطفل واقعاً كلياً تحت تأثير متطلباته الغريزية، ثم تحت تأثير العالم الخارجي، يبدأ يتكون من «الهو» جزء متميز عنه هو «الأنا» ، وهو الذي يقوم بالتحكم في الغرائز المنبعثة من «الهو» مراعياً مقتضيات الواقع والعالم الخارجي، ومن التعاليم والنواهي التي يتلقاها الطفل من والديه، والثقافة التي ينشأ فيها يتكون «الأنا الأعلى» وهو الضمير الذي يحاسبه ويلومه، ويؤنّبه على ما يقوم به من أخطاء..

١- راجع: القرآن وعلم النفس، ص: ٢١٧، ٢١٨، وكتاب «الشخصية في سوائها وانحرافها» الفصل الثالث: الشخصية والتكوين النفسي ص: ٤٤-٥٣ د/ مصطفى فهمي.

٣- الصراع يقوم بين الأقسام الثلاثة للشخصية الفرويدية حيث يحاول «الأنا» ، أن يوفق بين متطلبات «الهو» و» الأنا الأعلى» والعالم الخارجي، فإذا نجح في ذلك كان الإنسان سوياً ومتمتعاً بالصحة النفسية - بينما يقع الصراع النفسي وفقاً لتصور القرآن لطبيعة تكوين الإنسان بين الجانب المادي والجانب الروحي من شخصية الإنسان، وتبعاً لنتيجة هذا الصراع تنشأ هذه الحالات الثلاث للنفس الإنسانية.

وعندما يضطرم الصراع في نفس المسلم، فلا بد أن يوازن بين الجانبين القائمين في ذاته (المادي والروحي)، فيقوم بإشباع رغباته وحاجاته البدنية، في حدود ما أباح الشرع خلال القنوات الحلال التي أتاحها الله - عز وجل - العليم بما خلق وركَّب في الإنسان من غرائز ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ۝١٤﴾ (١).

فمثلاً رغبة الجنس يشبعها من خلال الزواج، ورغبة جمع المال يشبعها بالعمل، أو التجارة التي تدر عليه الكسب الحلال.. وهكذا بقية الغرائز، ويقوم في الوقت نفس بإشباع حاجاته الروحية في غير سرف أو تطرف. فالرسول - صلى الله عليه وسلم - كان يصوم ويفطر، ويقوم الليل وينام فيخلد للراحة، ويتزوج النساء، وذلك ما يسمى «بالاعتدال» أو «الوسطية» ذلك المبدأ الذي يأخذ به الإسلام في شتى عباداته وشؤونه ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا .. ۝١٤٣﴾ (٢).

١- سورة الملك آية/ ١٤.

٢ - سورة البقرة آية /١٤٣

وفي قوله تعالى يتغيا الوسطية في عبادة الصلاة: ﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ﴿١١٠﴾﴾ (١). وقوله - عز وجل - موجهاً إلى الوسطية في الإنفاق: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ (٢).

والسرف أو التطرف مرفوضان في مضمار العبادة ﴿لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ﴿١٧١﴾﴾ (٣)، لأن الاعتدال هو الذي يحقق التوازن النفسي المطلوب لإيجاد شخصية إسلامية تتحقق في ذاتيتها الحقيقة الكاملة (الفكرة الإسلامية الكاملة)، تلك النفس التي تمثلت في شخصية الرسول - صلى الله عليه وسلم - (الإنسانية النموذجية الكاملة التي توازنت فيها جميع القوى الإنسانية البدنية منها والروحية) (٤).. تحيا الإسلام روحاً وسلوكاً، فاستقامت نموذجاً إنسانياً ربانياً تطمح إليه عيون كل من يبغي النموذج (المثال) في حياته خلال التصور الإسلامي الذي يحكم حركة هذا الكيان النفسي للإنسان، ذاك الكيان المرن المتحرك الذي لا يجمد على صورة واحدة، إنه دائم البروز والانحسار، يبرز منه جانب ويختفي وراءه جانب، في حركة دائمة لا تهدأ، ولكن مزيته هي مرونته المرونة التي تسمح بالتحول الدائم والتشكل المستمر دون أن يفقد ترابطه أو يتفكك.. فهو دائم التشكل ولكنه هو هو في المجموع..(٥).

وكل المسلمين مطالبون بأن يقتربوا من هذا النموذج الأمثل الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأن يتشبهوا به ما أمكنهم التشبه؛ لأن

١- سورة الإسراء آية/ ١١٠ .
٢- سورة الإسراء آية /٢٩.
٣- سورة النساء آية /١٧١.
٤ - في النفس والمجتمع ص: ٦٣ محمد قطب. دار الشروق، الحادية عشرة: ١٩٩٣م القاهرة.
٥ - منهج التربية الإسلامية: ٢٣/١ محمد قطب، دار الشروق، ط: الثالثة عشرة سنة ١٩٩٢م، القاهرة.

الرسول في سلوكياته، يُنَفِّذُ تعاليم ربه سبحانه وتعالى، ويطلب من أتباعه أن يكونوا مثله، فالعمل والسلوك ليست خصوصية انفرد بها الرسول - صلى الله عليه وسلم - وحده، فهو من حيث كونه رسولا لا يشبهه أحد، ولا يمكن أن يصل إلى هذه الدرجة غيره من البشر، ولكن الدعوة الإسلامية التي جاء بها مُطَالب بها كل فرد من المسلمين.

فالإسلام بجملته وتفصيله، وأصوله وفروعه، إنما هو رحمة مهداة من الله - عز وجل - للعباد كل العباد، من ثم جاء بأحسن ما يتطلع إليه الإنسان من أخلاق وعمل وعبادة ونظام اجتماعي وسياسي واقتصادي، يوطّن الإنسان المسلم نفسه في هذا الدين، وبقدر ما يصل إلى درجة ما من هذا التوطين أو التمكين في الدين، يكون نصيبه من رحمة هذا الدين.. يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم -: «مَثَل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكانت منها نقية قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا ورعوا، وأصاب طائفة منها أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فَقِه في دين الله ونَفَعَهُ ما بعثني الله به فَعَلِمَ وعَلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يَقْبَل هدى الله الذي أرسلت به» (١).

فلكل إنسان درجته في الدين والحياة، ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ (٢) والله - عز وجل يؤتي كل إنسان من خير العقيدة، بمقدار درجته في

١- راجع فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، المجلد الأول: كتاب العلم باب فضل (من علم وعلم) ص: ١٧٥ رقم الحديث: ٧٩ - دار الفكر العربي - د ت- مصر.

٢ - سورة الأنعام، من الآية: ١٣٢.

أداء مناسكها، التي تشمل الحياة كلها (فالإسلام يوسع معنى العبادة حتى تشمل كل الحياة، كل عمل يتوجه به الإنسان إلى الله فهو عبادة، وكل عمل يتركه الإنسان تقرباً إلى الله واحتساباً فهو عبادة.. وكل شعور نظيف في باطن النفس فهو عبادة، وكل امتناع عن شعورها بسط من أجل مرضاة الله فهو عبادة، وكل ذكر لله في الليل فهو عبادة، ومن ثم تشمل العبادة الحياة، ويصبح الإنسان عابداً لله حيثما توجه إلى الله، بهذا المعنى تصبح العبادة هي الصلة الدائمة بين العبد والرب، وتصبح هي التربية الدائمة للروح [١]).

فقيمة العبادة تكمن في أن تكون (منهج حياة يشمل كل الحياة، قيمتها أن تكون خطة سلوك، وخطة عمل، وخطة فكر، وخطة شعور، قائمة كلها على منهج واضح، يتبين فيه - في كل لحظة ما ينبغي وما لا ينبغي) [٢].

فلم تقتصر إذن - على مناسك العبادة وأدائها فحسب، لكنها تشمل سلوكيات العابد في نشاطاته المختلفة في الحياة، فهي معنى شامل.. وواسع يشمل كل دقائق الحياة بتفصيلاتها، وتشمل كل فكرة وكل شعور، فهي التوجه بكل نشاط حيوي إلى الله عز وجل ومراعاة ما يرضيه في هذا النشاط، وما يغضبه، وتوقّي غضبه، والعمل على رضاه) [٣]. فيرى عبده حيث أمره، ويفتقده حيث نهاه..

وبمقدار التزام العبد بذلك المنهج الشامل ينال الفضل الذي أعده الله له سواء في الحياة الدنيا أو في الآخرة.. ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ

١- منهج التربية الإسلامية ١/٦٧، ٣٤.
٢- منهج التربية الإسلامية ١/٦٧، ٣٤.
٣- نفس المرجع ص: ١/١٤.

فَضْلَهُ ﴿٣﴾ [١] فبمقدار العمل يؤتى الإنسان الأجر، وإن كنا نوقن أن العبد لن يدخل الجنة إلا برضى الله - عز وجل - ورحمته لا بعمله، فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة» [٢].

وهذا يفتح المجال واسعاً أمام المسلم لكي يزيد من العبادة، ومن خضوعه حتى يرضى عنه ويدخله في رحمته فينال نعيم جناته.

ومن ثم، نخلص إلى أن الشخصية السوية في الإسلام: هي الشخصية التي تعنى بالبدن وصحته، وتشبع حاجاته ورغائبه في الحدود التي رسمها الشرع، والتي تتمسك في الوقت نفسه بالإيمان بالله تعالى، وتؤدي العبادات، وتقوم بكل ما يرضي الله - عز وجل - وتتجنب كل ما يغضبه، في توازن وانسجام يتوافق مع الفطرة، ويحقق ذاتية الإنسان الحقيقية في كمالها الإنساني (النموذج) المنسجم مع مفردات الكون والحياة.

---

١ - سورة هود من الآية : ٣.

٢- صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب صفة القيامة والجنة والنار - باب لن يدخل أحدكم الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، المجلد الخامس ص: ٦٨٢ وما بعدها بألفاظ مختلفة، دار الشعب - د ت - مصر.

الشخصية الإسلامية في الرواية المصرية (النموذج النمطي)

عرفنا أن النموذج النمطي الإسلامي الذي يستمده الكاتب من نهر الحياة الدافق يتميز بصفات أو علاقات أو سلوكيات، أو وظيفة اجتماعية (دينية أو تعليمية)، أو سياسية تميزه عن غيره من الناس الآخرين، وكل مجموعة من هؤلاء ينتمون إلى نوع من هذه الصفات أو السلوكيات أو الوظائف يصنفون في إطار (نمط) معين، يتمايز فيه هذا عن ذاك.. وهؤلاء عن غيرهم.. وهكذا، إلا أن القاعدة التي تحكم هذا التصنيف تنطلق أو ترجع إلى الإطار العام الذي تتحرك هذه الأنماط داخله، وهو إطار «العقيدة الإسلامية» التي تحكم فعاليات هذا النمط (الشخصية) من الناس، وتسمه بسمة معينة تضعه في إطار محدد تتشكل شخصيته خلاله..

والقرآن الكريم بوصفه المعين الثرّ لتقديم النمط الإنساني الإسلامي - يعرض لكثير من هذه الأنماط الإنسانية ذات الحضور الفاعل في قصصه وأحداثه، يحكمه الإطار العقدي في هذا التصنيف، فنجد المؤمن والكافر والمنافق، ولكل منهم مجموعة من السمات الخاصة التي تحدد ملامحه وتكوينه، وتميزه عن غيره من الأنماط الأخرى التي يتلاحم معها من خلال معايشته لها، أو معايشتها له، سواء في الواقع الحي (الحياة) أو الواقع التاريخي...

هذا التشكيل أو التصنيف ينهض على مجموعة من السمات التي تتعلق بكل من العقيدة أو العبادات، أو العلاقات الاجتماعية، أو

العلاقات الأُسرية، أو الأخلاقيات والعواطف والانفعالات، والمكتسبات العقلية والمعرفية، والتي تتعلق بالحياة العملية والمهنية والبدنية..

هذه السمات لا توجد منفصلة في شخصية المسلم، بل يتعاون كل منها، وتتفاعل فيما بينها وتتكامل، فتقدم لنا أنموذجاً للإنسان المؤمن الذي نعمل على تحقيقه واقعياً في حياتنا [١]. فتوجه سلوكه في شتى مناحي الحياة، من ثم تبرز على مسرح الواقع شخصيات إسلامية متكاملة ومتناسقة في علاقاتها بالناس والكون والحياة، وفي علاقاتها في الوقت نفسه بالخالق - عز وجل - فتبدو كأنها «المثال الإنساني» الذي صنع الله الناس عليه في العالمين.. وتطمح العقيدة في إيجاده، (فالدور العقدي هو الأساس في توجيه السلوك الإنساني في جميع مجالات حياته) [٢]، فهي التي تشكل شخصيته، وتضعها في الإطار الصحيح.. حيث إن الدين في جوهره يؤكد على المظاهر السوية للشخصية في إطار متكامل تقود ممارساته المختلفة إلى النضج والاتزان والسيطرة على الذات، وعلى عناصر البيئة من حوله...) [٣].

وهذه الشخصية الكاملة المتكاملة (المثال الإسلامي للإنسان)، على هذا المستوى المثالي الذي تطمح العقيدة في وجوده، حتى وإن وجد فليس كل المؤمنين في هذا المستوى العقدي الإسلامي على درجة واحدة من الإيمان، بل منهم الذي فرط أو أهمل في هذه أو تلك من العبادات أو السلوكيات الإسلامية، لذلك التفت القرآن الكريم لهذا التفاوت بين

١ - القرآن وعلم النفس ص: ٢٢٤.
٢ - القرآن وعلم النفس ص: ٢٢٤.
٣ - الاتجاه نحو الدين ص: ١٣ د/ نزار مهدي الطائي، سابق.

الأنماط الإنسانية، فيضع هذا النمط في مستويات مختلفة، فمنهم الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات بإذن ربه.. قال تعالى: (**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾**) (١).

وعن هذه المستويات أو الأنماط الثلاثة للشخصية الإسلامية (المؤمن) يقول ابن كثير في تفسيره:

الظالم لنفسه: هو المفرط في فعل الواجبات، المرتكب لبعض المحرمات.

والمقتصد: هو المؤدي للواجبات، التارك للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات ويفعل بعض المكروهات..

أما السابق بالخيرات بإذن الله: فهو الفاعل للواجبات والمستحبات، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات..) (٢).

في ضوء هذه المعطيات القرآنية، لكل نمط من هذه الأنماط، والتحديد المصطلحي له، نستطيع أن نتعرف على الإطار المناسب لإيجابية الشخصية الإسلامية أو سلبيتها، في إطار الدور الذي تقوم به، أو ما يجب أن تقوم به في الرواية الفنية، ومدى تحقق هذه السمات أو المواصفات السلوكية، وما يتعلق بها من تصورات أو علاقات حيوية، تنطلق خلالها الشخصية من التصور أو الرؤية الإسلامية، لنرى إلى أي

١- سورة فاطر الآية: ٣٢.

٢- تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير. المجلد الثالث ص: ٥٥٤، ٥٥٥ دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبي) - د ت - مصر.

مدى، استطاع الروائيون في إبداعاتهم الروائية، تقديم هذا النمط أو النموذج الواقعي الذي يرتبط بالإسلام في أي من أطرافه أو أسبابه الممتدة على بساط الحياة الفسيح، سواء أكانت هذه الشخصية ترمز إلى قيمة من قيم الإسلام، أم تقوم فيه مقاماً بارزاً وجلياً كالإمام وغيره، أم ترتبط بالإسلام بعلاقة عمل أو وظيفة تختلف عما يقوم به من عبادات، لا يتمايز فيها هذا النمط عن غيره من الناس، مثل: موثق عقود الزواج (المأذون)، والشيخ المعلم للقرآن الكريم في كُتَّاب القرية، أو الداعية الإسلامي الذي ينصح للناس ويعلمهم من أمور دينهم ما تستقيم به دنياهم وتصلح به آخرتهم، وغيرهم من النماذج التي عرض لها هؤلاء المبدعون في رواياتهم، لنتعرف عن قرب على موقف هؤلاء الكتَّاب تجاه هذه الشخصية، لا سيما إذا كانت هذه الشخوص في الرواية، تتضح بفكر الكاتب ورؤيته، تجاه هذه النماذج الإنسانية، وموقفه من وظيفتها في الواقع الاجتماعي المعايش، من خلال العالم الإبداعي الذي رسمه الفنان أو المبدع.

من أهم هذه الشخصيات، التي سنعرض لها في دراستنا للرواية، واقعية كانت أو اجتماعية أو سياسية..

١- شخصية: الصوفي.

٢- شخصية: موثق عقود الزواج: (المأذون).

٣- شخصية: الإمام - الواعظ - الداعية.

٤- شخصية: المعلم «سيدنا».

أولاً: شخصية الشيخ الصوفي:

الصوفي في المفهوم العام، ودون دخول في تفصيلات تَعَرَّض لها كثير من الباحثين في تخصصهم، لأن موضوعنا لا يحتمل هذه الإطالة..

فالصوفي في نظرنا: هو الذي انخلع عن الدنيا بكليته، وأعطى وقته للعبادة مع السعي في جلب رزقه الضروري دون تهافت على الدنيا..

إذ الزهد المشروع «هو ترك كل شيء لا ينفع في الدار الآخرة، وثقة القلب بما عند الله كما روي عن الرسول ﷺ: «ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال. ولكن الزهد أن تكون بما في يد الله أوثق بما في يدك، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت أرغب منك فيها لو أنها بقيت لك، لأن الله يقول: ﴿**لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** ﴿٢٣﴾﴾ (١).

والروائيون وجدوا في شخصية الصوفي بأشكالها المختلفة ثراء وقيمة تنهض باتخاذها نموذجاً فنياً في إبداعاتهم، فتقدم لهم ما لا تستطيع أن تقدمه شخصية أخرى في المجتمع، لما تحمله من جلال، وتتمتع به من احترام، يصل إلى حدّ القداسة، في نفوس الكثيرين من العامة والخاصة في المجتمع، لا سيما في التراث الفكري والإنساني، الذي قدم لنا مجموعة من رجال التصوف ذوي المكانة العظيمة في

١- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، المجلد العاشر (علم السلوك) ص: ٦٤١، مكتبة ابن تيمية، والآية من سورة الحديد رقم: ٣٣

ذاكرة المسلمين والمجتمع الإسلامي.. فتستطيع أن ترمز إلى واقع ما، أو تشير إلى بعض السلوكيات أو القيم أو المواقف التي كان يفرزها وجود هذه الشخصيات، لا سيما في عصور التخلف الفكري والحضاري، أو عهود الاستعمار الأجنبي، أو الظلم الاجتماعي، والقسر السياسي بحلقاته المتصلة والمتواصلة التي طوقت المجتمع وقتاً طويلاً، سواء بالسلب أو الإيجاب، غير خاف على منصف أن (الشخصية الصوفية، وجهود علماء الدين زودت الأمة، لا سيما الفلاحين في القرى، بطاقات الثورة والتمرد على الظلم والفساد) (١).

فضلاً عن كونهم الملاذ، أو الحائط القوي الذي يحتمي بها هؤلاء البسطاء، عندما تحيط بهم الخطوب، أو تنزل بهم النوازل. فيهرعون إلى الشيخ عَلَّه يخلصهم أو ينجيهم مما هم فيه..

من ثم تباينت شخصية الصوفي في الرواية، لا سيما المصرية، بحسب تباين فكر المبدع الذي يصورها.. بل ربما تتباين عند الكاتب الواحد نظراً؛ لتباين مراحل فكره أو تطورها، كما سنرى عند نجيب الكيلاني (٢)

من هذه الشخصيات التي نالت اهتمام الدراسة في الرواية المصرية شخصية الشيخ «علي الجنيدي» في رواية «اللص والكلاب» للروائي: «نجيب محفوظ» (٣).

١- رأس الشيطان بين التاريخ والفن نجيب الكيلاني، مقال مجلة الأمة القطرية، عدد: ٤٤، شعبان ١٤٠٤هـ.

٢- انظر ص: ٢١٤ من هذا البحث، وكذا «نجيب الكيلاني أديباً» رسالة ماجستير للباحث.

٣ - نجيب محفوظ: أديب أشهر من أن يعرف، لا سيما بعد ما نال جائزة نوبل العالمية في الآداب عام ١٩٨٨م.

فالشيخ «علي الجنيدي» شيخ صوفي، له مكانته بين مريديه، يهرع إليه المكروب منهم، عله يجد لديه الراحة والطمأنينة والاستقرار النفسي، لا سيما عندما تلهبهم نار الحياة، وتعكرهم قسوتها، ويذيقهم الواقع المأساوي الأسود مرارته، فيهرعون إلى الشيخ الجنيدي يرتشفون كؤوس السكينة في رحابه...

عندما غامت الدنيا في وجه سعيد مهران «اللص» ولفظته الحياة، لم يجد باباً مفتوحاً في وجهه إلا «الباب المفتوح» باب الشيخ علي الجنيدي.

«السلام عليكم يا سيدي ومولاي.

أتمّ الشيخ تمتمته ثم رفع رأسه عن وجه نحيل فائض بالحيوية بَيِّن الإشراق تحف به لحية بيضاء كالهالة.. وعلى الرأس طاقية بيضاء منغرزة في سوالف كَثَّة، فضية، حدجه بعينين رأت الدنيا ثمانين عاماً، ورأت الآخرة، عين لم تفقد جاذبيتها ونفاذها وسحرها، فلم يملك سعيد من أن يهوي على يده فيقبلها وهو يدفع دمعة باطنية استقطرها من جو الذكريات والأب والأمل والسماء في الماضي البعيد.

- وعليكم السلام ورحمة الله..

هذا صوت زمان! ترى كيف كان صوت أبيه؟ كأنما يتذكر صوت أبيه بعينيه، فيرى وجهه وشفتيه وهما يتحركان، ولكن الصوت انتهى.. وأين المريدون، وأين أهل الذكر يا سيدي محمد على بابك!.. وتربع أمامه على الحصير وهو يقول:

- أجلس دون استئذان لأني أعرف أنك تحب ذلك.

شعر بأن الشيخ ابتسم من دون أن ترتسم على شفتيه الغارقتين في البياض ابتسامة.. ترى هل تذكره؟.

- لا تؤاخذني لا مكان لي في الدنيا إلا بيتك.

ترك الشيخ رأسه يهوي في صدره وهو يقول بصوت هامس:

- أنت تقصد الجدران لا القلب.

فتنهد سعيد، وبدا لحظة كأنه لم يفهم شيئاً، ثم قال بصراحة ودون مبالاة:

- خرجت اليوم من السجن.

فأغمض الشيخ عينيه متسائلاً:

- السجن..

- نعم، أنت لم ترنِ منذ أكثر من عشرة أعوام، وفي تلك الفترة من الزمن حدثت أمور غريبة، ولعلك سمعت عنها من بعض مريديك الذين يعرفونني.

- لأنني أسمع كثيراً، لا أكاد أسمع شيئاً[1]»..

نجيب محفوظ هنا، يقدم لبعض ملامح الشيخ «البعد الخارجي» وهيئته، فيصوره تصويراً يستمده من صور المجاذيب ورواد المشهد الحسيني الذي يحياه الكاتب حتى النخاع، حيث يعيش هؤلاء الأشخاص (الصوفية) بملابسهم الرثة وهيآتهم القلقة وأجسادهم المتسخة،

١- اللص والكلاب ص١٨، ١٩.

وعيونهم المغمضة، وعقولهم الشاردة، وكأن الكاتب أراد أن يقدم هذا النموذج الرامز إلى الدين في الرواية، ليشير من طرف خفي إلى أن الدين - وهذه صورته - لا يقدم شيئاً للإنسان أو المجتمع، لا سيما، والشخصية «سعيد مهران» الذي يلوذ بالشيخ قد سدت أمامه جميع الأبواب، ولم يبق أمامه باب مفتوح إلا باب الشيخ - باب الدين - (المفتوح دائماً كما عهده من أقصى الزمن) (١).

فالخلفية الفكرية لنجيب محفوظ تقف موقفاً غير متلائم مع الدين - أي دين سماوي - إن لم يعاده، ويتمثل هذا الموقف في أمرين: أحدهما ظاهري، والثاني باطني، وكلاهما يعكس ما يُكنُّه الأول للآخر، أو يتصوره الكاتب للدين..

أما الأثر الظاهر فيبدو كما نرى في تصويره لهيئات الشخصية المتدينة، وكيف يصل التصوير إلى أن يصير مسخاً يبعث على الاشمئزاز والنفور والسخرية، وشخصياته كثيرة في إبداع نجيب محفوظ (٢)..

أما الأثر الباطني فيتمثل في انعدام تأثير هذه الشخصية الإيجابي في حركة المجتمع، وعجزها عن تقديم البديل الصحيح والفاعل في تطور هذا المجتمع، فتبدو هذه الشخصيات وكأنها هامشية منعدمة الدور في فاعلية التطور والبناء الاجتماعي كما هو حادث مع سعيد مهران والشيخ الجنيدي.

حَجْب نجيب محفوظ للدور المنتظر من عالم الدين وعدم الإفصاح عنه جعلنا نفهم أن هذه الشخصية قصرت في أداء واجبها الديني، وهو

١- الرواية ص ١٨.

٢- شخصية محمد حامد برهان (الإخواني) الأعور الأعرج في رواية الباقي من الزمن ساعة، وغيرها.

احتضان سعيد مهران وإسباغ الرحمة عليه وفتح أبواب التوبة أمامه، وإغراؤه بشتى الطرق للدخول في رحاب الله ولكنه لم يفعل، لأن نجيب محفوظ أراد ذلك فأصبحت الصور شائهة مبتورة عن قصد، أراد به الكاتب الطعن في الإسلام جملة من خلال هذه الشخصية في رأينا..

فالشيخ الجنيدي بمنأى عن سعيد مهران حتى لغة الخطاب لم تحقق التواصل المطلوب بين المتحاورين، فالشيخ غارق في رموزه وتهويماته، ويقف سعيد مهران على الطرف الآخر من المعادلة - إن صح التعبير - فالبون شاسع والهوة عميقة بينهما، حتى إن سعيد مهران عندما يقتحم على الشيخ خلوته (بيته) فيواجهه الشيخ:

- أنت تقصد الجدران لا القلب..

فكأن الشيخ قد أغلق الباب المفتوح - باب الأمل - في وجهه إلا أن اللقاء يتواصل بينهما، كلما وجد سعيد حاجة في زيارة الشيخ لكنّ الأمر يزداد تعقيداً وانغلاقاً.

- مولاي قصدتك في ساعة أنكرتني فيها ابنتي...

فقال الشيخ متأوهاً:

- يضع سره في أصغر خلقه!.

فقال جاداً:

- قلت لنفسي: إذا كان الله قد مد له العمر، فسأجد الباب مفتوحاً.

فقال الشيخ بهدوء:

- وباب السماء كيف وجدته؟

١- أدب نجيب محفوظ وإشكالية الصراع بين الإسلام والتغريب ص ١٣٩ د/ السيد أحمد فرج.

ويوغل الحوار في تأزم بين الشيخ وسعيد مهران حتى يرسو على حافة الرفض الصريح:

- ألا تزال تحيي الأذكار هنا؟.

فلم يجبه، وساوره القلق فعاد يسأل:

- ألا ترحب بي؟.

ففتح الشيخ عينيه قائلاً:

- ضعف الطالب والمطلوب.

- لكنك صاحب البيت!.

فقال في مرح طارئ:

- صاحب البيت يرحب بك، وهو يرحب بكل مخلوق، بكل شيء، فابتسم سعيد متشجعاً، فاستدرك الشيخ قائلاً:

- أما أنا فصاحب لا شيء..

فكأن الشيخ يؤذنه بالرحيل عنه، فليس له مكان في الأرض، والبيت الذي قصده لم يكن الشيخ صاحبه حتى يرحب به!!..

فكأن الدين الإسلامي، يحكم على العصاة من البشر، حكماً مؤبداً ببقائهم فيما يرتعون فيه من الإثم والخطيئة، وسبيله إلى إنقاذ هؤلاء، يقف عند طردهم من ساحته!. وهذا كذب وافتراء..

فالإسلام لم يكن أبداً هكذا، إنه يطرح في طريق هؤلاء الخطاة، مفاتيح باب التوبة المفتوح على مصراعيه، وحتى آخر لحظة من العمر،

كي يستنقذهم مما وقعوا فيه، وينتشلهم من قاع الخطايا والرذائل، وينهض بهم إلى مصافّ السمو والارتقاء الروحي والنفسي.. حيث يجدون لذة الحياة نقاءها، في نقائهم وصلاحهم ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ (١).

فالإسلام، لم يلفظ هؤلاء العصاة، أو يطردهم من دائرته المضيئة، إنما يأخذ بأيديهم ويستنقذهم، ويلح في طلب نجاتهم مرة تلو المرة، حتى يهتدوا ويؤوبوا إلى رشدهم فيَصلُحوا، ويُصبِحوا ذوي فاعلية بانية في مجتمعهم.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ (٢)

وعندما يقع سعيد مهران في ضائقة (حادث القتل) ويهرب من الشرطة التي تلاحقه، فلم يجد إلا الباب المفتوح - باب الشيخ الجنيدي - لكنه سيجده كما عهده فارغاً من إمكانية إنقاذه!!

- سأنام ووجهي إلى الجدار، لا أودّ أن يراني أحد ممن يزورونك، إني ألجأ إليك فاحفظني..

فقال الشيخ برحمة:

- التوكل ترك الإيواء إلا إلى الله.

١ - سورة طه، آية ٨٢.

٢- سورة الزمر، الآيتان ٥٣ - ٥٤

فسأله بإشفاق:

- هل تتخلى عني؟.

- معاذ الله..

-هل في وسعك بكل ما أوتيت من فضل أن تنقذني؟..

- أنت تنقذ نفسك إن شئت..

فهمس سعيد لنفسه:

- أنا أقتل الآخرين..

ثم يسأله بصوت مرتفع:

- هل تستطيع أن تقيم ظلاً معوجاً؟..

فقال الشيخ برقة:

- أنا لا أهتم بالظلال..

وهكذا ألقى نجيب محفوظ باللائمة كلها على الشيخ، فقد جعل سعيد مهران يلوذ بالشيخ، كلما حاقت به نكبة أو أَلمَّ به انحراف وألح على طلب المعونة من الشيخ، الذي أوصد في كل مرة أمامه باب الأمل والرجوع والتوبة، فالمُدان في نظر نجيب محفوظ إنما هو الشيخ وليس سعيد مهران من بداية انحرافه إلى نهايته بارتكاب جريمة القتل.

فنجيب محفوظ يصر - ومعه من يوافقه من النقاد - بأن الشيخ الجنيدي لم يكن في جعبته من التصوف (الدين)، ما يشفي غلة سعيد مهران أو ينقذه مما يحل به من نهاية مؤلمة، فلم يستطع الشيخ أن

يحميه أو حتى يهديه أو يؤويه أو ينقذه.. حتى الطعام الذي وجده عند الشيخ ولعل في ذلك إيحاء للخواء - لم يكن كافياً!!.

- «من المؤسف أنني لم أجد عندك طعاماً كافياً، كما هو مؤسف أنني لم أجد البدلة، كذلك عقلي يتعذّر عليه فهمك، وسأدفن وجهي في الجدار، ولكني واثق من أنني على حق[١]..

ولعل في ذلك ما يؤكد وجهة النظر التي قصد إليها المؤلف قصداً دون مواربة، أن الشيخ الجنيدي شخصية عقيمة ليست ذات جدوى في المجتمع، من ثم يصبح الدين عائقاً عن تحقيق الأهداف الاجتماعية (العدل والحرية)، وأن الدين يعجز عن احتواء هؤلاء العصاة الخاطئين، فيعتقد هذا التصور المنحرف ويثق به حتى الإيمان.. فنراه في كثير من أعماله الإبداعية يسخر من الدين والمتدينين، ويصورهم مسوخاً شائهة (ميتة كقطع الشطرنج)، لا حركة فيها ولا حياة، إلا بالقدر الذي يدفعها به الآخرون، ولعل فيما نعرض له - من أمثلة يستطيع أن يقدم برهاناً على هذه الرؤية المتحيزة ضد الدين وعلمائه، فلنقرأ هذا الحوار الذي دار بين المسلم المتدين والعلماني في رواية» رحلة ابن فطومة» [٢].

- كيف صنعتم حياتكم؟.

- الجواب بكل بساطة: لقد صنعناها بأنفسنا.

لا فضل في ذلك لإله.. أنشأنا نظاماً للحكم حررنا من الاستبداد،

---

١ - غالي شكري في المنتمى، ص ٣٥٨.

٢- الرواية ص ١٠٦ - ١٠٧.

وقدمنا العمل ليحررنا من الفقر، وأبدعنا العلم ليحررنا من الجهل..

- أليست الرحمة قيمة مثل الحرية؟.

- هذا ما يردده أهل الديانات المختلفة، وهم الذين يشجعون العجزة على البقاء، أما أنا فلا أجد معنى لمثل هذه الكلمات..

- إلى أي دين تنتمي؟

- دين إلهه العقل، ورسوله الحرية..».

أيُّ دين هذا الذي يُفتن به الكاتب وينصح به حواره على لسان شخوصه؟ إنه الشيوعية التي يتفانى الكاتب في الدفاع عنها، ويتدله في حبها، لشدة إعجابه بها!! لما يراه فيها - من وجهة نظره - من قدرة على صنع عالم خال من المآسي والخلافات العنصرية والمنازعات الطبقية والعرقية على نحو ما نراه في روايته، إنجيل الشيوعية في مصر «الثلاثية» المحفوظية فيما أجراه على لسان شخوصه أيضاً [1]:

- «لا شك في احتقاري للفاشية والنازية، وكافة النظم الدكتاتورية.. أما الشيوعية فخليقة بأن تخلق عالماً خالياً من مآسي الخلافات العنصرية والدينية والمنازعات الطبقية.

- ولكن الإسلام قد خلق هذا العالم الذي نتحدث عنه منذ أكثر من ألف عام..!

- ولكن دين..! الشيوعية علم، أما الدين فأسطورة..».

أي دين ذلك الذي يطريه الكاتب ويتيه به فخراً - من خلال أحاديث شخوصه؟ إنه الشيوعية التي دُمِّرت معاقلها في روسيا، وهدمتها فوق

١- السكرية، ص١٥٢.

رؤوس الشيوعيين أنفسهم!! فأيديولوجية كهذه قادرة - إذن - على صنع عالم خال من مآسي العنصرية الدينية والخلافات والمنازعات الطبقية والعرقية وهي التي تدمر أمة بأسرها في قلب أوروبا - يوغوسلافيا السابقة- لا لشيء إلا لاختلاف العنصر والعقيدة، فكل ذنب البوسنيين أنهم مسلمون!!.. ولعل الكاتب نجيب محفوظ أدرك الآن بعد ما شاهد بعيني رأسه ما تقوم به الشيوعية ضد هؤلاء، فهل ما يزال يصر على رأيه!!

وإذا كان الدين في رأيه أسطورة، خرافة!! فأين الحقيقة إذن؟.

لكن نجيب محفوظ الذي ينهل من آبار الفكر الوجودي الآسنة التي ترى أن الدين (وهم يعطل طاقة العقل بتحريمه التفكير الناقد)[1]، فليس غريباً منه أن ينفث سمومه في خلايا الإبداع الفني، يطفح بالكراهية المقيتة لرموز الإسلام وشخوصه، فيسخر منهم ويُنَفِّر الناس الذين يحملون لهم قدراً من الجلال في ذاكرتهم، ويصمون آذانهم عن تعاليمهم، مما لا نستطيع تجاهه إلا أن نذعن بأنه (يكره هذه الشخصيات ويشمئز منها فيعرض عيوبهم ومساوئهم وشرهم الكامن، فيبدو وكأنه حاقد عليهم، فيعاقبهم أشد العقاب وأقساه ليدفع بهم إلى الموت أو الخراب)[2].

فهذه صورة الشخصية الصوفية (الدينية) عند نجيب محفوظ، ولو استقصينا الصور المتعددة لهذه الشخصيات المرتبطة بالدين لما خرجت

١- الاتجاه نحو الدين وعلاقته ببعض سمات الشخصية، ص١٦، والكلام لفرويد.

٢- الرؤية والأداة، ص٣٥٢، ٣٥٣ بتصرف د/ عبد المحسن طه بدر.

عن هذه الدائرة المعتمة، قصد إليها الكاتب قصداً مكيناً، ينبع من جرأته التي تصل إلى حد الرفض للديانات السماوية، وإن كان يعلم أن جميع الديانات نُسِخَت بالإسلام، لا سيما، وهو يعرف أن سهامه موجهة إلى الدين الإسلامي، لأنه الدين الحقيقي الفاعل في بناء المجتمع وتطوره..

من ثم، فشخصية الجنيدي لم تقدم شيئاً ذا قيمة في بناء الرواية الفني، وإن استطاعت أن تسهم إلى حد ما في إتمام صورة المجتمع الذي أجرم في حق هذا اللص، فكانت الشخصية «علي الجنيدي» الصوفية أحد (الكلاب) التي طاردت (اللص) بأنها سدت أمامه طرق النجاة، ولم تستطع إنقاذه، في حين وجد السلوى والأمل في بيت (نور) البغي التي استطاعت أن تقدم له من الزاد الروحي (الحب)، والمادي (الطعام) ما لم يستطع أن يقدمه «الجنيدي» !!.

ونور هذه - لا حظ رمزية اسمها - كانت من وجهة نظر الراوي ذات فاعلية وحركة في إنقاذ اللص، فكأن العاهرات الساقطات صاحبات رسالة ونهضة اجتماعية، لم يستطع أن يقدمها الدين في شخصية الجنيدي الذي أغلق أبواب السماء في وجه اللص.. وسد أمامه منافذ النجاة مما أسقطه في بئر الخطيئة حياً، وأغرقه في قاعها ميتاً..

وهذه من المغالطات الفادحة التي يروج لها نجيب محفوظ، فأين المجتمع الذي مهما بلغ من درجات الانهيار والسقوط يقر قراره ضد الدين، أو ينقصهم عنه إلى هذه الدرجة التي تجعله يلتمس نعيم الجنة من فيح جهنم)[1].

١- أدب نجيب محفوظ وإشكالية الصراع، ص٦٦.

وهذا المعني (المفهوم) يؤكده نجيب محفوظ، بل ويلح عليه في معظم رواياته، إن لم تكن كلها..

وفي راوية «زقاق المدق» نعثر بشخصية «السيد رضوان الحسيني»، الشخصية المتدينة التي تنطلق في تدينها من وعي صوفي صحيح، تلك الشخصية السوية الوحيدة في الزقاق، والذي يبدو من ظاهر رسمها أن الراوي يقف منها موقفاً حيادياً أو متعاطفاً معها:

« كان السيد رضوان الحسيني ذا طلعة مهيبة، تمتد طولاً وعرضاً، وتنطوي عباءته الفضفاضة السوداء على جسم ضخم، يلوح منه وجه كبير أبيض مشرب بحمرة، ذو لحية صهباء، يشع النور من غرته وتقطر صفحته بهاء وسماحة» [١].

فالسيد رضوان الحسيني - خلال هذا السرد التقريري يقدمه الروائي في صورة يبدو خلالها كالمنارة، ويمثل المناطق العليا والزوايا المضيئة في الفكر والسلوك أو المعتقد بالنسبة للزقاق).[٢]

إلا أن أثر هذه الشخصية وفاعليتها في الزقاق تكاد تكون مبتورة تماماً، ليست بذات قيمة في هذا المجتمع (الزقاق) الغاص بالانحرافات السياسية والاجتماعية والنفسية والجنسية، وغيرها، (زقاق النحس)، ولْنرَ ذلك في مواقفه المختلفة ولا سيما الإصلاحية مع أهل الزقاق، لنتعرف على مدى مصداقية هذه الشخصية وفاعليتها في تقويم انحرافات أهل الزقاق ووجهة نظرهم في هذا الشيخ المتدين.

---

١ - زقاق المدق، ص١٠، ١١.

٢ - الإسلامية والروحية في أدب نجيب محفوظ، ص١٠٤ . وللاستزادة يراجع نفس المصدر، ص٩٩: ١١٣.

فعندما ذهبت أم حميدة تستشير «السيد رضوان الحسيني» في أمر رفض حميدة لخطيبها الأول عباس الحلو - الذي كان قد قرأ الفاتحة عليها- ورغبتها في الزواج من السيد سليم علوان (صاحب الوكالة) الثري، فرفض السيد الحسيني - احتراماً للفاتحة واعتبارات أخرى اجتماعية ودينية أيضاً، فقد قال رسول الله ﷺ:

«لا يخطب أحدكم على خطبة أخيه ولا يبع على بيعه..» [1].. كان موقف «حميدة» من السيد رضوان الحسيني وخطاب والدتها كالآتي:

« وأصغت الفتاة إليها والشر يتطاير من عينيها، ثم صاحت بصوت جاف فضخ الغضب قبحه:

- السيد رضوان وليٌّ من أولياء الله، أو هذا ما يجب أن يتظاهر به أمام الناس، فإذا قال رأياً لم يبال مصلحة الناس في سبيل اكتساب الأولياء أمثاله، فسعادتي لا تهمه في كثير أو قليل، ولعله تأثر بقراءة الفاتحة كما ينبغي لرجل أن يرسل لحيته مترين، فلا تسألي السيد عن زواجي، وسليه إن شئت عن تفسير آية أو سورة! أما والله لو كان طيباً كما تزعمون لما أصابه الله في أبنائه جميعاً..»..

وارتاعت المرأة وقالت لها بإنكار وألم:

- أهذا كلام يقال عن أكرم الناس وأفضلهم؟

فصاحت الفتاة بحدة وقد أنذرت حالتها بشر مستطير:

- هو فاضل إن أردت، وولي من أولياء الله إن شئت، ونبي أيضاً إن أحببت، ولكنه لن يقف حجرة عثرة في سبيل سعادتي..

---

١ - سنن النسائي كتاب البيوع - باب سوم الرجل على سوم أخيه، رقم الحديث ٤٥٠٢، ص ٢٥٨، المجلد السابع - دار البشائر الإسلامية - د ت - مصر.

- ولكنك مخطوبة..

فضحكت حميدة ساخرة وقالت:

- إن الفتاة حرة حتى يعقد عليها، وليس بيننا وبينه إلا كلام وصينية بسبوسة!.

- والفاتحة؟..

- المسامح كريم...

- الفاتحة ذنبها كبير..

فصاحت باستهانة:

- بليها واشربي ماءها..

نلمح وراء كلمات «حميدة» شخصية نجيب محفوظ، لأن «حميدة الجاهلة» بنت الزقاق لا تستطيع أن تدير حواراً على هذه الدرجة من الثقافة والفكر، إذن.. ما قالته هو ما يريد نجيب محفوظ أن يقوله، وإني لأعجب كيف يقول على لسان حميدة عن الفاتحة: بليها واشربي ماءها؟.. !!

فهذه الجرأة لا يمكن أن تقدم عليها مثل هذه الفتاة.. المعروف أن البسطاء أكثر تخوفاً وأقل جرأة من مثل هذه العبارات من كثير من المثقفين.

وهذا الموقف أيضاً يطعن في فنية الرواية، لأن المطلوب من الكاتب عندما يلجأ إلى الحوار أن يراعي مستويات الشخصية التي تنطق به من ناحية السن، والفكر والثقافة، والمكانة الاجتماعية، وإلا وجدنا الكاتب يطل بشخصه من وراء هذا الحوار، والقوانين أو المواضعات الفنية حرمت عليه ذلك.

وانتهى الحوار بانتصار حميدة على والدتها والسيد رضوان الحسيني. واتفقتا على إتمام الصفقة معاً في الغد، إلا أن القدر كان أسرع من مؤامراتهما فكاد أن يختطف السيد سليم علوان!! (١)

١- زقاق المدق، ص: ١٤٢، وما بعدها.

فالكاتب، هنا، وإن كان يصور شخصية السيد رضوان الحسيني تصويراً لائقاً يكاد يصل به إلى درجة الأنبياء، أو الملائكة.. إلا أنه لا يفتأ يسخر منه في كونه رجلاً - في نظر حميدة بطلة روايته - يتظاهر بالولاية أمام الناس، «لا يبالي مصلحة الناس في سبيل اكتساب الأولياء.. سعادتي لا تهمه.. يرسل لحيته مترين.. لا تسأليه عن زواجي، واسأليه إن شئت عن تفسير آية أو سورة.. لو كان طيباً لما رزأه الله في أبنائه جميعاً..».

فالشيخ الذي يرفض ارتباط حميدة بالخاطب الجديد (سليم علوان)، لكونها مرتبطة بخاطب آخر، «عباس الحلو» لم يتركها بعد من منطلق أن الدين يرفض مثل هذا السلوك المتخلف، كما أوصى الرسول ﷺ «لا يخطب أحدكم على خطبة أخيه حتى يترك..» لم يقنع الكاتب برؤيته هذه في نظرته المتوارية وراء شخصية «حميدة» التي أبدعها هو، وصنعها على عينه، فيرى أن الفاتحة شكل أو عادة اجتماعية، ليست بذي قيمة حتى تقف حجر عثرة في سبيل حريتها في اختيار من تحب، ولعلها آثرت هذه الحرية التي ساقتها إلى بيت فرج (سمسار الدعارة) حتى نهايتها المفجعة، لذا أعلنت في إصرار وتبجح، أن الشيخ الحسيني بآرائه هذه «لن يقف حجر عثرة في سبيل سعادتي» ولن هنا، كما يقول النحاة، تفيد تأكيد النفي في المستقبل، فضلاً عن تأبيده في رأي الآخرين منهم.[1] مما يؤذن بأن الأمل مفتقد حتى في المستقبل من الاستجابة لآراء الشيخ الحسيني.

---

١ - راجع شرح المفصل لموفق الدين بن يعيش، المجلد الثاني: ٨/١١١، ١١٢. مكتبة المتنبي - د ت - القاهرة. وكتاب الكشاف للزمخشري ص: ٥٤ الجزء الثاني، ت: مصطفى حسين أحمد. دار الريان للتراث ط: الثالثة سنة ١٩٨٧م.

فالروائي نجيب محفوظ أراد أن يقرر رأيه في هذه الشخصية التي ارتبطت صورتها بالدين، فإنه على هيبته وجلاله وثقة الناس به،إلا أن صلاحَه تصنُّع، وإيمانه تظاهر، ولا يبالي بمصالح الآخرين، وأنه متمسك بما لا يفيد، ولا يصح لمثله أن يفتي في شؤون الحياة وظواهرها الاجتماعية كالزواج وغيره، إنما فهمه لا يتعدى تفسير الآية أو السورة ليس إلا!!، وأن آراءه ليست ذات قيمة في البناء الاجتماعي، ولا تسهم في تطوره، ولو كان كما يعرف الناس عنه، أو يظن هو نفسه لما عاقبه الله بموت أبنائه جميعاً، فيبدو هكذا كالشجرة العقيم ليس لها ظل ولا ثمر، لاسيما وهو رجل يعاني من الفشل واليأس في حياته..!!

« كانت حياته وخاصة في مدارجها الأولى - مرتعاً للخيبة والألم، فانتهى عهد طلبه العلم بالأزهر إلى الفشل، وقطع بين أروقته شوطاً طولاً من عمره دون أن يظفر بالعالمية، وابتلي إلى جوار ذلك - بفقد الأبناء، فلم يبق له ولد على كثرة ما خلف من الأطفال، ذاق مرارة الخيبة حتى أتسرع قلبه باليأس أو كاد..[1]

وبهذا قدمه في صورة الإنسان الحاقد على الناس والمجتمع، فلا خير يرجى من ورائه...

ولجوء الأم (أم حميدة) إلى السيد لم يكن إلا إجراء شكلياً قصدت منه إغاظة ابنتها فحسب، لكنها رضيت بما اقترحته ابنتها رغبة منها في حياة رغدة في ظل ابنتها:

١- الرواية، ص: ١١.

«إذا تزوج رجل مثل السيد سليم من فتاة، فهو في الواقع إنما يتزوج من أهلها جميعاً، كالنيل إذا فاض أغرق البلاد، أفهمت..؟ أم تحسبين أن تزفي إلى قصرك الجديد وأُلقى أنا هنا تحت رحمة الست سنية عفيفي وأمثالها من المحسنين؟! (١)

فالمشكلة في نظر نجيب محفوظ هي الفقر، فهو الذي دفع حميدة إلى ترك خطيبها التي تحبه إلى شخص آخر لا يتمتع بأية صفة تحبب الناس فيه إلا المال..

ثم انحرافها بعد ذلك، وسيرها في طريق الخطيئة كان أيضاً لدفع الفقر عنها، فالفقر هو العدو اللدود للإنسانية، وفي القضاء عليه قضاء على كل الرذائل كما كانت تزعم الشيوعية قبلاً، وجاء انهيارها فضيحة لكل ما تعتنق.

هكذا ينتصر الجميع على الشيخ «الحسيني» في رأي نجيب محفوظ!!

فنجيب محفوظ عندما يصور هذه الشخصيات (الصوفية) لا نستطيع اكتشاف هل يسخر منها المؤلف أو يرضى عنها! وإن نَمَّت هذه الشخصية عن كراهية مستحكمة لمثل هذه الشخصيات، وإن كان بعض النقاد يقول بحب «نجيب محفوظ» لمثل هذه الشخصيات لاسيما شخصية «السيد رضوان الحسيني» الذي يرفعه إلى مرتبة ملائكية غاية في السمو، إلا أن حضوره في الرواية لا يمثل أهمية أو فاعلية في بنائها الفني، فلم يحضر إلا لإلقاء الخطب والعظات- التي يرتفع مستواها كثيراً عن

١- الرواية ص: ١٤٤.

مدارك مستمعيه من سكان الزقاق وغيرهم[١]، في أسلوب تقريري فجّ يبدو عائقاً لانطلاق الرواية وتقدمها على المستوى الفني، حتى وإن كنا لا نقبل من هذا الناقد موقفه من شخصية السيد رضوان الحسيني في رواية نجيب محفوظ (زقاق المدق) في كونها تنبئ عن رفض الكاتب للمادة، وتعلقه بالروح، فتؤكد كذلك على رضانا، وموافقته بحكمه على تصويره لهذه الشخصية بصورة تشي بعجزه إلى حد كبير عن تصوير الجانب الذي يحبه، بحيث تبدو شخصياته المادية الطموحة أكثر حيوية (حميدة)، من شخصياته الروحية الراضية (السيد رضوان). وليس ثمة تبرير لمثل هذا الموقف، إلا أن المؤلف لم يكن يرى في الواقع إلا الجانب الذي يكرهه (المادي)، أما الوجه الآخر للحياة (الروحي) فكان حلماً لا يمارسه ولا يفهمه [٢].

فشخصية الصوفي (السيد رضوان الحسيني) جسدت - في تورية مفضوحة - موقفه من الدين وعلمائه الذين لا يلبث أن يفحَّ سمومه ما سنحت له الفرصة دون مواربة أو حرج، انطلاقاً من رؤيته التي ترمي إلى هدم الدين، والتي في ظننا تكون لديه من إيمانه بالشيوعية التي لا تعترف بدين ولا بإله..

لقد فتن نجيب محفوظ إلى حد الانبهار بالشيوعية مما حدا به إلى الحكم بخرافة العقيدة وعدم جدواها، بل يَسِمُها: بأنها معطلة للتطور الاجتماعي، والإبداع الفكري، وأن دعاة التمسك بالقيم والفضائل والمثل

١ - الرؤية والأداة، ص: ٣٥٤.

٢- نفس المرجع، ص:٣٥٣.

أناس متخلفون منكفئون على أنفسهم، يتجرعون الألم والحسرة وخيبة الأمل، ويتعشقون الظلام، يلتصقون به ولا يبرحونه.. حتى إن السيد رضوان الحسيني عندما ينوي الخروج أو الانعتاق من كابوس الحارة لم يبرحها إلى المجتمع خارج أسوار الزقاق، ولم يستطع تحطيم السور المرتفع الذي أقامه بينه وبين المجتمع خارج الزقاق، لكنه فارقها إلى أداء فريضة الحج، لتكتمل عقيدته ليس غير، حتى إنه لا يرغب في العودة إلى مجتمعه مرة أخرى.

- «أخي لا تذكرني بالعود.. إن من يقصد بيت الله وفي قلبه خاطر من خواطر الحنين إلى الوطن، حقيق بأن يبطل الله ثوابه، ويخيب دعاءه وينفد سعادته» [١].

فالخروج يمثل هروب «السيد رضوان الحسيني» إلى العالم الآخر، لأنه في اعتقاد نجيب محفوظ لا يصلح أن يفتي أو يواجه مشكلات الحياة، وليس باستطاعته فعل شيء تجاه ما يحدث في الواقع، فلذا آثر السلامة، وحمل عصاه ورحل حيث يريد البقاء..

أما شخصية (الصوفي العالم) «الشيخ عبد الله»، في رواية «عمالقة الشمال» لنجيب الكيلاني، فإنه يمثل المنقذ لمريديه، لا سيما، عندما يحارون في تفسير بعض مجريات الحياة، أو يتكيفون مع حوادثها وتقلباتها، فيجدون يد الشيخ تنتشلهم من حيرتهم، وتأخذ بأيديهم إلى شاطئ الأمن والطمأنينة كلما عَثُرت بهم العثرات. يضع نفسه في قلب معاناتهم، فيتقاسم آلامهم، ويشاركهم آمالهم، ويُثري في قلوبهم بواعث

١ - زقاق المدق، ص: ٢٧٠.

الإيمان، ويغذي نفوسهم بأشعة النور التي تغرق هذه القلوب الحائرة، فيأخذ بهم إلى حالة من السكينة النفسية التي يسبغها عليهم الإيمان العظيم... فلنر دوره في استنقاذ تلميذه الداعية المسلم «عثمان أمينو»، لا سيما عندما يطارده طيف الفتاة «جاماكا» المتنصرة، عندما وجد في نفسه ميلاً إليها، مما زاد من خوفه وارتباكه الذي قض مضجعه، فلم يجد إلا شيخه يستفتيه في هذا الأمر فيسرع إليه:

- سيدي وإمامي.. في القلب حاجات وفيك فطانة..

ابتسم مسبل الجفنين وهمس:

- أي عثمان.. أشواق الإنسان لا نهاية لها..

- أشواق منحرفة يامولاي..

- ما دمت قد عرفتها فلا تخشها.. أعطيت لها الصادق في الصفات، ففيم الخوف والشتات؟؟.

قلت في قوة:

- أجل.. أشواق.. لكن لها صفة الانحراف...

- هز الشيخ عبد الله رأسه وقال:

- اخلع نعليك.. وانزع طاقيتك.. وانظر إلى السماء واهتف سبحان الله.. والحمد لله، ولا إله إلا الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وكانت كلمات شيخي أمراً لا يرد.. خرجت قبيل الفجر حافياً، عاري الرأس أضرع إلى الله.. شعرت ببرد الراحة يسكن بين ضلوعي(١).

---

١ - عمالقة الشمال، ص: ١٤ - ١٥.

فالشيخ عبد الله لم يقف مكتوف الأيدي أمام مريده «عثمان أمينو» لكنه يمد له يده، فيفرّغ في قلبه شحنة من إيمانه، يفتح أمامه باب السماء، ويطمئنه بأنها أشواق، وأشواق الإنسان لا حد لها.. وما دام يعرفها فلا خوف منها ولا جزع، والبرء منها طريقه السماء.. العبادة..

وعندما تقتحم هذه الفتاة على «عثمان أمينو» خلوته، وتجاهره برغبتها فيه.. (أريد أن أكون لك).. وعثمان يرى أن ذلك (محاولة مستحيلة.. دونها الموت.. فهي متنصرة، وهو مسلم، وهي ممرضة وهو داعية، وهي من الإيبو، وهو من قبائل الفولاني)[1].. فأيقن أن هذا امتحان وبلاء من الله، فلم يجد إلا شيخه يهرول إليه ليقينه به، لأنه واجد لديه مخرجاً من هذه الورطة:

- مولاي..

صاح بأعلى صوته دون أن يفتح عينيه:

- استغفر الله يا عثمان.

- مولاي..

- انتظر حتى تتم الصلاة.

كانت دموعي تهطل بين الركعات والسجدات، تبلل وجهي ولحيتي السوداء الصغيرة، وبللت القطرات موضع السجود.. انتهت الصلاة، وقرأنا الأوراد وأخذ الدراويش ينصرفون واحداً بعد الآخر وهم يصافحون الشيخ ويقبلون يده. كم كانت دهشتي عندما سمعت الشيخ يقول وهو مغمض العينين:

١- محاولات جديدة في النقد الاسلامي، ص ٢٢١.

- اذهب بتجارتك على الفور صوب الجنوب.. ولا تصحب «نور» معك..

- مولاي..إنه فقير مسكين.

- ولتعطه أجره لوجه الله..

- ما جئت لأمر كهذا..

- هذا هو الجواب.. افعل ما تؤمر..

وأخذ يردد: يا مغيث أغثنا، واكشف عنا السوء، ثم سمعته يزجرني: قل معي يا عثمان.. قلها ألف مرة..».

وأخذت أردد الضراعة بقلب متعلق بالله، كنت أشعر أن سحب الخوف والعناء تتقشع وأن مشاعري ترقّ وتصوفو، وما إن انتهينا من الوِرد المذكور حتى سمعت شيخي عبد الله يقول:

- الشيطان لا يكف عن قرع أبواب المؤمنين.

صحت وأنا أشهق باكياً:

- إنها امرأة يا مولاي..

ابتسم الشيخ في هدوء، ومسح على رأسي وظهري، وقال:

- «يأتي الشيطان في شكل امرأة.. وقد يظهر بثوب سلطان على رأسه تاج، وقد يخطف بصرك على صورة قطع من الذهب والمجوهرات.. المال شهوة.. والسلطة شهوة.. والنساء شهوة.. هل فهمت؟؟.

طأطأت رأسي في استحياء وتمتمت:

- المصيبة أن قلبي خفق لها..

- لن يحاسبك الله إلا على ما جنت يداك.

- فتاة متنصرة من الإيبو.

- عندئذ فتح الشيخ عينيه، وتنهد ثم قال:

- لم «يعلمـوها من الدين إلا أن المسلمين في النار.. وأن الرقص والشراب والإباحية هي المدنية.. فهي مدنية خراب.. صنعها فكر سقيم يبغي التدمير.. الشرع يبيح زواجك منها، ولكن لا تنس أن مسلمة خير منها ولو أعجبتك..».

فالشيخ عبد الله يحاول ببصيرة المؤمن، وعقلية المحنك، أن يهدي مريده إلى الصواب.. فعلاجه أن يرحل عن مصدر الألم والقلق، ويرحل بتجارته إلى الجنوب يهاجر في سبيل الله لكسب عيشه، وجهاده في سبيل نشر الدعوة الإسلامية، فيؤدي واجبه نحو عقيدته ونفسه، ويبتعد عن مصدر الشر الذي يدفعه شيطان هذه الفتاة «جاماكا».. فإنه مَعْنِيٌّ بمهمة أَجَلّ وأعظم، من الانشغال بحب هذه الفتاة النصرانية، مهمة الدعوة ونشرها بين مناطق القبائل النيجيرية في الجنوب، التي لم يصلها دعوة الإسلام، وتحاصرها في الوقت نفسه حملات التبشير الصليبي بكل عتادها ومؤنها مما يصنع الحياة على الأرض تكاد تجف ينابيعها فيها.. وهو يعلم - الشيخ - مدى تفاني عثمان الداعية وحبه لمثل هذه المهام، وشرد الشيخ ثم أغمض عينيه، وهتف:

«حي.. قيوم.. علام الغيوب.. إذا نزلت يا عثمان أحراش اليوروبا.. وظلمات الإيبو.. فابعث بكلمات الله في كل مكان، وادع البشر هناك إلى عبادة الواحد.. وقل لهم كونوا إخوة.. وحطموا الأصنام الجديدة، وأطلقْ

كلماتك في الصحراء.. في الغابات.. في المناجم.. في المصانع.. ولا تخش إلا الله، وليس من المكتوب هروب..

ولو اجتمع أهل السماء والأرض على أن يضروك بشيء، لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك» (١).

.. شيخي، قلبي يرتجف من الخوف.

- «لا قيمة لذلك..».

- وابحث عن الاطمئنان.

- ستجده.

- كيف؟؟.

- عندما تطلق شهوات الدنيا.

فالشيخ هنا يضع نفسه في قلب هموم مريده، وما يقع له من مشكلات أو أحداث، فيعيش الحياة كما يعيشها مريده بكل زخمها وموارها، فإنه بشر ككل البشر، يأكل وينام، ويصوم ويفطر، ويخلو إلى نفسه فيذكر الله، ويفكر في أمر نفسه وحياته، ويحب الناس في إطار حبه لله ورسوله، فهم خَلقُ اللهِ الذي يُحبُ اللهَ ورسولهَ فيهم، يقوى ويشمخ، ويضعف فيبكي وتسيل دموعه حَرَّى، وتنتابه حالات من التردد والحيرة، شأنه شأن غيره من الناس.. يعيش الحياة بكاملها، ويؤدي ما عليه من واجبات النصح والإرشاد المقنع، الذي يقع من نفس المتلقي

١- عمالقة الشمال، ص:٢٤.

كالدواء الناجع للمرض العضال، يعيش الحياة بكاملها لا ينصرم عنها، باختيار دقيق لكل ما يُقدِم عليه من سلوك أو تصرف، فلا يبرح الإطار الإسلامي الذي يفرز النموذج البشري المثالي بمفهوم التصور الإسلامي، منطلقاً إلى الآفاق الرحبة لكي يسهم في خلق مجتمع متجانس وقادر على إفراز نماذج أخرى على صورة هذا المثال.. فلا يتقوقع، أو ينكفئ في خلوة مظلمة على نفسه، ذاهل عمن حوله، لا يعي ما يدور حوله في المجتمع، خارج دائرته المعتمة كما وجدنا - هذه الصورة- في روايات نجيب محفوظ مثل شخصية الجنيدي، أو رضوان الحسيني...

وعندما قتل الزعيم الإسلامي «أحمد و بيللو» الذي كان يذود عن شمال نيجيريا المسلم، ويقود جيوشها ضد المستعمر الصليبي، اجتاحت البلاد نكبة راح ضحيتها المسلمون في هذا الإقليم، واجتاح الناس خوف مباغت على مصائرهم، فما كان من الشيخ إلا أن ينهض يروّض خوفهم، ويثلج قلوبهم، ويطمئنهم بأن الموت غاية الشهداء في سبيل الله ووسيلتهم إلى الآخرة:

- من قال إن الطوفان أعمى؟؟.. للطوفان عيون يلتقط بها ما يشاء، ليدمره أو يغرقه.. وما انطلق الطوفان إلا بإرادة الله. وإذا بدأ الطوفان قاسياً ظالماً، فتذكروا حكمة الله الكامنة خلف الأشياء.. وإذا هلك الشيطان يا أبنائي فلن يكون هناك صراع.

.. ليس القاهر هو الطوفان، ولكن القاهر هو الله.. اذكروا ذلك جيداً.. ولا تقولوا انتهى أمر «أحمد و بيللو» ولكن قولوا أراد الله لقاءه.. فلبَّى الشهيد النداء.. نحن لا نسمع هتافه وهو سائر في الطريق إليه..

لكنه لا شك كان يقول:مرحى...مرحى.. هذا يوم اللقاء العظيم.. واغرورقت الأعين بالدموع، ثم انسكبت حتى بلّلت اللحى، وشهق البعض باكياً.. وصاح شيخنا نافراً:

- لا تنتحبوا.. بل رددوا معي، العزة لله ولرسوله، وللمؤمنين «رددوها ألف مرة..» وما إن انتهينا من الوِردِ المطلوب، قلت لشيخي:

- وما ذا تفعل؟..

قال:

- سل قلبك..

قلت: في القلب ترتجف أمنيات كثيرة، ولا تعرف كيف تنبثق؟..

- قل كلمة الحق.

- إنهم يقيمون في طريقها السدود يا شيخي الجليل.

- قل ولا تخف..

- الموت والسجن يترصّدان لنا..

- هذا هو الجهاد.. بعضنا سوف يفلسف ضعفه، ويتقاعس بحجة أن الظروف لا تسمح، والكفاح قد يكون حماقة، ولا تصدقوا هذه الكلمات، لأنها الموت بعينه.. الحق لا ينتصر إلا بالمجاهدة المستمرة.. لقد تعلمنا أن الموت ليس خاتمة المطاف.. الموت مرحلة إلى الدار الثانية.. وهي أروع، فكيف نحجم عن النعيم المقيم؟؟...

هل تذكرون؟؟.. أن عصا واحدة قهرت جيشاً يعد بالآلاف، تلك عصا موسى وجيش فرعون الجرار.. والشهداء هم النخبة الممتازة التي يختارها الله.. سأراكم غداً تسيرون في الطرقات وتعلنون كلمة الحق جماعات وفرادى.. ولا ترهبوا الحديد والنار.. عزيمة المؤمن أقوى من الحديد، وأقوى من النار.. انطلقوا يغفرِ الله لكم..» (١).

فالشيخ - رغم فداحة المصاب - إلا أنه لم يجلس بين مريديه، يندب القدر الذي اختطف البطل «أحمد و بيللو» قائد الحركة الإسلامية في شمال نيجيريا، والذي يقف بالمرصاد لكل محاولات الاختراق السياسي والعسكري والعقدي.. يعقد الجميع عليه الأمل في القضاء على المتآمرين من اليهود والصليبيين على المسلمين هناك، إلا أنه راح يبثُّ فيهم الأمل في الغد القريب، وأنهم لا بد منتصرون مادامت عُراهم وثيقة بالله، وأنه سيراهم قريباً يحملون مشاعل النور في الطرقات وبين الفيافي، فينفح أرواحهم بعبير الإيمان، فتعبُّ منه النفوس حتى تثمل، فتنشط، وتبحث، وتتمرد، وتجاهد:

«كأنما شحنني شيخي بزاد روحي لا ينفد، فشعرت بأنني أستطيع أن أحقق المعجزات، وأفعل المستحيل، ونظرت إلى السجانين عن كثب، وإلى الأسوار العالية الضخمة والأسلاك الشائكة، نظرت إلى ذلك كله فبدا لي تافهاً لا خوف منه ولا قيمة له، وتمتمت في يقين: إنه وحده هو القاهر» (٢).

---

١ - عمالقة الشمال ص ٨٤.

٢- عمالقة الشمال ص ١٣٨.

.. فمن جراء ما كان يقوم به من جهود في حقل الدعوة الإسلامية في نيجيريا أُلقِيَ به في سجن النظام الشيوعي لقاء جهاده ووطنيته وانتمائه العقدي، ولعلها طبيعة الأنظمة الدكتاتورية في كل مكان!!، إلا أن نفسه الأبية، العزيزة بالإيمان والنفحات الروحانية التي ينفثها شيخه في روحه كان زاداً روحياً عظيماً، أبدله بالذل عزا، وبالقيد حرية، وبالعجز قوة لا تدانيها قوة، إذ إنها مستمدة من قوة القاهر (عز وجل).

.. وفي السجن يتآلف الناس حول الشيخ، وينعمون في جواره بالحب والطمأنينة، وعندما يستجيب بعضهم لفتنة قائد السجن يَهُبُّ الشيخ ينبههم بما يحاك لهم في الظلام:

«رأيت شيخي عبد الله يشرق بوجهه الطيب، واقتحم المعمعة كفارس تقليدي معمم دون تردد أو وجل، وصرخ صرخة اهتزت لها جنبات السجن:

- كفوا أيديكم أيها الإخوان..

وأصيب العراك الحامي بالشلل، توقفت الأيدي والعصيّ والأرجل، ووقف كل في إمكانه، وارتمى في ساحة المعركة رجلان يئنان من الجراح، وشُدَّت الأعين والأسماع إلى الرقعة الصغيرة التي كانت تشتعل خلافاً ووحشية منذ لحظات، وتجلى الشيخ في الوسط كينبوع من الصدق والشجاعة والحب والإيمان ونادى بأعلى صوته:

- يا أبنائي الأعزاء.. كلكم أبنائي.. إذا التقى المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار.. هذا ما قاله نبيكم (صلى الله عليه وسلم).. ومن قديم كانت المعركة الأصلية هنا - وأشار إلى قلبه - فمن انتصر

على نفسه الأمارة بالسوء.. دانت له الدنيا، وخضعت له رقاب الجبابرة.. النصر آت لكنكم قوم تستعجلون، والموت لا بد آت، ففيم الخوف، والجنة معدة للمتقين، فَلِمَ تهرولون إلى النار.. طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس.. قوموا إلى الصلاة يرحمكم الله..» (١).

- ومتى كانت الخيانة طريقاً للأمن والسعادة والاستقرار؟..

قال شيخي:

- «انظروا إلى السماء.. نحن في آخر الشهر العربي.. والظلام دامس.. والنجوم تقاوم الظلمة.. لكن لا تنسوا القمر، سوف يسطع عما قريب، واذكروا أن بعد الليل نهاراً..

هكذا الدنيا.. لكنكم قوم تستعجلون..

قلت في مرارة:

- «يا شيخي.. الطغيان يتوطد.. والسفلة يسودون..».

وابتسم وقال:

- عندما يعجز البشر.. تأتي سفينة نوح.. أو تنقض صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود.. يا أبنائي ارفعوا راياتكم الخضراء، واكتبوا عليها:

- «وكان حقاً علينا نصر المؤمنين».. والله سبحانه لا يخلف وعده.. ما دمنا مؤمنين.

فالروائي نجيب الكيلاني أبى إلا أن ينقلنا إلى هذا الجو الإيماني الشفيف، فأتاح لنا فرصة التواصل مع الشخصيات ومعايشتها حتى النخاع من خلال هذه اللغة الرقيقة الدافقة.

---

١ - عمالقة الشمال، ص١١٠.

.. قدم هذه الشخصية الواعية المدركة لدورها فأقنعنا بالدور الرائع الذي يجب أن يتشبث به كل داعية مصلح تشربت روحه تعاليم الإسلام.. ونلحظ تعاطف الكاتب مع هذه الشخصية، ولعل هذا التعاطف نابع من معاناته التي لقيها في سبيل دعوته، لأنه عانى وعايش مثل هذه المحن عندما حكم عليه بالسجن في قضايا «الإخوان المسلمين» في مطلع عصر الثورة المصرية، وذاق من العذاب والمعاناة ما ولَّد لديه شعوراً جارفاً تجاه مثل هذه الأحداث.. لكن هذه المعاناة وتلك الأحاسيس القاتلة تبدلت بها معانٍ قادرة وعظيمة بفضل وجود الشيخ عبد الله الصوفي الذي كانت نفسه تمثل صخرة - إن صح التعبير - تتحطم عليها هموم وهواجس وآلام المسجونين.. كل المسجونين.

وجد الكاتب في هذه الشخصية عزاء لما لقيه من عنت في حياته الخاصة مستغلاً بعض تقنيات البناء الفني من حوار ومنولوج (حوار داخلي)، وخطابة وغيرها، ما ينقلنا إلى هذا الجو العابق برحيق الإيمان، والمضيء بكلمات الشيخ ذات الروائح الندية التي تعبق في جنبات السجن، فأبدلت بجَوّة الخانق هذا الجو الإيماني الرحيق، حيث تتردد بين جنباته الدعوة للقيم والفضائل والمبادئ السامية، ودعوة للتخلي عن الانكسار والانهزامية التي يفرضها مثل هذا الجو المقيت..

فالشيخ بتفاعله وقدرته - بما وهبه الكاتب من معطيات إيمانية ومقومات إنسانية - استطاع أن يضفي على عالم الشخصيات جميعاً، ولا سيما، شخصية المريد الداعية «عثمان أمينو» هالة من الطمأنينة والسكينة أخرجته من دائرة الحيرة، وعالم القلق والاضطراب النفسي تجاه ما يقابله من مشكلات، أو يجول في نفسه من خطرات يعجز

أمامها.. فيجد الحل والمخرج في الملاذ الإنساني أولاً، شيخه الجليل عبد الله، فكان يثري روحه ويهذبها بمشاعر الحب في الله، والتواد مع البشر في إطار من الإسلامية السامية..

فالروائي نجيب الكيلاني خلال هذه الشخصيات يطمح إلى عالم من السمو والشفافية (الواقع الطامح)، حيث يتجاوز الروائي العالم الواقعي (الحادث) إلى هذا العالم الذي يوحي بالقضايا التي يؤمن بها القاص، أو يدعو إليها (فالواقعية في الفن انتقاء واختيار) (١) لما يحقق له هدفه في الرواية.

فالشيخ لم ينقطع للعبادة في صومعته، مُطَلِّقاً الدنيا، وما تزخر بها من قضايا ومشكلات تختلف باختلاف منطلقاتها وتوجهاتها في المجتمع، كما يحدث في روايات «نجيب محفوظ» الذي لم يقف حتى عند تصوير الواقع فحسب، بل يقدم بجراءة على تشويهه إذا تعلق بالشخصيات الإسلامية.. فذهب يستلهم هذه الأفكار المشوهة يصم بها الواقع الذي يرسمه، من ثم لم تستطع شخصياته أن تقدم النموذج الإسلامي السوي، لأنه أراد تشويه هذا النموذج لحاجة في نفسه...

فالصوفية الحقة البعيدة عن الانحراف لا تعني هذا الانكفاء أو الانعزال، إنما هي حياة وحركة يتحرر الإنسان خلالها من الدنيا حتى لو ملكها عريضة، فهو لا يخضع لشهواتها، وإنما يوظف ما يكسبه، وما يناله منها عن طريق الحلال، يوظف ذلك لخدمة الفقراء والنهوض بمجتمعه، فيتحرر من الجاه والانغماس في الملذات من الجري وراء

١- فنون الأدب ص ١٢٨ لتشارلتن، ت د/ زكي نجيب محمود - لجنة للتأليف والترجمة - مصر.

المال، ومن حب السلطان، ومن حب الترف، ومن الصفات التي تتنافى مع الفضيلة.. (هذه الوسائل تؤدي إلى الصفاء، فإذا ما حل الصفاء كان عند الإنسان استعداد كامل للمشاهدة، وهذه المشاهدة هي أسمى درجات المعرفة، وهي الغاية النهائية التي يسعى وراءها ذوو الشعور المرهف والفِطر السوية والشخصيات الربانية) [1].

وشخصية الشيخ هنا في رواية «عمالقة الشمال» كانت مكملة لحركية البطل الداعية المسلم «عثمان أمينو» في أسلوب أشبه بالدائرة (الأسلوب الدائري).. فمن خلاله استطاع البطل الإيغال في الرواية، وأمكننا نحن المتلقين من سبر أغوار نفس البطل، واستكناه دوره في هذا العمل، من ثم تآزرت الشخصيات على إبراز بعض القيم والفضائل، ما نستطيع أن نجعلها (البطل الحقيقي) في الرواية، فجميع الشخصيات أسهمت بدور فاعل في بلْورة هذه القيم أو الفضائل التي يؤمن بها المؤلف أو القاص، بدون تكلف أو مباشرة، فَوَعى نجيب الكيلاني دوره وأمسك بكل خيوطه، ولم يدع أحدها يفلت من يده، فظلت مشدودة حتى النهاية، ما تشد به وجدان القارئ كذلك، فتلفحه حرارة الأحداث وتدفقها، ويشده فوران المواقف وتجاذبها، وتقلب الشخصيات وتفاعلها، فيتلاحم المتلقي مع المبدع من خلال هذا التآلف، أو التلاقي الذي خلقه المبدع بصدقه الفني.

(فالشيخ عبد الله.. رغم سمو تجربته الروحية التي تسلكه في عِداد زعماء الحركات الصوفية، فإنما هي ظل، وهو في القمة النورانية

١- قضية التصوف، ص٤٥، د/ عبد الحليم محمود - دار المعارف - ثالثة - د ت - مصر.

الشفيفة، ذلك الرجل الواقعي الفاعل في صميم الحادثة التاريخية.. إنه يحب ويكره، يقبل ويرفض، يفرح ويتألم، يقاوم بالفعل والكلمة.. فينتهي الأمر به إلى السجن.. رجل في قلب الواقع.. لكنه حتى وهو في أعماق سجنه بطل، ذلك المؤمن الحر في الخوف والحزن، لا تتجاوز قيود السجانين كعب حذائه..!!. ينظر دائماً من نافذة هذه الحرية التي منحه إياها الإيمان العميق بالله، ينظر إلى المستقبل بثقة واطمئنان، إن الله مع عباده المؤمنين، وليحدث الطوفان بعد هذا.. إنه لن يدمر ويعمل في التاريخ بعشوائية، لكنه سيغسل ويطهر ويفتح الأبواب الموصدة لكي تتدفق أنهار القيم النظيفة في مجاريها.. إن الله مع عباده المؤمنين..

ومن خلال هذه المعادلة كان بمقدور الشيخ عبد الله والقلة المؤمنة معه أن تقف لا بمواجهة الأعاصير التي اجتاحت عمالقة الشمال فحسب، ولكن بمواجهة العالم كله، ومن ثم كان الشيخ عبد الله بمثابة الجزيرة الخضراء التي يتنادى - إليها الخائفون والمحزونون والمطاردون فيمنحهم الثقة والأمل والسعادة والاطمئنان.. إنه ليس بدعا في تاريخ الإيمان الطويل، إنه واحد من أولئك المتصوفة الكبار الربانيين، لا الرهبانيين، الذين صنعوا تاريخ الإسلام في أفريقيا، وفي مساحات واسعة أخرى من العالم).

(الشيخ عبد الله شخصية فنية مقنعة ومؤثرة.. أخلص الكيلاني في إبداعها على هذا النحو الإبداعي العظيم من خلال الإطار - الرؤية الإسلامية الناصعة التي تتعانق خلالها القيم النبيلة والمواقف السامية.. ونحن عندما نضعها جنباً إلى جنب مع شخصية «عثمان أمينو» يتبين

لنا كيف يصنع الإسلام الشخصيات المتنوعة.. كيف يرسم الآفاق الممتدة، المتدرجة التي يعقب أحدها الآخر ويمتد وراءه إلى المشارق البعيدة التي يمكن أن يرقى إليها المؤمن يوماً...) [١].

شخصية الشيخ عبد الله هي الحبل السُّرّيّ، أو الساق التي توغل بالرواية جميعاً إلى هذه الآفاق الرحبة، والممتدة بين السماء والأرض، وبدونها ستفقد الرواية أهم مقوماتها الإبداعية والفكرية؛ بل تفقد حياتها، وتصبح خلقاً مهلهلاً ومشوهاً لن يخلّف في المتلقين غير النفور والاشمئزاز..؟

وإذا كانت هذه الشخصية الصوفية في رؤية الكيلاني الإبداعية قد بلغت حداً يكاد يصل بها إلى المثال الإسلامي لهذه الشخصية الإسلامية (العالم الصوفي)، فإن للكيلاني لا سيما في بداية تكوينه الأدبي وتذبذب رؤيته الإبداعية - رؤية مقلدة لهذه الشخصية (العالم الصوفي) في القرية، إذ المرحلة التي أبدعت فيها الرواية كانت مرحلة «تقليد الكتاب الكبار آنذاك ممن تربوا على موائد الإبداع الغربي[٢]، فكان الكيلاني مفتوناً برؤاهم آنذاك، فكانت شخصية «الشيخ الشاذلي» (العالم الصوفي) في قرية نجيب الكيلاني في رواية «رأس الشيطان» رجلاً بائساً، ويائساً من إصلاح حال القرية، فعندما مد أهل القرية أيديهم إليه كي ينقذهم مما هم فيه من ظلم وصلف الباشا «فتدافعوا

---

١ - ما بين الأقواس من كتاب محاولات جديدة في النقد الإسلامي ص: ٢٤٩، ٢٥٠ بتصرف للدكتور / عماد الدين خليل.

٢- راجع مقال «رأس الشيطان بين الفن والتاريخ» - مجلة الأمة - عدد (٤٤) شعبان: ١٤٠٤ نجيب الكيلاني.

نحو بيت الشيخ، ومدوا أيديهم كالغرقى إليه وذرفوا على يديه الدموع وهم يقبّلونها متزاحمين، وخشعت الأصوات فلا تكاد تسمع إلا همساً، وقال رائدهم:

- جئنا إليك بعد أن استشكل الأمر.

- إنهم ينوون أخذ أرضنا.

- يأخذون العَرَض الزائل، والدنيا الفانية..

- لكننا في حاجة إليها، إن أرض الباشا واسعة، ومن العدل أن تُشق فيها المصارف والترع والطرق.

فترنم في نبرات مبللة بالدموع:

- أتعرفون القصة الخالدة... (**إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾**) [1].

فتململ الرجل في ضيق وقال:

- إنها كارثة. ونريدك أن تحادث الباشا في الأمر لعله يستجيب لك.

- أنا أريد وأنت تريد، والله فعال لما يريد، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده، وقلبي لم يعد يتعلق بشيء من الدنيا، وأنا لم أعرف سوى الله، ولم أحنِ رأسي لسواه.

- لكننا أبناؤك - ومشكلتنا تهمك، وأطفالنا.. أطفالنا.. وحنى الشيخ الشاذلي رأسه، وأفلتت منه دمعتان بللتا لحيته البيضاء وغمغم:

١- سورة ص الآية: ٢٣.

- أمركم.. سوف أرسل إليه خطاباً، والشكوى لغير الله مذلة يا أبنائي..[1]

فالشيخ هنا يائس، وعاجز عن عمل شيء لأهل القرية، وهو الذي يتربع على عرش قلوبهم جميعاً ويقدرونه فيما بينهم!!، إلا أنه لا يستطيع عمل شيء تجاه الظلم الواقع على أهل القرية من أبنائه ومريديه، فلم يكلف نفسه عناء مقابلة الباشا أو مواجهته..

وهذه صورة من الصور الباهتة «للعالم الصوفي» في روايات نجيب الكيلاني التي راعه تصويرها في فترة الإبداع [1] الواقعي من منظور الواقعية السوداء السائدة رؤيتها آنذاك..

فالصوفي بهذه الصورة انعزل عن الدنيا، ويريد أن ينعزل عنها الناس معه، ولا يطالبوا بحقوقهم، بل هو الاستسلام الذليل لقوى البطش والجبروت. والإسلام طالبنا بأن نقف في وجه الظالمين أياً كان موقعهم في السلطة.. فهذه الانهزامية تتعارض مع روح الذي استهان بالدنيا وبملذاتها، ولا يخاف الموت، فلم يوفق نجيب الكيلاني في رسم صورة الصوفي المسلم الحق كما صوره في الرواية السابقة.. لأن الصوفي ليس مطالباً بالعبادة فحسب، وإنما هو إلى جوار ذلك، يجب أن يكون منافحاً عن الحق وذائداً عن الظلم.

إلا أن الكيلاني خطا في إبداعه بعد ذلك خطوات واسعة نحو التصور الإسلامي لإبداع الشخصية الإسلامية، فبلغت شأواً يصل إلى

١- رأس الشيطان ص: ١٤٣، ١٤٤، نجيب الكيلاني، مؤسسة الرسالة ١٩٨٥م، بيروت.

٢ - حول هذه المراحل والتطور الإبداعي في مسيرته الفكرية والأدبية، مراجع «نجيب الكيلاني أديباً» رسالة ماجستير للباحث - فصل «التطور المرحلي لحياته الأدبية» ص٦٤ .

حد الكمال البشري (المثال الإسلامي) أو النموذج الإنساني الفريد، الذي يستمد أصوله من عقيدة الإسلام ويضرب بجذوره المديدة في أعماق حضارته وعطائه الإنساني العظيم.

ثانياً: شخصية موثق عقود الزواج (المأذون):

هذه الشخصية، ترتبط في الإسلام، بما تقوم به من مهام أقرها الإسلام (الدين الحنيف)، بحيث يوثق عقود الزواج، والطلاق، فيكون بوابة اللقاء التي ينفذ منها كل زوجين إلى الحلال في العلاقة الجنسية حسبما نظمها الإسلام، لذا اكتسبت هذه الشخصية جلالها من جلال وشرف ما تقوم به من مهام تنطلق من العقيدة الإسلامية، إذ إن المأذون يقوم بالعقد بين الزوجين إيذاناً للقائهما في الإطار الإسلامي المشروع، والذي حددته العقيدة الإسلامية لإشباع هذه الغريزة، وبقاء النوع الإنساني الذي يعمر الدنيا..

ومن ثم تصبح هذه الشخصية ذات خطر وحضور قائم في المجتمع الإسلامي، مما أغرى بعض الكُتَّاب لتقديمها في أعمالهم الإبداعية، ينطلق كل منهم في تصويره لمثل هذه الشخصية من رؤية أو تصور يختلف باختلاف اعتقاده (أيديولوجيته) الفكري فيطبعها بطابع فكري تابع أو نابع من ثقافته ورؤيته لهذه الشخصية، وما تمثلها من قيم أو رمز في المجتمع، والغالب على روائيينا- ولا سيما الشيوعيين - أن يصوروا هذه الشخصية في شكل «كاريكاتوري» ساذج كما نرى في الأفلام المصورة «المأذون» متشبثاً بجبته وعباءته ودفتره، ويتشدق ببعض العبارات المكرورة التي تزيد من السخرية منه في حذلقة منكرة

ومضحكة في الوقت نفسه، وكأنها شخصية جيء بها للضحك والسخرية فحسب، ولعل في سخريتهم من هذه الشخصية سخرية هؤلاء من الرموز الدينية.. والنموذج الإسلامي ليس بهذه الفجاجة المنكرة فصورة المأذون مستمدة من صورة القاضي الشرعي الذي يستمد شخصيته وهيبته من هيبة الشرع الذي يفتي أو يمثله أو يحكم به. فلا بد - إذن - أن تتوفر للمأذون له في القيام بهذا العمل جلاله وقداسته كجلال وقداسة المهمة التي يقوم بأدائها. إلا أن الكتّاب الروائيين لم يتحرروا من هذا التقليد الساخر أو العبثية الفجة في تصويرهم لهذه الشخصيات متأثرين بما كان يصنعه الروائيون في الغرب أعداء العقائد في رواياتهم المختلفة، فتسابقوا نحو هذه البدعة المستوردة، وكأن المهارة تكمن في تقليد هذه الصور الرديئة لهذه الشخصيات. وهذا ما نراه واضحاً في شخصية الشيخ عبد الودود في رواية «هارب من الأيام للأديب ثروت أباظة» [١]..

«الشيخ عبد الودود مأذون بلدة السلام، رجل طويل القامة عريض المنكبين، ليس بالسمين المفرط، ولا هو بالهزيل الذي تأخذه العين، جامد الوجه، إن رأيته خُيِّلَ إليك أن العاطفة لم تمر على وجهه في يوم من الأيام، يضحك إن ضحك بفمه يوسعه حسبما يقتضي سبب الضحك، فإن اضطره الأمر إلى القهقهة خرجت من حلقه، ولكنه أبداً لا يضحك من

١ - ولد محمد ثروت إبراهيم الدسوقي أباظة بالقاهرة في الثامن والعشرين من يونيه في عام ١٩٢٧م. نالت روايته هارب من الأيام جائزة الدولة التشجيعية، ونال هو وسام العلوم والفنون من الدرجة الأولى.. وأشرف على مجلة القصة حتى رأس تحريرها، ورئيساً لاتحاد الكتاب، ثم وكيلاً لمجلس الشورى عام ١٩٨٤م، ثم في عام ١٩٨٨ رئيساً لنادي القلم الدولي. من أشهر أعماله: هارب من الأيام - قصر على النيل - شيء من الخوف - لؤلؤ وأصداف - طارق من السماء - الغفران. راجع: تقديم الدكتور / عبد العزيز شرف لكتاب - ثروت أباظة - سلسلة الصفوة - الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان - ١٩٩٢م. مصر.

قلبه، وإن حزن الشيخ عبد الودود فهو لا يحتاج إلى تعبير جديد يضفيه على سحنته، فهي عبوس لا تحتاج إلى علامات أخرى لتكون حزينة [١]».

يقدم الكاتب المبدع في هذه الفقرة «البعد الخارجي» للشخصية الإسلامية «المأذون» فيصفه وصفاً جسدياً، فهو متوسط البنيان، جامد الوجه، خال من العاطفة أبداً، عابس، لا تكاد تفرق بين حال السرور وحال الحزن في وجهه!!.

والكاتب ربما بحجة الواقعية (المحاكاة)، ينقل لنا صورة فوتوغرافية لما يمكن أن تكون عليه هيئة هذه الشخصية، لكن الفن لا يعرف الذاتية أو الخصوصية بهذا المستوى الضيق. فالفن عام وشامل عموم الحياة، فعندما يستقدم، أو يصور شخصية ما لا بد أن يقدمها في إطار من العمومية التي تستطيع تقديم النموذج الإنساني العام، الذي يجد فيه كل قارئ (شخصيته - وجوده) فكأن الكاتب يقصده هو على أي جزء من الوجوه.. لا سيما إذا كانت هذه الشخصية «رمز الدين» في العالم الروائي الذي ينسجه، فلا بد أن تكون على المستوى اللائق الذي يربأ بتصويره هذا عن دائرة الاتهام في عملية الإبداع..

ويوغل الكاتب في المغالطات الفكرية خلال عملية الإبداع، في تقديم هذه الشخصية بالشكل المضطرب والمتهرئ، عندما يصور البعد الداخلي للشخصية في مباشرة سمجة وتقريرية فجة..

«والشيخ عبد الودود رجل نقي السريرة، سريع إلى تصديق ما يسمعه، تسهل مخادعته، فإن ألقيت إليه مثلاً أن إنجلترا قد احتلت

١- هارب من الأيام، ص١٠٥ ثروت أباظة - مطبوعات مهرجان القراءة للجميع عام ١٩٩٤ -الهيئة المصرية العامة للكتاب - مصر.

لندن أسرع يقول لك: سبحان الله..! أهكذا..؟ ومتى كان هذا؟ فإذا أنت لم تبتسم وظللت تروي عليه كيف أن انجلترا خدعت لندن، وأوهمتها أنها تساعدها ثم احتلتها، ولم تقبل أن تتركها أبداً، راح يحوقل ويستعيذ بالله من الشيطان.. وهكذا تستطيع أن تصل به إلى تصديق أية خرافة تلقيها عليه، على شرط ألا تضحك وأنت تلقيها عليه، وهو يعلم في نفسه هذه الطيبة، ولذلك فهو حريص كل الحرص، إن أنت حاولت أو حاول غيرك أن يتحدث معه في أمر ينتهي به إلى أن يخرج بعض المال من حزامه، نعم حزامه وليست حافظته، إنك لا تحتاج إلى كثير ذكاء لتخدع الشيخ عبد الودود، فتروي عليه ما يشاء خيالك من خرافات فسيصدقها، ولكنك - مهما يكن ذكاؤك - لن تستطيع أن تنال من الشيخ عبد الودود قرشاً واحداً، وإن كان هذا القرش ذاهباً إلى أمر فيه خير الشيخ عبد الودود نفسه، فإن هذا الخير مهما يعظم أمره أقل شأناً وأهون خطراً من إخراج قرش كان قد استقر غير مُفَزَّع، وهدأ غير قلق من أموال الشيخ عبد الودود..)[1].

فالأديب هنا يعرض لصفات الشخصية النفسية، فالشيخ عبد الودود نقي السريرة.. يصدق ما يسمع دون تروٍّ.. تسهل مخادعته.. والأدهى أن يعلم هذه السذاجة في نفسه، وأي طيبة هذه التي لا تعني إلا السذاجة عينها!!..

وإذا كان الشيخ كذلك ساذجاً غراً تسهل مخادعته، إذن كيف يعقل أنه نشيط يقظ، يعي كل ما يلقى إليه وتصعب مخادعته إذا تعلق الأمر بقرش استقر غير مفزع في حزامه؟.

١- هارب من الأيام، ص١٠٦.

أليس هذا التناقض يدعو إلى الدهشة من الكاتب في موقفه من هذه الشخصية.. فهذه الصفات لا يقرها الإسلام في الشخصية، الإسلام الذي قال رسوله (صلى الله عليه وسلم) «المؤمن كيّس فطن»[1]، لا يرضى عن شخصية عبيطة، كزّة، كتلك التي رسمها الكاتب، شخصية مثيرة للضحك والهزء.. لا سيما إذا كان الشيخ غنياً يملك من الأفدنة عشرة يزرعها لحسابه الخاص، ذا موارد ضخمة تنكسب عليه من الحب والكره، والعجيب - من وجهة نظر الكاتب - أن هذه العواطف التي هي سبب ما يرفل فيه من نعمة لا تعرف سبيلاً إلى قلبه أبداً (فهو لا يعرف الحب إلا لغير المال، ولا يعرف الكره لغير إخراج هذا المال..» [2].

وهذا الحرص القاتل على حب المال وجمعه أورثه شجاعة نادرة فهو (يخوض الليل الأسود والطريق المقفر بلا صديق ولا رفيق ولا حارس).. وقد بدأ هذه الشجاعة منذ عُيِّن مأذونا..، كل هذا في سبيل تحصيل المال، وبهذا الحرص الذي يصل به إلى حد العبادة للمال!!..

فالنموذج الإسلامي لهذا النمط من الناس لم يكن أبداً على هذه الشاكلة التي يصورها ثروت أباظة، وإن كان الواقع الماثل لا يعدم مثل هذه النماذج، إلا أن الواقعية أن يصور شخصية المأذون بصورة محترمة، لأنه يحظى في الواقع باحترام جميع الناس، أو يجعله مثالاً يحتذى به، نموذجاً أعلى مما عليه الواقع الماثل، وطامح إلى الواقع المأمول. لاسيما إذا كانت الشخصية ترمز إلى ذاتٍ قادرة على أن تتميز عن غيرها من

---

١ - أورده العجلوني في كشف الخفاء: ٢/٢٩٣، رقم ٢٦٨٣، وعزاه إلى الديملي والقضاعي عن أنس، رفعه وهو ضعيف، وكذا أخرجه البخاري في تاريخه عن كعب بن عاصم.

٢ - هارب من الأيام، ص١٠٧.

الشخصيات الأخرى بخصوصيات عقدية واجتماعية، تحفظ لها هيبتها، وتضعها في إطار مضيء، حافز لكل إنسان أن يرقى، ليكون في نقطة الارتكاز من محيط الدائرة المضيئة بالمعطيات الإسلامية فكراً وسلوكاً.

فثروت أباظة أفرط في الجنوح بهذه الشخصية عن المسار، أو الإطار الإسلامي المرسوم لها.. حين ألصق به هذه النقائص، وقطعه من أسباب كثيرة تربطه بالإسلام في جوهره ومظهره، وفي الوقت نفسه لاندري وظيفة هذه الشخصية في الرواية، وإن كانت هذه الرواية كما يَدّعي مؤلفها: هاجمت ثورة يوليو ونظريتها الشيوعية التي اتخذتها منطلقاً لها.. هاجمت فسقها وفجورها.. هاجمت بُعدها عن الدين والأخلاق والشرف[1] فهل كان هذا الشيخ شيوعياً أو رجلاً من رجال الثورة، أو كانت وظيفته هذه بعيدة عن الدين حتى يصوره في هذه الصورة المادية البحتة إلى الحد الذي أصبح فيه عبداً للمال؟!!. وهل الدين في نظر ثروت أباظة يحفّز المسلمين من أتباعه على عبادة المال، والتحايل على جمعه من حلال أو حرام إلى حد السعار؟!!.

.. نعم، ذلك ما تراءى لي من التصوير الذي قدمه لهذه الشخصية، ولا يقتنع بهذا الحد من الانحراف الذي وصم الشخصية به، بل يتوغل ويغرينا ببعض المواقف الأخرى المخزية للشيخ تعقب في روايته شخصية (المأذون) مع أنها ليست الشخصية المحورية في القصة، وألصق بها كل

١- حوار ثروت أباظة، أجراه المحرر مصطفى علي محمود بمجلة «الكويت» التي تصدر في دولة الكويت عدد ١١٦، الصادر في ١٩٩٤/١/١م.

ما يشين، من خوف وشح وحرص على المال، ويظهر ذلك في الصورة التي شملت عملية الاستيلاء على ماله من اللص[1]..

فإذا كانت الرواية ترمز إلى عالم الثورة وعصابة اللصوص بقيادة «كمال الطبال» ترمز إلى قياداتها - إذا أحسنا الظن به - فإنه بالإمكان أن نقول: إن شخصية الشيخ عبد الودود المأذون جسّدت الظلم والقهر والمعاناة التي عاشها المجتمع، حتى المأذون الشخصية التي رمزت إلى الدين نالها ما نالها مما وقع على رأس المجتمع لا سيما المثقف آنذاك، لأن فلسفة الثورة لم تنطلق من رؤية دينية أو تصور عقدي، بل غالت في إيذاء التيار الإسلامي، أهانت رموزه بحجة معارضة الفكر الثوري، والرجعية في مواجهة الفكر الشيوعي المهيمن في ذلك الوقت..

وإذا كنا نسلّم لثروت أباظة بأنه نجح إلى حد ما في تجسيد الظلم والقهر والخوف، مما أثاره النظام الثوري آنئذ، بحجة تأميم الأموال والممتلكات خلال هذه الشخصية، إلا أنه فشل في تقديم شخصية إسلامية مقنعة، تربطها بالإسلام عُرى وثيقة تتمثل في مجموعة القيم والفضائل والمثل التي تنبع من الرؤية الإسلامية، وما ينبغي أن تكون عليه هذه الشخصية، إلا أن شخصية الشيخ عبد الودود انحرفت عن دائرة الضوء الإسلامي بمقدار (مئة وثمانين درجة) إن صح التعبير من النقيض إلى النقيض.

هذا فضلاً عن العيوب الفنية في عرض الشخصية من الإسراف في الوصف والمباشرة والتكلف في رسم ملامح الشخصية وثرائها وتخلفها

١- راجع هذه الحادثة في رواية (هارب من الأيام) ص١١٤ وما بعدها.

وتضاريس حياتها، وتحميل الشخصية ما لم تستطع أن تقوم به فتبدو غريبة عن المجتمع. لاسيما إذا كانت هذه الوظيفة - المأذونية - ذات خطر عظيم في المجتمع الإسلامي، حتى إن الدستور قصرها على ذوي مهارات خاصة لعل أقلها المؤهل العلمي، فأصبحت من الأهمية والشهرة مطمعاً لحاملي أرقى الشهادات العلمية في المجتمع.

فإذا كان الأديب يعالج تجاربه في إطار من العمومية، (نموذج عام)، وإذا كانت هذه التجارب نابعة من ذاته، تَعَيَّن أن يقدم نماذج عامة ومقنعة يتعاون فيها الشكل مع المضمون «فكل منها مؤثر في الآخر» بل امتداد له.. فلا بد أن يرى فيها كل إنسان نفسه عندما يطالعها فيتعاطف معها، أو ينفر منها إذا كانت شخصية عادية، أما إذا كانت شخصية دينية فهو يتطلع إلى رؤية صفات يحبها أن تكون في هذه الشخصية، وكما أراد الدين، فيحدث الانعكاس النفسي والروحي والسلوكي الذي يرجوه المتلقّي من الفن، وبهذا تتحقق للنموذج الإبداعي المصداقية التي ندعوها بالصدق الفني في الإبداع الأدبي..

ثالثاً: شخصية الإمام - الواعظ - الداعية:

هذه الشخصيات الثلاث تلعب دوراً مهماً في حياة المجتمع المسلم، ومن ثم اتخذها الكتاب رموزاً للدين في كتاباتهم، فمنهم من تناول كل شخصية أو أي شخصية منهم في روايته، ومنهم من جمع هذه الشخصيات جميعاً في شخصية واحدة لرؤية يراها خلال عملية

الإبداع الفني لروايته، من هؤلاء، عبد الرحمن الشرقاوي[١] في روايته «الأرض» حيث جعل شخصية (الشيخ الشناوي) الذي يرمز إلى الدين في عالم الرواية.. الذي يطمح إلى (مناقشة الوضع العام في الريف في انزوائه غير الإنساني، وحصاره الطبقي، وفقره المادي والثقافي) [٢] إبَّان الثلاثينيات من هذا القرن... فيقدمه في وصف مباشر:

(الشيخ الشناوي هو فقيه القرية ومفتيها، وخطيب مسجدها ومأذونها الشرعي، ومعلم الأولاد فيها، وواعظ الكبار) [٣].

فالشرقاوي جعل من الشيخ الشناوي الشخصية التي ترمز إلى الدين الإسلامي في الرواية، شخصية جماعية - إن صح التعبير - فجعله فقيهاً، ومفتياً، وخطيباً للمسجد، ومأذوناً شرعياً. ومعلماً للأولاد، وواعظاً للكبار!!، وكأنه يجمع وظائف الإسلام كلها في شخص واحد، ليسهل الإجهاز عليها، فهو عندما يحطّ من قدر هذا الشخص، فكأنما حط بقدر هذه الوظائف جميعاً في حركة سهلة ميسورة.

من هذا المنطلق يرى الشرقاوي أن الشخصية الإسلامية ذات الارتباط بالدين، أو التي ترمز إليه، هي شخصية واحدة، وإن اختلفت

---

١ - عبد الرحمن الشرقاوي: ولد في العاشر من نوفمبر عام ١٩٢٠م في قرية البتانون مركز شبين الكوم محافظة المنوفية.

من أهم أعماله:

أ - روايات الأرض والفلاح، والشوارع الخلفية وغيرها...

ب - مسرحيات شعرية - مأساة جميلة، والحسين ثائراً، الحسين شهيداً، والفتى مهران.. وغيرها.

ج - مجموعة قصص «أحلام صغيرة».

د - الإسلاميات - محمد رسول الحرية، أئمة الفقه التسعة، وعلي إمام المتقين، وغيرها. راجع: عبد الرحمن الشرقاوي الفلاح الثائر - كمال محمد علي.. -الهيئة المصرية العامة للكتاب: ١٩٩٠م. مصر.

٢ - الواقعية في الرواية المصرية ص: ٣٣١.

٣ - الأرض، ص ٩، عبد الرحمن الشرقاوي - دار غريب للطباعة - د ت - القاهرة.

المسميات، فلا يغرنّك كون هذا فقيهاً، أو مفتياً، أو غير ذلك.. فهم جميعاً متشابهون، يعزفون لحناً واحداً، وينشدون هدفاً واحداً هو: تخدير البشر وإيهامهم بما ليس ماثلاً بين أيديهم!!.

«وهو رجل طويل عريض ضخم الجثة، غليظ القفا، عظيم الكرش يحب الموالد والطعام، وكنا نحسب نحن الصغار أنه يستطيع أن يضع في بطنه بقرة.. وهو رجل يحبه الجميع ويضحكون معه، ولا يكاد يوجد في القرية رجل لم يذق عصا سيدنا الشيخ الشناوي عندما كان يقرأ في الكتَّاب..» [1].

فاختيار الشرقاوي مقصود منه، ليكشف في تبجح عن رؤيته لهذه الشخصية، فلم يجد إلا هذه الصورة الساخرة لعالم الدين، فإنه في نظره يمثل البله والغفلة والشراهة والبطنة، وإن كان قد أضفى عليه نوعاً من الحب. فأهل قريته يحبونه، فهل يحبونه لأنه أضحى أضحوكتهم بهذه السمات، بئس هذا الحب!!.

فهذه الصورة الكاريكاتورية الساخرة لسيدنا الشيخ الشناوي، يضعها في إطار متهرئ متهالك، فهو شخصية متبطلة، عالة على المجتمع، لا تقدس العمل، ولا تسعى في طلبه ما دام يجد قوته وطعامه الوفير في الموالد، التي يحتفي بإقامتها أهل الريف، لذا يراها كافرة بمبادئ الشيوعية، ما دامت لا تعبد العمل، ولا تحتفي بالعاملين. فالصراع في رواية «الأرض» طبقي اجتماعي. وأن هؤلاء الشيوخ طالما لا يمسكون

---

١ - الأرض، ص ٩.

بالفؤوس، ولا يفجرون باطن الأرض، فإنهم متبطّلون عاجزون عالة على المجتمع، لا يستحقون الحياة في فردوس الشيوعية الأعلى!!..

والإسلام يُعلي من قيمة العمل، ويُلين جانبه للعاملين، يتجلى هذا واضحاً لكل ذي عين باصرة في نصوص القرآن الكريم والأحاديث النبوية، لا كما يتصوره الشرقاوي ومن يجري في ركابه من الذين زيّن لهم الشيطان سوء عملهم فرأوه حسناً، رأوا الشيخ الشناوي: «يصنع أيّ شيء في القرية ويروي له حديثاً أو قصة ليبرر ما صنع» (١).

وكأن الشخصية الإسلامية لا يعنيها من عقائدها إلا ما يبرر صنائعها، وكأن الشيخ عديم الرؤية أو المبادئ ما دامت هناك مبررات لما يصنع من دينه أو معتقداته، ولا سيما أنه يصمه بالتقول على الرسول (ﷺ)، وينسى الشرقاوي أن الفقيه يحفظ قول الرسول (ﷺ): من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار) (٢). وقد اعترف الشرقاوي بأن الشيخ الشناوي فقيه، إذن: هو حافظ لهذا الحديث. ولا يمكن أن يجرؤ فقيه على اختراع حديث ونسبته إلى رسول الله (ﷺ) لأنه يخشى النار التي توعّده بها الرسول (ﷺ).

كل هذا وغيره كثير، فعندما يغضب الشيخ، وينهر الراوية عندما كان هو ووصيفة والداية الصغيرة، عندما وجدهم يهمون بفعل الفاحشة في المصلى- لاحظ رمزية المكان!. - فيما أسماه بـ «لعبة العريس والعروسة»

١- الأرض، ص ١٠.

٢ - صحيح مسلم بشرح النووي - المقدمة - باب تغليظ الكذب على الرسول (ﷺ) المجلد الأول ص: ٥٥ رقم (٤).

لاسيما، وقد تهيأت العروس (وهي في سن الزواج)، والعريس (وهو طالب في السنة الثالثة بكلية الحقوق)، لإتمام هذه اللعبة، فيغضب الشيخ غضباً أذهله عن نفسه:

« وكمان قدامي؟.. ترقدوا على بعض قدامي يا كفرة يا فجرة؟ غوروا من هنا... غوروا...» [١].

فيتحير الراوية من فعل الشيخ وزمجرته في غير ما جريمة وقعت!!، ويدهش لهذه الرعونة من الشيخ، التي أفسدت عليهم سعادتهم: «وفي الحقيقة لم نفهم سر ما يغضب علينا الشيخ الشناوي، لقد كنا سعداء للغاية ونحن نلعب.. كنت أنا ووصيفة والداية الصغيرة نضحك طول الوقت في المصلى، والصغار يغنون وراء السور المنخفض فرحين، ولم نشعر أبداً أننا نرتكب شيئاً يستحق هذا كله، وبصفة خاصة، يستحق النار) [٢] التي توعدهم بها الشيخ!!..

فإيمان الكاتب بشيوعية الجسد، واستهانته بالقيم والأعراف الدينية، بررت له هذه الفعلة الشنعاء، وجعلته يندهش لغضب الشيخ، فهذه الأفكار الوافدة والحرية الزائفة المزعومة التي آمن بها الكاتب جعلته يعجب من غضبة الشيخ لهذا الفعل الفاضح، فكأنهم يأتون بشيء لا يخرج على الأعراف والدين، لأن المجتمع حتى غير المتدين، لا يرضى بمثل هذه الأفعال، وإني لأعجب فوق عجبه،بأنه اختار لهذا الفعل الفاضح (المصلى)!!، أما كان من الممكن مزاولة هذا الفعل في الحقل، أو

١- الرواية، ص ١١.
٢ - الرواية، ص ١٢.

في بيت خرب، أو حتى في الطريق العام بعيداً عن المسجد؟!، ولكن الذي دفعه إلى ذلك احتقاره للدين ورموزه واشمئزازه من أماكن العبادة، فأراد أن يدنّسها، ويعلن في ذات الوقت أنه لا يقدسها ولا يحترمها.

وهاك موقفاً آخر يحاول الكاتب خلاله أن يؤكد مطاعنه، ويُمَكِّن لرؤيته التي يطمح خلالها إلى إقناع المتلقي، والتي تنهض من كون هؤلاء الشيوخ الذين يضج بهم الريف ويرمزون إلى الدين، فماهم إلا أمثلة حية للبلادة، واهتزاز الشخصية وضعفها، ليس باستطاعتهم الإذعان للحق، أو اتخاذ موقف تجاه المشكلات التي تواجههم، أو تواجه المجتمع المعاش، وأنهم عبيد الساسة والطغاة، ولو كانوا ظالمين، فهم يمالئونهم في ظلمهم، ويلهثون وراءهم، ويهشون لمقدمهم ولو كانوا يكرهونهم.. فعندما أخبر العمدة «الشيخ الشناوي» بأن «محمود بك» أعطاه عريضة يطلب أخذ توقيعات أهل الأرض (القرية) عليها، لتعديل نظام الري بما يتناسب مع مصلحة فلاحي القرية، وافقه على خطته هذه ووقّع على العريضة، وأمر الفلاحين في القرية أن يوقعوا عليها، إذا كانوا يحبون الله ورسوله، دون أن يدري أنه يغرر بهم من حيث لا يعلمون، فإن العريضة كانت لأجل شق طريق زراعي في أرض هؤلاء التعساء، ليصل إلى سراى البيه «محمود بك» وهم لا يعلمون، وكذلك الشيخ، إلا أنه دفعهم إلى ذلك دفعاً:

« ووقع الشيخ الشناوي على ورقة بيضاء دون أن يسأل.. ووقع وراءه بعض الذين يعرفون القراءة وأخذ الفلاحون يضعون الأختام تحت إمضاء الشيخ الشناوي.. والشيخ الشناوي يستعجلهم، ويشتم من طلب

قراءة العريضة.. وقام من عند العمدة وانطلق في القرية بجسده المليء المكرش وسبحته يهمهم بالدعوات ويزعق في كل من يقابله أن يسرع بختمه إلى دوار العمدة للتوقيع على العريضة الجديدة..» [١].

« وكان الشيخ الشناوي يطوف بنشاط، ويطالب الناس أن يذهبوا بأختامهم إلى الدوار..» [٢].

« وظل سيدنا (الشيخ الشناوي) واقفاً في الطريق يهز عصاه على الرؤوس، ويلتقط أي رجل ذاهب إلى الحقل أو عائد منه، ويأمره بالذهاب إلى الدوار.. ويأمر بعض الرجال بإحضار أختام النساء اللواتي يملكن أرضاً..».

- اللي يحب الله ورسوله يروح بختمه عالدوار، يللا يا كفرة!...» [٣].

فالكاتب هنا يغالي في افتئاته على هذه الشخصية التي ترمز إلى الدين، لا سيما وهو الفقيه والمفتي والمعلم والواعظ (الناصح)، فكيف به لا يفطن لمثل هذه المؤامرات، ألاعيب العمدة والبيه محمود بك؟.. وكيف يوقع على ورقة بيضاء لم يكتب فيها شيء؟! أظن أن ذلك لا يقنع عقلياً، ولن يقع واقعياً!!..

فالشرقاوي يهدف من وراء ذلك إلى الطعن والتشكيك في أهمية الدين ورموزه في المجتمع، بل إنه قد يكون مغرراً ومعطلاً لانطلاقه وتطوره، (فالشيخ الشناوي الذي يعيش بين الفلاحين، لا يملك إلا

---

١ - الرواية ص ١٠٢.

٢- الرواية ص ١٠٩.

٣- الرواية ص ١١٠.

استخدام وعظه الديني، لتخفيف غضب الفلاحين على الباشا أو العمدة، أو يعمل كمخلب قط للعمدة والباشا يساعدهما على تنفيذ ما يريدان، حتى دون أن يعرف إذا كان يريد بالقرية شراً أم خيراً) [١].

ومن الشخصيات الأخرى في رواية «الأرض» لعبد الرحمن الشرقاوي التي يصر على الاستهانة بهم ممن يمتّ إلى الإسلام بصلة فنرى من الكاتب إصراراً وحرصاً على تشويههم مثل الشيخ «يوسف الأزهري» الذي مكث في الأزهر عدة سنوات، ولم يتمكن من نيل أية شهادة منه، وقام بافتتاح دكان للبقالة بالقرية، لكنه لم يزل ينغمس في فشله، فلم يجن شيئاً في حياته يشهد له بالشرف أو الشهامة المعهودة في أمثاله. فعندما يُسْجَن رجال القرية في سجن المركز، تستجير به الأطفال والنسوة، كي يذهب إلى الرجال في المركز، يخاف أن يقبض عليه إن ذهب إلى هناك، «كان حزينا يشعر بالوحدة والضعف، والفراغ وقليل من الضياع.. وكان مهزوماً..» [٢].

كما استغل غياب أهل القرية، وراح ينقض على الأذرة [٣] المسروقة من حقولهم غير مبال بحلال أو حرام، وعندما لفت الشيخ الشناوي نظره إلى أن هذا لا يليق برجل مثله يعرف الحلال من الحرام قائلاً:

- يا راجل.. حرام عليك يا راجل، يا راجل شرفك أحسن من الحاجات دي!

فقال الشيخ يوسف بإهمال دون أن يرفع رأسه:

١- الروائي والأرض بتصرف، ص ١٤٤.
٢- الرواية، ص ٢١٦.
٣ - الأذرة: الذُّرة.

- دهدى.. مابلا وجع دماغ بقى يا سيدنا.. ما تتشطر كده على العمدة، فلقتونا يا أخي.. وحياة النبي دا أنت تأكلها والعة [١].

فالشيخ هنا، غير مبال بأحكام الدين الذي يمثله ويتمسح فيه، بل يرى أن تشبثه بالدين وجع دماغ! لا يصح أن يشغل نفسه به، ويمالئ اللص على سرقته غير مبال بعقوبة السرقة في الدنيا، وعقابها في الآخرة، فهو إنسان وصولي لا يهمه من الأمر، إلا ما يدخل في جيبه من وراء هذه الصفقة.. فالكاتب يحاول أن يجرفه إلى العالم المادي الذي يؤمن به، وينتصر له على حساب أشياء كثيرة تدخل في إطار الدين بروحانيته ومعانيه السامية.. وليت الأمر وقف عند هذا، بل يجعل الشيخ يوسف - والذي لا يفتأ يذكرنا بأنه معلم للشيخ الشناوي، وأنه أقرأه في الكُتَّاب قبل أن يقرأ في الأزهر، وأنه من أهل الفضل، وأن من كانوا معه أصبحوا الآن في مكانة فريدة من المجتمع، فمنهم القاضي، وناظر المدرسة - يجعله يُحَرِّض علواني على سرقة مخازن العمدة، ليسرق منها الذرة أو القمح، ويغريه بأنه سيشتري منه بسعر عالٍ هذه المرة، بعد أن قَدَّم له رشوة كعربون لهذه الصفقة تتمثل في علبة سجاير ماكنة كبيرة وكمية شاي وبعض قطع السكر، «في اليوم التالي كان الشيخ يوسف أسعد إنسان في القرية فقد حمل إليه علواني كيسين كاملين من أذرة العمدة وكيساً من القمح، ولما رأى الكمية أمامه كبيرة حاسب علواني عليها كاملة كما هي وتحلل من وعده بأن يحسب الكوز كوزين وكيلة القمح كيلتين.. واكتفى بأن يعطيه حقه كاملاً هذه المرة..) [٢].

١- الرواية، ص ٢٣٢.

٢- الرواية، ص ٢٥٦.

فالكاتب يصر أن يشوه الشخصية ويمرغها في الوحل، فإذا شك الناس في تلقيه السرقات، فهو بعينه يحرض على السرقة من مال العمدة، وكأن الشيخ يفتي بجواز سرقة مال الحكومة، فإنه يورط الشخصية الإسلامية، ويدفعها إلى الشر دفعاً، غير مبال بأنها تفقه أو تعرف حدود ما تقع فيه من خطايا، وكأن ما يعنيها هو الحصول على المال ومن أي طريق لا يهم، وليست هذه سمة المسلم من العوام، فما بالنا عندما يكون مسلماً تعلم في الأزهر، وحفظ من القرآن الكريم والأحاديث النبوية، ما يأمره به الدين وينهاه كذلك عنه..

وعندما تمر الزراعية ويقف أهل القرية من رجالها (عمَّال الحَفْر) موقفاً معادياً، ويقسم الشيخ يوسف بأنه معهم يرفض الزراعية، ولا يمكنه أن يبيع عمالها شيئاً، أو حتى يكلمهم. إلا أنه سرعان ما تراجع وانهزم أمام القروش التي يتكسبها من وراء هؤلاء الرجال:

(أنت يا شيخ يوسف مش قلت من قيمة جمعة إنك مش رايح تكلم حد من بتوع الزراعية.. حتى كنت ماتردش السلام، إيه اللي خلاك تبيع لهم دلوقت؟).

فقال الشيخ يوسف متزايلاً ببرود:

- دهدى! أي قلت! قلت ورجعت.. حد شريكي؟ وأنا إن ما بعتش ماغيري في بلاد تانية رايحين يبيعوا لهم..)[1].

فالشيخ هنا والذي يرجى منه مشاركة أهل القرية في مصابهم، وألا يخرج عليهم فيما يرونه، ليكونوا يداً واحدة على من يعاديهم، فإذا هو

١- الرواية، ص ٣٨٢ .

يخالفهم في أمرهم، ويتخلى عن مواساتهم، وهو الذي يفترض فيه أن يكون ملاذهم وسندهم في مثل هذه المواقف.

فالشرقاوي جَرَّد هذه الشخصية من كل قيمة أو فضيلة يمكن أن تتشبث بها، حتى أضحى هُزْأة البلدة، وافتقد مكانته حتى مع صغار شباب القرية. فلم يجدوا حرجاً في إهانته:

(- كلام إيه دا يا راجل، إنت بتهبل، بتقول إيه؟! مصلحتنا إيه يا راجل يا عديم المروءة يا قليل الطهي!.. إنت اللي عمرك ما فكرت إلا في روحك.. اسمع إما أقول لك.. التخبيط الفاضي بتاعك ده لازم تبطله أحسن والله والله والله العظيم تلاتة وعزة الله يا شيخ.. قسماً بالذات العلية ما عندي لك من هنا وجاي غير البُلْغَة.. هه!!) [1].

فالشرقاوي يسرف في تشويه الشخصية الإسلامية، والتي تتصل بالإسلام سواء من قريب أو بعيد.

والكاتب عندما بنى فكرة رواية «الأرض» اتخذ منها مصدراً للقوة والحياة والامتداد. فتبرز ملكية الأرض «كقيمة ثابتة في الرواية، فهي التي تحدد أقدار الناس في مجتمع القرية، ودرجة تأثيرهم، فالأرض هي القوة، وهي الشرف، قوة مادية ورمزية في الوقت نفسه، لذا يفرض الضياع والسقوط على من لايملكون، فلا كبرياء لهم ولاكرامة، فهم مُذلّون، ومهانون ومسحوقون، ويمثل هذا النمط «الشيخ الشناوي» و«خضرة».. أما الملاك فهم من ذوي الشرف والمكانة العالية في القرية،

---

١ - الرواية، ص ٤١١.

حتى لو كانت ملكيتهم لا تتعدى قراريط معدودة، ويرمز لذلك عبد الهادي ومحمد أفندي ومحمد أبو سويلم[١]..

ومن ثم فالأرض في هذه الرواية (تمثل العامل الحاسم في تحديد مواقف ومصير من يملكون، وتبدو عاملاً وإيجابياً حين يتخذها المؤلف أساساً لتحديد سلوك الشخصية وهويتها، وعاملاً - كذلك - سلبياً حين يفرضها المؤلف بقسوة وصرامة على الشخصيات، فإنها بالنسبة لمن لا يملكون تقوم بنفس الدور، بصورة أشد وضوحاً وحسماً...» [٢].

وإذا كان الأمر كذلك، فالشيخ الشناوي لا يمثل قيمة تذكر في الرواية، فقد سلبه المؤلف ملكية الأرض، ومن ثم سلبه الفاعلية في مجتمع القرية، فهو بلا أرض، وبلا جذور، ويكاد المؤلف أن يدفعنا إلى الاعتقاد بأن حياته أقل شرفاً بكثير من حياة خضرة... عاشت خضرة مع الفلاحين ملتصقة بهم.. أما الشيخ الشناوي، فأصبح ذيلاً للعمدة والسلطة، يقف معهم ويمالئهم ضد قريته، لأنه بلا أرض، ولذلك فهو في حقيقته بلا شرف. خضرة تبيع جسدها مقابل كسرة خبز، أما هو فيبيع علمه ودينه من أجل حياة أقل خشونة، ولا يمل المؤلف من ترديد أن سر مأساته يرجع إلى كونه بلا أرض[٣].

فكأنه أتى بهذه الشخصية خصيصاً، لكي يسخر منها ويجرحها، ويفقدها كل الصفات النبيلة، لا لشيء إلا لأنها ترتبط بالدين بسبب:

١- الريف في الرواية العربية، ص ١١٥ د: محمد حسن عبد الله - عالم المعرفة

٢- الروائي والأرض، ص ١٥٤..

٣- الروائي والأرض، ص ١٥٨ بتصرف.

« همس عبد الهادي ذات ليلة قبل النوم بأن الشيخ الشناوي لو كان يملك أرضاً في القرية لما قال هذا الكلام».

« لو أن للشيخ أرضاً يختلط عرقه بترابها.. ولو أنه رآها تتشقق من الجفاف تحت عينيه بعد أن شقي فيها.. ورأى أذرته الصغيرة الغضة تذوي كأطفال يموتون.. لو عرف الشيخ الشناوي كل هذا يسكت؟!..».

« لو كان سيدنا يملك قيراطاً واحداً على الأقل.. ولو أنه عمل في الفأس، وانحنى عليه وحفر له القنوات.. لما اعتقد أن أمر الله هو الذي حرم القرية من الماء لينعم به الباشا، ولروى أحاديث أخرى.. ولآمن أن الحكومة، لا الله، هي التي تحرم أرض الفلاحين من الماء وتميت أعواد الذرة الغضة».

«إن سيدنا هو الآخر كخضرة: لديه شيء يبيعه للذين يملكون الماء والجاه والكلمة ولا يعنيه إلا أن يبيع الشيء الذي يملكه.. ولْتهلك بعد هذا أرض القرية..».

«إن الذين يملكون أرضاً في القرية يضعون أيديهم في النار.. أما سيدنا فهو كخضرة يده في الماء.. ولهذا فهو يقول كما يشاء ولو كان له أرض لالتهى!..» [1].

فعبد الهادي «الفلاح البسيط» لا يؤمن بقيمة الشيخ الشناوي في القرية، ويصرح دون مواربة بأن حديثه لا يخرج عن كونه هذياناً وهرطقة لا تغني ولا تسمن من جوع، ولو كانت له أرض لالتهى بها عن

١- الرواية، ص ٨٢.

نصائحه، وخطبه التي أورثتهم صداعاً كاد يفلقهم!!.. لذا نرى «عبد الهادي» يتصدى للشيخ وهما جالسان ذات مساء على مصطبة محمد أبو سويلم ومعهما محمد أفندي وذلك حين يكرر حديث اللعنة والصلاة والزكاة.. فقد صاح فيه قائلاً:

- دهده يا سيدنا؟ ما بلا وجع دماغ بقى فلقتنا من الكلام ده، هو ربنا كان هو اللي حاش الميـة عنا وإلا المهندز والحكومة هم اللي حاشوها، طب ماهي بتجري في أرض الباشا زي الحلاوة اطلع كده لحد المركز وشوف أرض الباشا؟ أهي بتروى بالراحة من غير ما يدور ساقية ولا يشقى بهيمة ولا يشغل وابور الميّه؟. هو ربنا مش فاضي إلا لأذية بلدنا؟.اسكت بقى يا سيدنا! قطعت سبحنا بالكلام بتاعك ده اللي لا بيودي ولا بيجيب! حاكم إنت بتمرح في قته محلولة زي بغل الوسية، لامال ولا هبة! باكي على إيه كده؟.» (١).

فهذا الرفض الأيديولوجي أو المذهبي للشخصية الإسلامية على لسان عبد الهادي نابع من المذهبية الفكرية التي يدين بها المؤلف، للدرجة التي أصبح فيها الشيخ الشناوي نمطاً لخواء الشخصية وانغلاق الفكر على ما سمعه وحفظه من خطب قديمة بالية (لا بتودي ولا بتجيب!! مواعظ عفا عليها الزمن، وممالأة ممقوتة لذوي النفوذ في القرية كالعمدة أو أحد كبار الملاك في كسب عطاياهم، دون مراعاة لمصلحة أهل القرية الفقراء، غير آبهٍ بمعاناتهم، بل نصائحه ساهمت في زيادة همومهم ومتاعبهم، وليته فعل مثلما فعل «عم كساب» سائق

١ - الرواية، ص ٩٣: ٩٤.

العربة الحنطور في رواية «الأرض» الذي وقف من قضية الفلاحين في القرية موقفاً إيجابياً. فقد كان يحس بآلامهم، ويضيق بسماعه لأخبار حبسهم في سجن المركز، أو دوار العمدة، فقد كان «عم كساب» أحد أبناء القرية الذين قذفتهم الحياة في مسارات متعددة، فاشتغل سائقاً لعربات الحنطور، وخفيراً بالدريسة، وعاملاً في العنابر، وعاملاً في النسيج، وعندما قامت ثورة ١٩١٩م اشترك فيها وهو عامل بالاسكندرية، وبعد الثورة اشترك في إضرابات العُمَّال، وسجن من أجل الإضراب، وذاق المر، وفي السجن لقي عُمَّالاً يفهمون ما لم يكن يفهمه، ومنهم تعلم الكثير من الأسرار، وخرج من السجن، فعاد يبحث عن العمل، لكن الأبواب أغلقت في وجهه، فراح يسوق العربة الحنطور في القرية، إذن لم يعد موقفه مثل موقف الشيخ من قضايا القرية وهمومها وآلامها، فتعدى التأييد المعنوي، والمساندة الشعورية إلى المشاركة الفاعلة في مشكلات القرية..» (١)

فهو يحتفي كثيراً بكفاح الفقراء بل وتحريضهم على الثورة، وهذه هي أهداف الشيوعية.. التي تنبع أفكاره من آبارها الآسنة..

.. وكما يجمع الشرقاوي بين الشيخ الشناوي وخضرة في صعيد واحد لكونهما، لدى كل منهما ما يبيعه، وكونهما عراة من ملكية الأرض.. فهما عراة بالتالي من الشرف في الحياة، يصر الكاتب أن يقرن بينهما في الممات، فعندما ماتت خضرة، تساءل الشيخ الشناوي عن المكان الذي تدفن فيه خضرة، فأجابه عبد الهادي، بأنها تدفن في مقابر الشيخ الشناوي لأنه أقرب الناس لها...» (٢).

---

١ - راجع الرواية، ص ٣٧٤، ٣٧٥، ٤١٣.

٢- الرواية، ص ١٠٧.

فشخصية «الشيخ الشناوي» وإن كانت جسدت الظلم الذي وقع على الفلاحين في صراعهم مع طبقة الباشوات الذين تساندهم الحكومة المتمثلة في العمدة، ومأمور المركز، إلا أنها قست إلى حد بعيد على الدين واستهانت برموزه ومبادئه بحجة الواقعية، ولا ندري ما واقعيته؟ لا سيما، إذا كان الفن ليس تسجيلاً آلياً للطبيعة، أو محاكاة حرفية لظواهرها، وإنما هو انتقاء واختيار، ومحاكاة لجوهر ما فيها بقصد إغنائها وإكمالها، والواقعية هي الواقعية النفسية والفكرية بأن يكون إدراك الشخصية وتفكيرها متناسباً مع مستواها الاجتماعي والثقافي بحيث لا تنطق العامة - مثلاً - بأفكار الفلاسفة والمثقفين، وأما الواقعية اللغوية فليست مقصودة، إنها واقعية حال وليست واقعية مقال.هذا بالإضافة إلى أن استخدام العامية يخرج بالحوار الدرامي إلى السطحية والثرثرة التافهة، بينما تستطيع الفصحى وحدها، وهي لغة الأديب الكاتب، أن تعبر في عمق ونفاذ عن لسان حال الشخصيات في حوار أدبي متين.. فاستخدام العامية في الحوار الأدبي يؤدي إلى تعميق الهوة بين المتلقين وتراثهم، وتؤدي إلى الازدواجية اللغوية، ويحول دون بلوغ الوحدة المنشودة في أساس من أهم أسسها، وهو اللغة، كما أنه يحول دون اكتمال المُتْعَة الفنية التي ننشدها في العمل الأدبي نفسه..) (١).

والذين يتشبثون بالعامية يظنون أن الفصحى عاجزة عن التعبير عن المواقف، وخلجات النفوس، ونحن نرى أن ذلك يرجع إلى إفلاسهم،

١ - اتجاهات الرواية المصرية، ص٢١٠، بتصرف، دكتور شفيع السيد.

وعدم قدرتهم على تطوير الفصحى الفنية، القادرة على التعبير بكل ما يريدون.

كما أن الواقعية الإسلامية التي ننشدها.. «تُعدّ الرباط السليم المتوازن، الذي يجمع بين الأرض والسماء، بين الطبيعة المحسوسة والطبيعة غير المحسوسة، من ثم تتجاوز البصر إلى البصيرة، فترى بعينها الثاقبة المتزودة بنور الله ما لايمكن للعلم بأرقامه وقوانينه الأرضية أن يراه» (١)، من ثم تقفز الواقعية الإسلامية، وتتجاوز هذا الواقع الأرضي الذي يمثل أو يشغل حيزاً صغيراً من الأفق الفسيح، إلى الحقيقة العليا التي تتعاضد مع بعض المقومات الإنسانية في التصور الإسلامي (الغيب)، لتكون الواقع الإنساني للحياة والكون والإنسان نفسه، من ثم يتضح موقف الإسلام من الواقع في القصة أو الرواية، (فليس في الواقع البشري المفروض من قِبَل «صفوة ممتازة» أو «طبقة كادحة»، أو الواقع المادي المحسوس القصير النظر، وإنما هو الواقع الأرضي الذي لا ينفصل عن الواقع السماوي بحقيقته العليا، وروحانيته وإعجازه وقَدَره، إنه الواقع الإسلامي الشامل لكل عناصر الواقع القائم واحتمالاته غير المنظورة أو المدركة..) (٢).

فرواية الأرض وإن كانت تطمح إلى مناقشة الوضع العام لهذا الفريق في انزوائه غير الإنساني وحصاره الطبقي، وفقره المادي والثقافي.. إلا أنها تكشف عن موقف أيديولوجي خاص يرفض الدين ويستهين به، إلا

١- الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد، ص١٧، د/ أحمد بسام ساعي - دار المنارة - طبعة أولى - ١٩٨٥ - جدة (السعودية).

٢ - الواقعية الإسلامية، ص ٣٢.

أن هذه الاستهانة لا تصل في القرية إلى الموقف من الدين كعقيدة أو عبادات، فليس صحيحاً بالقياس إلى أسس بناء الشخصية الريفية مهما كانت متمردة، أو شديدة الثقة في العلم، مؤمنة بالعلاقة الحتمية بين السبب والنتيجة، أن تقول «قُوم يا خويا قُوم.. اخبط لك ركعتين، يمكن تلاقي شغلة، يمكن ربنا يطلع القطن بدري ويجرِّي منه الدودة، خلينا نهيص) [١].

إن الفلاح لا يتكلم وفق هذا التصور، وهو يعرف أن صلاته لا تقاوم الآفات، ولا تعجل بنضوج الزرع، وأنها حق الله سبحانه وتعالى، قد يهمله، ولكنه لا يجاهر بالاستهانة به أو ينكره، بل إنه عندما يُصاب الريفي في ماله أو زراعته فإنه يُصبِّر نَفسه بقوله: «المؤمن مصاب» فإنه يدرك أن ذلك علامة قبوله عند الله وصدق إيمانه به.. إن الكاتب هنا (يفرض تصوره الذاتي المسبق، ساقته رغبته في تعميق مجرى الواقعية في روايته إلى الإغراق في محاكاة متخيلة أو محتملة لشخصيات مفلتة عن جسم القرية يمكن أن تكون، ولكنها لا تأخذ المكان المؤثر الذي وضعها الشرقاوي فيه) [٢].

فالشيخ هنا سلبي ممالئ للحكومة الفاسدة بكل قواها ضد الفلاحين الفقراء.. غائب عن وعي الواقع المعيش في القرية، فلم نره على امتداد الرواية وهو الواعظ الناصح لهم، يخطب فيهم خطبة واحدة، ينبههم فيها بالخطر الذي يحيط بهم، أو يهاجم الظلم القائم

١- الرواية، ص ٦٨.

٢- الريف في الرواية العربية، ص ١١٥ - ١١٦.

في القرية الذي يفح سمومه في كل مكان وفي كل اتجاه.. وهذا ما يتعارض مع وظيفته الدينية التي يُعْنَى بها في إقامة المجتمعات على خلاف ما قام به الخطيب (واعظ) جلال الدين الطالب الأزهري في قرية نجيب الكيلاني[١] في روايته «حمامة سلام» فإنه مشغول بهموم القرية وما تنوء به من مشكلات من طغيان الأغنياء وظلمهم الذي يكاد يملأ الأرض حتى وقع العالم في حرب طاحنة لا يعلم مداها إلا الله.. حرب على رأسها هتلر الذي أصبح اسمه يتردد على الألسن أكثر مما يتردد اسم الله، ويتحدث عن الآفات التي أصابت القطن وعن أصحاب الأرض (المُلاَّك) الذين يأبون أن يتهاونوا قيد شعرة فيما قرروه من إيجارات، مما اعتبره طاغية القرية (الحاج عبد الودود) سباً علنياً له مما جعله يصرخ فيه وينهره، لينزله من فوق المنبر يوم الجمعة لكن موقف (جلال الدين) كان صامداً حتى النهاية في وجه الإعصار العاتي..

- انزل يا ولد..

وساد المسجد صمت رهيب، وهدر الشاب: ما كنت أهبط من مكانة أجلسنيها الله.

- لا داعي للفلسفة.. انزل..

---

١ - ولد نجيب الكيلاني في الأول من شهر يونيه عام واحد وثلاثين وتسعمئة وألف في قرية «شرشابة» إحدى أعمال مركز زفتي التابع لمحافظة الغربية (طنطا).

فاق إبداعه الأدبي ونتاجه الفكري في إطار التصور الإسلامي ما يربو الثمانين مؤلفاً في الرواية والشعر والقصة القصيرة والمسرح والدراسات الأدبية والنقدية والإسلامية، وأصدر أول سلسلة في إبداع الأدب العربي التي تناولت مشكلات المسلمين في العالم تحت شعار «روايات إسلامية معاصرة» : منها:

١- نور الله ٢- عذراء جاكرتا - ٣- عمالقة الشمال - ٤- ليالي تركستان - ٥- عمر يظهر في القدس - ٦- دم لفطير صهيون- وغيرها.

- هذا بيت الله لا بيتك، وحق هؤلاء المسلمين أكثر من حقك..

دقّ الحاج بيده المتشنجة على خشب المنبر: انزل يا ابن الكلب.. أنت تسب أسيادك..

وعاد الشاب يقول في ثورة: الدين النصيحة، وما قلت إلا ما أعتقد أنه حق.

- لعب عيال.. أنت تجني على نفسك وعلى أهلك فصاح الطالب: سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل أتى إماماً ظالماً فنهاه، فقتله..» (١).

فالواعظ هنا لا يقف مكتوف الأيدي أو ذاهلاً عما يقع لمجتمعه وأهل قريته من مشكلات مصدرها الطغاة في القرية ومن يساندهم من حكامهم (العمدة - مأمور المركز) فهو يواجه الجميع بهذه الأمراض الفاتكة بمجتمع القرية والتي تقف به دون نقطة الانطلاق والتطور.. وهذا طالب لم يستكمل أدواته العلمية والفقهية بعد، ولكنه متشبث بما ينبغي أن يكون عليه الواعظ، فكان في وجدان الكيلاني أفضل من الواعظ الذي قدمه عبد الرحمن الشرقاوي في رواية الأرض.

وكانت هذه الخطبة أحد المسامير التي دُقّت في نعش الطغيان في القرية مما شجع الفلاحين أنفسهم على الرفض والتمرد، وقيام الشيخ عبد الباقي الصوفي بمواجهة الطاغية وتوسط أهل الخير..تَكَاتُف الجميع أدى إلى النتيجة الحتمية لانتهاء الظلم، وعاش الجميع في حياة

١- حمامة سلام، ص٢٠ نجيب الكيلاني - مؤسسة الرسالة - ثالثة - ١٩٨٤ - بيروت.

هانئة سعيدة، فكانت خطبة الشيخ (جلال الدين) هي شرارة الانطلاق نحو العدل والحرية والإخاء في مجتمع القرية..

وهذا هو الفارق بين الرؤيتين، فرؤية الشرقاوي التي تنهل من تصور طبقي (شيوعي)، حيث عاش مجتمع القرية يأكله القلق، وتنهشه الهواجس، يتردى في مهاوٍ طبقية راسخة جامدة حتى النهاية.

أما «نجيب الكيلاني» فتصوره الإسلامي يحفّزه على تناول خاص للشخصية، يختلف عن تناول التصور البشري أياً كان دوره، فإن (عرض النفس في صورة مذهب - ككل منهج، مذهب آخر - يجعل الكاتب يختار من الحقائق والملاحظات والوقائع والصور ما يستقيم مع خط المذهب واتجاهه، ويميل إلى إغفال الحقائق والملاحظات والوقائع والصور التي تعارض خطه المذهبي، أولا ينتظمها هذا الخط - أو تجريدها من أهميتها. ومن ثم، جوانب شتى من الحقيقة الأساسية، وهذا هو المنهج البشري على الإطلاق!..

أما المنهج (التصور) القرآني فيعرض النفس الإنسانية كما في حقيقتها على النطاق الواسع الشامل.... لأن الإنسان في الإسلام مخلوق خاص، ذو كيان متميز، تميزه في ازدواج عناصر تكوينه، مستخلف في الأرض، ومزود بخصائص الخلافة، وأُولى هذه الخصائص الاستعداد للمعرفة النامية المتجددة، ومجهز لاستقبال المؤثرات الكونية والانفعال بها والاستجابة لها، ومن مجموع انفعالاته واستجاباته يتألف نشاطه الحركي للتعمير والتغيير والتعديل والتحليل

والتركيب والتطوير في مادة هذا الكون وطاقاته للنهوض بوظيفة الخلافة..) [١].

فالشخصية الإسلامية (الواعظ) هذا يركب مركب الحقيقة حتى لو أغضب الطغاة والحكومة، فإن عليه حقاً لا بد أن يصدع به ﴿**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ** ﴿٩٤﴾﴾ [٢] وأفضل الجهاد كما يقول الرسول - ﷺ - «كلمة حق عند سلطان جائر..[٣]» .

والإمام أو الواعظ بشر يطرأ عليه ما يطرأ على عامتهم، إلا أنه يختص بعلمه وفكره وتقاه.. كل هذه تؤهله للريادة: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴿١٣﴾﴾ [٤] وليست التقوى أن يخلد الإنسان للراحة أو الدعة أو لزوم المساجد، والاعتكاف في مخادع الظلمات، لكن التقوى ثورة وانطلاق نحو ميادين الحياة بكل حركتها وامتلائها، نحو ابتغاء القيم والفضائل البانية لكيان المجتمع، «فالمؤمن خير كله» ، فإن الريادة لا تتأتى لمسلم، إلا إذا كان على تقوى، تلك التقوى التي ليس معناها (أزهدكم في الإخلاد للراحة، وأرغبكم في جدل الموت والحياة، إنما معناها أعبدكم تحت راية السيف والحرب والدموع والدم إذا هيض للعقيدة جناح، أو استبيح للأمة مجال... إن أتقانا قد يكون في الحرب أشجعنا، وقد يكون في السلم أنفعنا.. وفي الدين أروعنا..)[٥].

١- مقومات التصور الإسلامي، ص ٣٦٧، سيد قطب - دار الشروق - الرابعة - ١٩٩٣ - القاهرة.

٢- سورة الحجرات آية ٩٤.

٣ - سنن النسائي، المجلد السابع، كتاب البيعة - باب فضل من تكلم بالحق عند إمام جائر صـ ١٦١.

٤- الحجرات من الآية ١٣.

٥- في الفكر الإسلامي من الوجهة الأدبية، ص ٤٢، د/ محمد أحمد العزب - المجلس الأعلى للثقافة ١٩٨٣ - القاهرة.

وقد ينال هذه الشخصية انطواء أو انكفاء لظروف ما، إلا أنها سرعان ما تنهض من هذه الكبوة الشيطانية التي قوضت من عزيمتها للحظات ما.. فالنفس الإنسانية - كما عرفنا - يتآزر خلالها الخير مع الشر، وتتجاور الفضائل مع الرذائل (فتشمل نوازع فطرية تربطها بالأرض، لأن الحياة- في أهدافها العليا - لا تتحقق بغير وجود هذه النوازع قوية ملحة يتعذر الفكاك من عقالها، ولكنها تشمل في الوقت ذاته نزعة - فطرية أيضاً تهدف إلى الارتفاع والسمو ومحاولة الانطلاق - ولو قليلاً - من روابط الأرض.

من ثم فالإنسان قابل - في التصور الإسلامي - أن يهبط أو يصعد، بحسب التوجه الذي يوجه إليه.. فالإغراء بالهبوط كالإغراء بالصعود، كلاهما يتلقى استجابة طبيعية من الفرد، لأن فيه استهواء لهذا أو ذاك، وبعض الأفراد - بطبيعة الحال - يكون استهواؤهم للشر أكبر، وبعضهم يكون استهواؤهم للخير أشد، ولكن الغالبية تقع في الوسط، أو هي - لتكون أكثر واقعية - أميل إلى الهبوط والاستجابة لنوازعها الفطرية الأرضية، وإن كانت في ذات الوقت لا ترفض الاستجابة إلى دافع التسامي حين يعرض لها أو تُوَجَّه إليه...) [١].. فالإنسان مشدود إلى الأرض - بنوازعه البشرية - والعقيدة تحاول أن تشده إلى السماء - بنزوعه العقدي فيحدث التوازن النفسي (الاستقامة) من ثم (يمسك الإسلام بالإنسان من خيط الصعود ليساعده على موازنة الثقل الذي

١ - الإنسان بين المادية والإسلام، ص ٦٩، محمد قطب - دار الشروق - تاسعة ١٩٨٨ - القاهرة.

يجــذبه إلى الأرض، ولكنه لا يعنّف في جــذبه إلى أعلى حــتى يمزق أوصاله، أو يقطع ما بينه وبين الأرض من صِلات، لأنه حين يفعل ذلك يفقد توازنه المنشود) [١].

هذا النموذج الإسلامي نلتقي به متجسداً في شخصية الشيخ «سمعان الطوخي» في رواية «اعترافات عبد المتجلي» [٢] للروائي نجيب الكيلاني[٣]..

«الشيخ سمعان الطوخي[٤] إمام وخطيب المسجد، رجل في الخمسين من العمر، ملتزم بالتعليمات الرسمية، ويتلو الخطب التي تبعث بها وزارة الأوقاف بدون إضافة أو حذف، وعلى الرغم من تبرمه بذلك إلا أنه - بعد طول تجربة - أيقن أن ذلك هو طريق السلامة والاستقرار، فالخُطب عنده أمر ونهي، يركز على أصول العقيدة وأعمدتها الخمس، ويدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وليس لديه أدنى استعداد للمساءلة أو النقل أو الجزاء، وهو يعلم أن زملاء له، قد أخرجهم فساد الحال في البلاد عن الهدوء والكياسة، فسيقوا إلى المنافي أو المعتقلات، والعاقل من اتعظ بغيره وسلك طريق الحكمة والموعظة الحسنة، وهو يفهم الحكمة والموعظة، فهما مرتبطان بالنهج الذي تسير عليه إدارة شؤون البلاد، عندما سألوه عن رأيه فيما جرى لعبد المتجلي في

١ - السابق نفسه، ص٧٠.

٢- مخطوط بيد مؤلفها..

٣ - الرواية: المخطوط ص ـ ١٩، ٢٠ نجيب الكيلاني.

٤- سمعان: اسم الرجل المؤمن من آل فرعون وهو الذي كان يكتم إيمانه.. لسان العرب ٣/٢٠٩٨ مادة سمع، ولنلاحظ المشاكلة في هذا الاسم وما عليه من حال هذا الرجل، وكأن الكيلاني لخبرته بمعطيات الإسلام يريد أن يصنع نماذج مستلهمة من القرآن الكريم ويوظفها توظيفاً فنياً معاصراً.

المسجد على يد العمدة، هز رأسه محوقلاً وقال: «هذا بيت الله.. وهو مكان للعبادة والإنابة».

وحينما كان يجلس أمام بيته على أريكة خشبية، مغطاة بحصير صغير، جاءه أحد طلبة المدارس وسأله:

- «ألم يكن المسجد يا مولانا أيام السلف داراً للعبادة والقضاء والبيعة ومناقشة مشكلات المسلمين»..

شرد الشيخ ببصره إلى بعيد وتمتم:

- «كان... وكانوا».

لم يفهم الطالب ألغازه، وأدرك الإمام ذلك، فأخذ يشرح:

- قال عبد الملك بن مروان على المنبر: ألا تنصفوننا يا معشر الرعية؟؟.. تريدون منا سيرة أبي بكر وعمر؟؟ ولم تسيروا في أنفسكم ولا فينا سيرة رعية أبي بكر وعمر؟؟ أسأل الله أن يعين كلاً على كل..

وصمت الشيخ برهة ثم قال:

- «الحلال بين، والحرام بين..».

هتف الفتى في ثورة:

- «لقد اختلط علينا الحلال بالحرام، والفساد الضارب يفسد الرؤية..»

أطرق الشيخ ولم يعلق، وعاد الفتى يقول:

- أي قانون يمنع عبد المتجلي من إبداء رأيه...؟؟.

وابتسم الشيخ وقال:

- «إن أهل القرية البسطاء المساكين لا تهمهم قضية الونش...».

- «والسرقة وباء تفشّى في كل الأنحاء...».

- «فلْنتحدث عن السرقة إذن...».

- كما نتحدث عنها من ألف عام؟؟... لا... لا.. من الضروري أن نربطها بقضايا معاصرة.. كالونش مثلاً..

قال الشيخ وهو يطوي الحصير مستأذناً:

- ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾[1].

فالشيخ «سمعان الطوخي» ذلكم الرجل يدعو إلى الله من خلال علاقة اجتماعية هي إلى الوظيفة أقرب منها إلى الدعوة الخالصة: فهذه المواقف منه مواقف متخاذلة، وإن كانت موجودة في الحياة للذين يؤثرون السلامة، ويخافون البطش، إلا أنها لا تمثل النموذج الإسلامي الحق، ولذلك سنرى في الرواية أنه لم يستمر على موقفه ذاك بل ثار على نفسه، وثار على سلوكه هذا، ورجع مسلماً حقاً، وأدى وظيفته كما هيأه الإسلام لها. وذلك يتضح من هذا الموقف الذي لم يجد الشيخ سمعان إلا أن يستجيب لدعوة الحاج إسماعيل على الرغم مما ستجره عليه هذه الشهامة من بلاء فقال:

- «سآتي معك يا حاج إسماعيل.

رد عليه قائلاً:

---

١ - جزء من الآية ٤٤ من سورة غافر.

- إن مركزك حساس، وأنا أعرف القيود الوظيفية.

- إذا لم أفعل، فلا قيمة لأي كلام أُطلقه فوق المنبر، والمتهم بريء ياإسماعيل حتى تثبت إدانته.. والوقوف إلى جوار عبد المتجلي لا يدخل في نطاق الجريمة.. قسماً بالله لآتينَّ معك، وليكن ما يكون.. السكوت على الظلم ظلم..».

فالشيخ عندما تجاوز ظلم الحكام في القرية وكذا مباحث أمن الدولة في القبض على عبد المتجلي بمجموعة من التهم هو منها براء - لم يجد الشيخ مناصاً عندئذ من محاولة الوقوف بجوار «عبد المتجلي» لا سيما إذا كان ذلك لا يدخل في نطاق الجريمة، فضلاً عن أنه واجبه الذي يعمل لأجله.. ويدعو الناس لاعتناقه، فقاد تظاهرة شعبية تتألف مما يقرب من خمسين رجلاً إلى مقر «سيادة المحافظ» في مسيرة سلمية من أجل المظلوم «عبد المتجلي» وعندها يلقى التقريع من السلطة (العمدة) وخفرائه وتفريق هذه المظاهرات، وأصدروا أوامرهم للمتظاهرين بالعودة إلى بيوتهم، وإلا مصير عبد المتجلي ينتظرهم.

«.. هل أصبحتم مجانين مثل عبد المتجلي؟!.. أتريدون أن تذهبوا إليه لتشاركوه في البحث عن الونش؟!.. آه يا بلد جهلة..

وأنت يا سيدنا الشيخ.. هل هذه تصرفات عالم دين يعرف الشريعة وأصول الإدارة وطاعة أولي الأمر؟..

أتعرفون ما معنى تجمعكم هذا؟.. معناه أن تساقوا جميعاً إلى المعتقل، ثم تحالوا إلى نيابة أمن الدولة..» [1].

---

١ - الرواية المخطوطة، ص ٨٣.

إلا أن الشيخ يدهش لما يفعله العمدة في أهل القرية الذين يريدون الوقوف إلى جوار واحد منهم (عبد المتجلي)... فرمقه الشيخ بنظرة مبللة بالأسى وقال:

- أنت تعلم أننا لم نرد إلا الخير..

قال العمدة في عناد:

- ما تراه خيراً قد يكون شراً من وجهة نظري.

- «العلم لأهل العلم يا عمدة».

- ليس هذا علماً يا شيخنا.

- ماذا تسميه؟؟

- هو سياسة - إدارة.. ضبط وربط... وأنت تخلط..

- أخلط ماذا يا عمدة؟..

- تخلط الدين بالسياسة.

أغمض الشيخ عينيه حين تدحرجت دمعة على الرغم منه، وقال:

- رحمك الله..

فهو لم يستطع المضي في سلبيته حتى النهاية، وإنما عاد إلى رشده وأفاق مما هو فيه، ومارس ما طلبه منه الدين من عدم كتمان الشهادة ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾[1].

١- سورة البقرة جزء من الآية - ٢٨٣.

وقال الشيخ: «ومع ذلك فسوف نذهب إلى المحافظة فرادى.. ويجب أن نبلغ الناس بذلك سراً.. حيث نلتقي هناك، وسوف أعد مذكرة لتقديمها للمسؤولين..» (١).

فالشيخ لم تهدأ نفسه لما رآه من ظلم السلطة لعبد المتجلي، فبذرة التمرد على الواقع المؤلم التي بذرها وتعهدها الكاتب منذ الوهلة الأولى في شخصية الشيخ، حتى أصبحت عندما حانت ساعة الصفر.. أصبحت تمرداً على العجز والمحاصرة التي حوصر بها طوال رحلته مع الدعوة.. إلى أن حانت فرصة الاستعلاء الحقيقي، والسمو فوق هذا العجز. فحطم الشيخ حواجز العجز وواجه العمدة، وقاد المظاهرات، وأخذ يصدع بدعوته وشهادته أمام أولي الأمر من الساسة، في صورة إعداد مذكرة بـ (الحادثة)، وعرضها على المسؤولين، غير مبالٍ بما يمكن أن يصيبه مما كان يرهبه قبل ذلك..

فشخصية الشيخ «سمعان الطوخي» التصقت بمخاوفها وعجزها حيناً، إلا أنها سرعان ما نهضت، وتخلصت من هذه النوازع المحبطة، وامتدت يداه نحو السماء، يسمو حيث الواقع الطموح الذي عرفناه في الأئمة الأوائل، الذين نستلهم حياتهم في تشكيل النموذج الإسلامي لهذه الشخصية الفاعلة في بناء الأمة وتربية تطلُّعاتها في إطار منهج أو رؤية تستمد مقوماتها من المنهج الرباني في تربية الإنسان واختياره...

فهاتان الشخصيتان (جلال الدين - سمعان الطوخي) جسدتا الظلم والعسف الذي يقع من الطغاة ورموز الحكم من خلال الصراع القائم

١- الرواية، ص ٨٤.

بين الشخصية، ومن يقفون بمواجهتها سواء جلال الدين مع الحاج عبد الودود الطاغية الذي تسانده السلطة المتمثلة في العمدة، ومأمور المركز، أو الشيخ الطوخي كذلك والعمدة وخفراؤه ومباحث أمن الدولة، إلا أن الصراع فيهما يفيء إلى ظلال الحق والحقيقة فينتهي الظلم، ويرجع المظلوم مرفوع الرأس منتصب القامة يقره الجميع على حقه، ويفرحون لانتصاره، وهو ما يرمي إليه التصور الإسلامي، انتصار الحق على الظلم، فمهما طال أمده فلا بد من بزوغ فجر العدالة الذي يتبعه نهار الحرية الطويل.

فالكيلاني استثمر الصراع استثماراً فنياً ناجحاً في بناء هذه الشخصيات مستعيناً بأدواته من: الحوار والوصف أو السرد لتشييد هذه الشخصيات ما أتاح لها خاصية الصدق والإقناع لمهارة حركتها داخل العالم الروائي، فجاءت شخصيات فنية مقنعة إلى الحد الذي أمتعنا وجدانياً.. وبحسّب الكاتب الحقيقي أن يصل إلى هذه الغاية في نفوس المتلقين..

أما الداعية الذي يدعو إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة كي يكون على بصيرة من الأمر لا سيما وهو يرتاد جزءاً مستعمراً، تنشط فيه حركات التبشير المسيحي الذي يمارس نشاطه بتفوق واقتدار وحراسة من المستعمر الإنجليزي المسيطر على هذا الجزء من نيجيريا..، فلا بد أن يكون متسلحاً بمعطيات إيمانية، قادرة أن تصنع منه إنساناً من طراز خاص، مثل «عثمان أمينو» في رواية «عمالقة الشمال».

(قلت لأحد أصدقائي القدامى:

- لقد نسيتم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ابتسم في يأس، وقال:

- ليس لدى الوعاظ وقت ليقولوا، وليس لدى السامعين وقت ليسمعوا...

- إننا نهدم بذلك ديننا..

- نحن نصلي ونصوم.. ونحتشد يوم الجمعة..

- الدعوة إلى الله شيء آخر..

- ماذا تعني؟؟

- يجب أن نمشي في الشوارع والطرقات والحوانيت والغابات..

هز رأسه قائلاً:

- هذا حق..

- ففيم التقاعس؟؟

- تنهد في ألم، وقال:

- الدعاة هنا مطاردون.. إنهم يصطدمون بعقبات لا يدري أحد من أين تنطلق، كثيرون منهم يُبعدون، أو يُصْرعون في الظلام، أو يُحرمون من فرص الحياة، أو يطردون من الوظائف تحت أسباب غريبة، لا تمت إلى الحقيقة بصلة.. وقانا الله وإياك شر الفتن..) [1].

١- الرواية، ص ٤٣.

إنه داعية يعرف مهام وظيفته في الحياة، ويعي خطرها تماماً - وعلى الرغم من ذلك، فإنه يصر على المضي في سبيل دعوته، والاندفاع نحو مبتغاه الأثير، ولن يثنيه عن هذه المهمة الغاية ولو كلفه ذلك حياته، فإنه واثق بوعد الله في الآخرة قال تعالى في سورة التوبة: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [١]. فيقرر «عثمان أمينو» التاجر الداعية المسلم في ثقة أن سيخوض المستنقعات والغابات داخل هذه البلاد داعياً إلى الله، ومعه صاحبه عبد الرحيم الذي استقدمه لحراسة قطيع الأغنام معه، ولرفقته في رحلة الدعوة إلى الله.. فقال له:

- نحن نخاطر بأنفسنا..

- أعرف..

- ففيم المغامرة؟؟

- إن صوت الله يجب أن يسمع..

- لماذا خلقنا يا عبد الرحيم؟

- لنعيش يا عثمان..

١- سورة التوبة الآيتان ١١١، ١١٢.

- الدعوة إلى الله حياة.. والموت في سبيله خلود..

- لكننا نحمل وصايا الأنبياء..

وشردت ببصري إلى بعيد وأنا أردد:

- أنا على موعد مع الجنة.. حدثني شيخي عن جنة عرضها السماوات والأرض تجري من تحتها الأنهار، وعن الصالحين الذين ينعمون بأروع ثواب.. برؤية الله، وأنا أرى الطريق جيداً.. ولن أرجع إلا إذا ترددت كلماتي في جنبات الغابات وسمعها البشر في أي موقع أنزل به...» [1].

فيبدو أن عبد الرحيم اقتنع بوجهة نظر صديقه عثمان، فاستأجر سيارة لاند روفر وانطلقا بها نحو الشرق إلى قبائل الإيبو.

ونجيب الكيلاني الأديب والمفكر والداعية الإسلامي، يفرز خبرته في هذا المجال خلال أسلوب أدبي يتميز بالسهولة واليسر، يمنحه حرية الحركة والتجول في الآفاق الرحبة للنفس الإنسانية، فيمتزج الحقيقي بالمتخيل في اطراد وعفوية، يتوارى خلالها الراوية خلف الأحداث والأسماء، ويبذر بذور الصراع، ويشق له طرقاً، ومنعطفات في نفوس الشخصيات التي يصورها، فيتجاوز المحدود إلى المطلق، وينأى عن التقريرية أو التكلف إلى أسلوب التصوير الحي المتحرك بحرية وعفوية فيستطيع أن يتجول داخل الشخصية، فينفذ إلى أعماقها، ويرتد خارجها، في كل خطوة وحركة في الزمان والمكان، وعلى مستوى

١- الرواية، ص ٤٤.

الحديث، أو الفعل المتحرك دون تعثر أو انكسار لما يصنعه هذا الأسلوب الفني من تماثل.. اتحاد.. بين الراوية والشخصية. أو كما يسميه الناقد الفرنسي «جون بويون» بـ (الرؤية مع) أو الرؤية المرافقة...

من خلال طاقة الضوء هذه (اللغة الشفيفة)، استطاع نجيب الكيلاني، أن يتجول بنا بين غابات نيجيريا وأحراشها، بين قبائلها وصراعاتها وغير ذلك.. كل هذا نراه بعيون الداعية «عثمان أمينو» وهو يوغل ويتحرك هنا وهناك غير هَيَّاب للمخاطر التي ستواجهه في رحلته هذه من وعورة المسالك ووحل المستنقعات، وكثافة الأشجار وما تحويه هذه المناطق من حَيَّات قاتلة، وذئاب مسعورة فاتكة، فضلاً عن اللصوص وقاطعي الطريق، وخفراء القبائل الذين أطلقوا صيحاتهم لرؤية عثمان ورفيقه إيذاناً بقدوم غرباء إلى القبيلة، فقبضوا عليهم، وذهبوا بهم إلى زعيم القبيلة الذي أكرم وفادتهم، لكونهم ضيوفا أتوه من شمال نيجيريا، وقدم لهم نساءً، مبالغة منه في كرمه إياهم، كما تقضي تقاليد هذه القبيلة، إلا أن عثمان شكره موضحاً له، أن دينهما يرفض هذا، فسألهم عن دينهم، وهنا واتت الفرصة عثمان كي يجهر بدعوته، فأخذ يشرح له عن الإسلام ما لم يعرفه زعيم القبيلة، وهنا حضر «الأب توم» المبشر الصليبي، وطلب منهم أن يرحلوا، ثم آذنهم بالرحيل مرة ومرة، مما أنشب بينهم صراعاً امتد على هذا النحو:

- إن أرض الله واسعة

- هذا حق...

تنحنح وقال:

- «وهناك مناطق كثيرة أخرى في الشرق والغرب.. تستطيع أن تذهب إليها ...».

قلت في هدوء:

- نحن لا نقتسم الأرض، ولا نساوم على البشر..

- ما قصدت ذلك يا صديقي..

- نحن نتحرك بين شعب نيجيريا بمنتهى الحرية..

- يا صديقي قد يسيء هذا إلى مصلحة الناس هنا...

- نحن لا نملك غير الكلمات..

- لكن الناس هنا سُذّج بسطاء.. قد تتحول الكلمات لديهم إلى سهام ورصاص

قلت في دهشة:

- لماذا؟..

- من أجل أن تتدخل في شؤونهم..

- ما قصدنا ذلك.. نحن نتكلم فمن شاء آمن وما شاء انصرف عنا لا نعاقب أحداً، ولا نعطي مكافأة مادية لأحد.. نحن عابرو سبيل ليس في حوزتنا غير قليل من الطعام، وقُدرة على السير في الطريق..

«ووجدت عبد الرحيم يقبل نحونا بوجهه الأسمر الطويل ويقول:

- أيها الأب.. ألم تفكر يوماً أننا قد نكون على حق؟؟.

قال في إصرار:

- أنا مسيحي وأعرف الحق من وجهة نظري الخاصة..

- قد تكون وجهة نظر الآخرين أصوب أيها الأب توم..

نظر إلى عبد الرحيم في اشمئزاز وقال:

- الفارق الحضاري بيني وبينكم يمتد إلى قرون...

ثم استطرد في برود:

- لقد جئنا هنا لنعلمكم كل شيء.. الصناعة والزراعة والجغرافيا.. والدين.. نحن أساتذة.. تلك هي الحقيقة..

- تدخلت قائلاً:

- من الشرق ظهر المسيح.. وفي الجزيرة العربية ولد محمد.. وفي مصر ولد موسى.. زادكم عندنا.. ومع ذلك فإن البحث عن الحقيقة قضية أخرى لا تتعلق بقوتكم.. هذا ما أفهمه..

ودار الحديث شرقاً وغرباً، واحتدم الجدل، وأخيراً نظر الأب توم نظرته الخبيثة التي لا تتفق والمسوح التي يلبسها وقال:

- أنتم تلعبون بالنار..

الإفريقيون يعرفون جيداً ما يضرهم وما ينفعهم..

ضحك ضحكة ساخرة وقال:

- «سنرى» (١).

---

١ - الرواية، ص ٦٨-٦٩ .

وأخذ الأب توم يهدد عثمان وصديقه عبد الرحيم لما لم يذعنوا له، ويقبلوا بالرحيل عن القبيلة حتى أغرى أتباعه بقتلهم. وعلى الرغم من تنبه عثمان وعبد الرحيم لمثل هذه المكائد، إلا أن السهم الذي رماه الرجل أصاب كتف عثمان بعد أن تفاداه، وعرفا بأن «الأب توم» وراء تدبير هذا الحادث.. وعندما علم زعيم القبيلة بما حدث تحرى عن الجاني وقيّده بالحبال كي يقتص منه:

- الخائن يقتل.. [١].

وهنا تتاح للداعية عثمان أمينو أن يظهر من مكارم أخلاقه التي تنهض في بنائها على العقيدة التي يعتنقها ويدعو لها، فاغتنم الفرصة، وأخذ يضرع إلى الزعيم أن يعفو عن الجاني، وأسمعه من كتاب الله آية تحث على العفو والإصلاح «ومَنْ عفا وأصلَح فأجرُهُ على الله» وألح في الرجاء أن يعفو الزعيم عن الجاني المدفوع من «الأب توم» مما جعل هذا السلوك الإسلامي الرفيع من عثمان، أن يدفع الزعيم إلى طرد الأب «توم» من القبيلة، واعتناق دين هذين الرجلين في تظاهرة حاشدة أكدت نجاح الداعية المحنك عثمان أمينو وكسبه جولة الصراع وانتصاره على الأب توم: فيطلع الزعيم على أهل قبيلته بهذه المفاجأة:

- أيها الأبناء: لقد قررت أن أعتنق دين هذين الرجلين...

وساد السكون ثم التفت صوبي قائلاً:

- قم ولقّني الكلمات المقدسة:

١- الرواية، ص٧٢.

وفي خضم هذا السكون العامر بالدهشة، وقفت ألقنه الشهادتين باللغة العربية. وما إن انتهيت وقد سال جسدي عرقاً غزيراً حتى صاح الزعيم بالحاضرين:

- قفوا ورددوا الكلمات المقدسة.

وعندما هدر الحشد الهائل بالشهادتين ظننت أنني في حُلم،إنه شيء يشبه الأسطورة، وراء ذلك كله سر إلهي لا يمكن كشفه، نفس السر الذي يكمن وراء إسلام الملايين على أيدي التجار في الهند والصين وشواطئ البحار البعيدة والجزر النائية...[١]

فما أجمل النصر حين ينجح الداعية «عثمان أمينو» في مهمته، وهو الذي كان يتوجَّس خيفة من تحقق هذا النصر، إلا أن تسلحه باليقين الرباني والخُلق الإسلامي، وفّر عليه جهداً كبيراً في تجواله في هذه الفيافي البعيدة، فإيمانه وعزمه قاداه إلى النجاح الفائق فتسمو العقيدة في نفسه، ويفرحه الحصاد الوفير في الزمن اليسير، وتشمخ عزة الإسلام في نفسه لا سيما، عندما يريد الزعيم (زعيم القبيلة) أن يُلْزِم المتنصرين على يد الأب توم باعتناق الإسلام، إلا أن عثمان أمينو أخذ يرجوه في البقاء على دينهم، لأن دين الإسلام يحترم حرية الإنسان في الاعتقاد، ويرفض في الآن نفسه - إكراه أحد على اعتناقه قال تعالى: ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** ﴿٢٥٦﴾﴾ [٢] مما أثار دهشة هذا الزعيم من فرط الحلم الذي تتميز به هذه العقيدة، ونصيب معتنقيها من هذا الحِلم، الخلق الإنسان، الرفيع الذي يتمتع به هؤلاء الدعاة أصحاب الدين الجديد!!

١- الرواية، ص٧٣.

٢- سورة البقرة من الآية - ٢٥٦.

تلك كانت شخصية الداعية كما قدمها الأديب الإسلامي نجيب الكيلاني في رائعته «عمالقة الشمال» وهذه الشخصية الداعية أو عالم الدين من الشخصيات الأثيرة لدى نجيب الكيلاني لما لها من أثر في حياته، لذا شغل هذه الشخصيات حيزاً واسعاً في أدبه لأنها (تمثل قيمة عقلية وروحية وخلقية وسلوكية في صور مثالية ذات العبق الروحي في مدلولها الديني، وكذلك عبقها التاريخي في مدلولها التراثي ومدلولها الاجتماعي العرقي في الواقع المعيش[1]، من ثم ففي مصدر العطاء المتجدد والمتواصل الذي يتسع أو يصنع مساحة واسعة للالتقاء والتوادّ في إطار العقيدة الإسلامية الفطرة النقية التي فطر الله الناس عليها، هذا الينبوع الهائل لكل معاني الإيمان والجمال الذي يتفجر بمعان إنسانية راقية باستطاعتها تقديم نموذج إسلامي يعيش هذه المعاني وتلك القيم العظيمة، لأن المسلم وحده هو الذي تتسع نفسه للتصور الإسلامي الكامل، التصور الكوني الشامل لكل مفردات الكون، وعلاقاتها المختلفة والمتشابكة في الوقت نفسه، ليفرز مجتمعاً وليد الحركة بالعقيدة الإسلامية.

فالكيلاني حين رسم شخصية عثمان بهذا القدر الكبير من الإصرار والاستعداد للتضحية وخوض التجربة دون تردد أو وجل مع التسامح الإسلامي العظيم الذي ظهر في خطواته المتعاقبة أثناء تجربته إنما يكون بذلك قدم شخصية إسلامية في إطارها الصحيح وأعطاها من الصفات ما ينبغي أن تتحلى به...

١- راجع فن التشخيص في شعر الكيلاني مقال للدكتور/ جابر قميحة بمجلة المنهل عدد ٥٢٧ رجب ١٤١٦هـ - السعودية.

رابعاً: شخصية المعلم (سيدنا..)

شخصية سيدنا في رواية السيرة الذاتية للدكتور/طه حسين[١] «الأيام» اكتسبت شهرة فاقت كل الشخصيات المخترعة في عالم الرواية، حيث تعدت شهرتها بطل الثلاثية السيد أحمد عبد الجواد، ربما للسخرية المفرطة التي عرض الدكتور «طه حسين» في إطار شخصية سيدنا، معلم القرآن الكريم للصبيان في القرية، وهذا ما لمسه كل من طالع هذه السيرة، أو شاهدها من العامة لا سيما بعدما صورت سلسلة تلفزيونية غالت في السخرية من هذه الشخصية مما أثار حفيظة علماء الأزهر، فأصدر شيخ الأزهر آنئذ أمره إلى وزارة الإعلام بإيقاف عرض هذه المسلسلة لما فيها من إساءة لعلماء الدين وحفظة القرآن الكريم الذين ينبغي أن نجلّهم ونحترمهم بوصفهم رموزاً للعقيدة التي نقدسها إلا أن صخب الحرية المائعة، علا فوق صوت شيخ الأزهر وجبهة علمائه، وتمادى جهاز الإعلام في عرض هذه المهزلة، بل وأعاد عرضها مرات بعد ذلك وكأنه يصر على السخرية والتّبجح الإعلامي المقزز!!.

وإذا كان طه حسين لا يصور كل جوانب العصر بما فيه ومن فيه، في هذه الرواية، وإنما استطاع بموهبته وإرادته أن يختار بيئة خاصة

---

١ - ولد طه حسين في ١٤ من نوفمبر ١٨٨٩م، في عزبة الكيلو التابعة لمركز مغاغة بمحافظة المنيا.. في أسرة ريفية بسيطة ومتدينة..

أنتج الدكتور طه حسين ما يربو على الأربعين مؤلفاً في مجالات شتى منها:

١- النقد الأدبي، في ذكرى أبي العلاء، حديث الأربعاء، في الشعر الجاهلي، في الأدب الجاهلي - مع المتنبي، حافظ وشوقي.. وغيرها.

٢- في الرواية: الأيام (سيرة ذاتية) - دعاء الكروان - أديب - شجرة البؤس - المعذبون في الأرض..

٣- الإسلاميات: على هامش السيرة - الوعد الحق - الشيخان - وغيرها..

وصوراً خاصة، وملامح خاصة كذلك لشخصيات معينة، لأن الأديب لايمكنه أن يعرض لكل مشاهداته، وينقل كل ما يزدحم به واقعه، لأن الفن اختيار وليس نقلاً فوتوغرافياً مباشراً عن الواقع. وبما أن هذا الاختيار يعد الأساس في عملية الإبداع، لأنه «يختار ما يخدم فكرته، ويجلو آراءه» خلال العملية الإبداعية، فإننا سنتحاكم إلى الواقع الإنساني والمسؤولية العقائدية تجاه هذه الشخصية (الرمز)، إذ إن مجابهة الفكرة أخبث من مواجهة الشخصية، فالشخصية هنا لا تهاجم أو تحارب لذاتها، وإنما السخرية هنا واقعة، أو ساقطة على أم رأس الفكرة أو الرمز الإنسان المنطوي تحت لواء العقيدة أو النابع من التصور الإسلامي.. الذي يعلي من قيمة هذه الذات أو النمط الإنساني. فالمعلم - أياً كان نوع علمه - يكفل له الإسلام من الاحترام والجلال، ما يرفع مكانته بين الآخرين، قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ . .﴿١١﴾﴾ [1] والسنة النبوية زاخرة بأحاديثها العطرة التي تؤكد على المكانة الجليلة لحملة القرآن في المجتمع [2].

من ثم ينبغي أن يكون اختيار المبدع المسلم منطلقاً من هذا التصور الإسلامي لهذه الوظيفة الإنسانية، فيقف منها المتعلم موقف التكريم والتشريف لمعلمه، وإذا كان هذا الانطباع التقديسي يشيع لدى العامة

١- سورة المجادلة من الآية ١١..

٢- روى الإمام أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: إن لله أهلين من الناس، حملة القرآن هم أهل الله وخاصته» رواه ابن ماجة في سننه، المقدمة - باب فضل من تعلم القرآن وعلمه برقم ٧٨/١/٢١٥.

وروت السيدة عائشة رضي الله عنها قالت قال النبي (ﷺ): «من تعلم القرآن وحفظه أدخله الله الجنة وشفعه في عشرة من أهل بيته قد استوجب النار...». ابن ماجة نفس الباب ٧٨/١/١٦.

فيما أُثر عنهم: من علّمني حرفاً صرت له عبداً، فما باله لدى طه حسين الشيخ المتعلم، والحاصل على أعلى شهادة عالمية، والذي كان يأمل في فجر صباه أن يتشيخ، ويصبح صاحب عمود في الأزهر الشريف، الذي غدا يقف من أهله موقف المنكر لهم، المناوئ الحانق على كل ما هو أزهري أو يمت للأزهر وربما علومه بصلة[1]!!.

أظن أن الفشل الذي لحقه في تعليمه الأزهري، والذي حاق به قبل ذلك على يد سيدنا حين زعم أنه ختم القرآن كله واكتشف أبوه بعد ذلك أنه لا يحفظ شيئاً، ثم أسلمه إلى مفتش الزراعية ليعيد تحفيظه.. هذا الفشل لم يواجهه بالاستسلام والإذعان، وإنما جابهه بالتمرد والسخط عليه، زاعماً أنه فوق علم الأزهريين، وأنهم قوم جهلاء ومتخلفون، وعاش عمره كله سواء داخل كتاب، الأيام، أو في حياته الخاصة يطعن في علماء الأزهر، وينعى عليهم جهلهم.

بهذه النظرة الساخطة/ الساخرة تناول طه حسين نماذجه الإنسانية في الأيام، وكأنه يثأر لنفسه من واقعه وبيئته التي وقفت منه موقفاً، صوّره هو في سيرته على أنه خصام متعمد وصارم في الوقت نفسه. فكان (يحس إحساساً عميقاً بظلم هذه البيئة وعنفها وتعنتها، حرك هذا الإحساس المرير ما كان متوارياً في نفسه من ذكريات بيئته الماضية، ويدعوه إلى استرجاع تلك الذكريات المريرة، فيستدعي منها كل ما كان يغذي في نفسه عاطفة الألم والمرارة والسخط وسوء الظن..

١- راجع الاتجاه الإسلامي في أدب طه حسين، ص٣١٤، د/ رمضان الجازية، طبعة أولى - ١٩٩٥ - رسالة دكتوراه مسحوبة على آلة الحاسوب.

ليتخفف من أثقال تلك الأزمة التي تمثل الموقف الإيجابي العنيف في صراعه مع بيئته بعد رجوعه من فرنسا، وهو موقف يناجز فيه مناجزة حادة ثائرة طبعت إحساسه في تلك الفترة بالحسرة والألم، وتولّد عنها سخط على هذه البيئة وسخرية منها، كما تولد عنها استعلاء منه والإدلال عليها، وقد غلبت هذه السمات كلها على نظرته التي نظر بها إلى ذكريات طفولته وصباه وصدر شبابه التي عاشها في القرية وفي الأزهر (١)..

بهذه النظرة الساخطة المستغرقة لنفس الأديب طه حسين كتب الأيام، تلك التي جاءت نماذجها لا سيما المرتبطة بالإسلام، مثل سيدنا وشيخ الأزهر صورة طافحة بهذا السخط والسخرية، فقد صبّ جام غضبه في إطار هذه الأنماط التي زخرت بها روايته الذين يرفلون في عالم مليء بالجهل والكذب والخداع، صوّرهم يخفقون دائماً بسبب ما بهم من عجز طبعي، أو بسبب قصورهم عن إدراك طبيعة الوصول إلى آخر الطريق (ما وصل إليه هو)، لذا سقطوا جميعاً (في نظره) متعثرين في الطريق، ولم يبلغوا النجاح كما بلغ، ولذا فهو يتعالى عليهم، لأنه وحده هو الذي استطاع أن يتخطى العقبات ويتغلب على العوائق، فانتصر وحظي ببلوغ الغاية من دونهم جميعاً، وكان اهتمامه بتصوير هذه الشخصيات عاملاً من عوامل تخفي شخصه وذاته أيضاً، إذ حالت بينها وبين الظهور المستمر (٢).

١- الترجمة الذاتية في الأدب العربي، ص٣٩٤ وما بعدها بتصرف، د/يحيى إبراهيم عبد الدايم - دار النهضة العربية - د ت - بيروت.

٢ - المرجع نفسه ص٣٩٤، بتصرف.

وعلى الرغم من هذا النجاح الذي حققه لم ينس الفشل القديم الذي مني به داخل أروقة الأزهر، فعاش يحقد عليه حقداً بلا نهاية.. فلم يعوضه النجاح، وأنه أصبح ملء الدنيا بأسرها ما ناله على يد الأزهر.

وها هو في هذه المواقف التي أفرزتها موهبته يتهكم من الشيخ كونه «يعتمد في طريقه إلى الكُتَّاب وإلى البيت على اثنين من تلاميذه، يبسط ذراعيه على كتفيْ كل واحد منهما، ويمشي الثلاثة في الطريق هكذا! قد أخذوها على المارة، وحتى إنهم ليتنحون لهم عنها..»[1].

«وكان منظر سيدنا عجباً في طريقه إلى الكتاب وإلى البيت... كان ضخماً بادناً، وكانت دفيته تزيد في ضخامته، وكان كما قدمنا يبسط ذراعيه على كتفي رفيقيه. وكانوا ثلاثتهم يمشون، وإنهم ليضربون الأرض بأقدامهم ضرباً. وكان سيدنا يتخير من تلاميذه لهذه المهمة أنجبهم وأحسنهم صوتاً، ذلك أنه كان يحب الغناء، وكان يحب أن يعلم تلاميذه الغناء، وكان يتخير الطريق لهذا الدرس، فكان يغني، ويأخذ رفيقيه بمصاحبته حيناً والاستماع له حيناً آخر، أو يأخذ واحداً منهما بالغناء على أن يصاحبه هو والرفيق الآخر. وكان سيدنا لا يغني بصوته ولسانه وحدهما، وإنما يغني برأسه وبدنه أيضاً، فكان رأسه يهبط ويصعد، وكان رأسه يلتفت يميناً وشمالاً. وكان سيدنا يغني بيديه أيضاً، فكان يوقع الأنغام على صدر رفيقه بأصابعه.. وكان سيدنا يعجبه «الدور» أحياناً، ويرى أن المشي لا يلائمه، فيقف حتى يتمه، وأبدع من هذا كله أن سيدنا كان يرى صوته جميلاً، وما يظن صاحبنا أن الله خلق

١- رواية الأيام، ج١/٣١.

صوتاً أقبح من صوته، وما قرأ صاحبنا قول الله عز وجل: «إنَّ أَنكَرَ الأصواتِ لصوتُ الحميرِ» ، إلا ذكر سيدنا وهو يوقع أبياتاً من «البردة» في طريقه إلى الجامع منطلقاً لصلاة الظهر أو في طريقه إلى البيت منصرفاً من الكُتَّاب..) (١).

فسيدنا في نظر طه حسين بهذه الهيئة المنفرة التي تحجب احترام الناس عنه، وهو الفقيه الذي أُشرب حب القلوب من حوله، لم يكن إلا أرجوزاً مضحكاً، ومنفراً في الوقت نفسه، فهو لم يراع حق الطريق، ولم يلتزم بآداب السير التي أمر بها الإسلام. وكونه يظهر في صورة المهرج فيما لا يليق بالرسالة التي يحملها، وهي أمانة تعليم القرآن الكريم، وإذا كان المعلم الشيخ بهذه الصورة، فإن الناس ينصرفون عنها، ولا يثقون فيه وفي تعليمه لأبنائهم.. فهم يبغون منه أن يحفظهم القرآن، لا أن يعلمهم الغناء وما أشبهه في حركات سمجة.. فلم نعهد شيخاً بهذه الصورة المهزوزة في الوقت نفسه!! وإلى جانب هذا كله يهمل الصبي ولا يرعاه في الكُتَّاب لكون أبيه لم يدفع له مكافأة تحفيظه إياه القرآن الكريم، فهو خان الأمانة التي أوكلت إليه. وعندما يُمْتَحن صاحبنا في حفظ القرآن ويبدو أنه لم يكن حافظاً، فإنه يُقسم أنه لم ينس القرآن، ولكنه كان خجلاً ليس غير».

«قال للشيخ: زعمت أن ابنك قد نسي القرآن، ولمتني في ذلك لوماً شديداً، وأقسمت لك أنه لم ينس وإنما خجل، فكذَّبتني، وعبثت بلحيتي هذه، وقد جئت اليوم لتمتحن ابنك أمامي، وأنا أقسم: لئن ظهر أنه لا

١- رواية الأيام ج١/ ٣١، ٣٢، ٣٣.

يحفظ القرآن لأحلقن لحيتي هذه، وأصبحن معرة الفقهاء في هذا البلد، قال الشيخ: «هون عليك! وما لك لا تقول: إنه نسي القرآن، ثم أقرأته إياه مرة أخرى! «قال: أقسم بالله ثلاثاً ما نسيه ولا أقرأته، وإنما استمعت له القرآن فتلاه عليّ كالماء الجاري، لم يقف ولم يتردد».

«وكان صاحبنا يسمع هذا الحوار، وكان مقتنعاً أن أباه محق، وأن سيدنا كاذب، ولكنه لم يقل شيئاً، ولبث منتظراً الامتحان..» [1].

فلم يعثر طه حسين بنقيصة إلا ورمى بها الشيخ، وكأنهما عقدا معاً عهداً على أن يقرئه الشيخ القرآن، ويرميه الصبي بالنقائص جزاءً وفاقاً!!.. وكأن الشيخ الذي يحفظ القرآن لا يعيه! ألم يقرأ قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾ [2]. واليمين الغموس هي اليمين الكاذبة التي يوقن صاحبها أنه كاذب، ليس لها جزاء إلا الغمس في النار يوم القيامة، فكيف بالشيخ الحافظ للقرآن الكريم، والمفترض فيه علمه بأحكام مثل هذه الأمور الظاهرة من الفقه وأمور الدين، فإذا كان الناس منهيين عن الحلف فيما يفيد ولا يفيد ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾﴾[3]. فما بال الخاصة ممن هم على علم بهذه المنهيات ومواطنها كسيدنا الشيخ،! إنها أحقاد طه حسين!!.

وأيضاً على لسان العريف: أَثِرٌ غشَّاش كذَّاب يخفي عليه بعض موارد الكتَّاب ويستأثر بخير ما يحمل الصبيان معهم من طعام ويزدرده لأنه

١- رواية الأيام، ١/٤٣ - ٤٤.

٢- سورة البقرة، الآية - ٢٢٤.

٣- سورة القلم، الآية ١٠.

كان ضريراً يتكلف الإبصار، وكان قبيح الصوت يتكلف حسن الصوت..[١].

فالشيخ لا يحترم العهد ولا يصون حق العريف، وكأنه آكل للحقوق، لا يحترم كلمته، فضلاً عن كذبه وغشه وعماه، وقبح صوته الذي ما فتئ يرميه بهما من آن لآخر، وكأنه يثأر لنفسه من هذا الشيخ الذي علّمه ما لم يكن يستطيع أن يتعلمه.

وعندما خان الصبي العهد الذي تعاهد عليه مع سيدنا، في كونه يراجع على العريف في كل يوم من أيام الأسبوع الستة، خمسة أجزاء من القرآن الكريم، حتى يتفق له حفظ القرآن بتمامه كل أسبوع فأهمل الصبي الحفظ والمراجعة باتفاق مع العريف، حتى إن أبَ الصبي راح يختبره في القرآن فلم يجده حافظاً له، وللحقيقة لم يكن الشيخ مهملاً إياه، بل كان يسأله كل يوم عما قرأ، فكان الصبي يخبره بما يفيد أنه قرأ من البقرة إلى «لتجدن» في يوم السبت، ومن لتجدن إلى «وما أبرئ نفسي» في يوم الأحد، وهكذا الأيام الباقية من الأسبوع كل يوم فيما يخصه من الأجزاء المتبقية.. وعندما عاد الصبي في يوم من الأيام عارياً من نعليه، فسأله والده عنهما، أخبره كاذباً أنه نسيهما في الكتّاب بينما هما قد سُرقتا منه وهو يلهو، فسأله عن حفظ القرآن، فلم يجده حافظاً منه شيئاً: فاشتد غضب الشيخ على سيدنا لاعلى الصبي، فهو يذهب إلى الكتاب لا ليقرأ وليحفظ، ولا لتُعْنى أو تلتفت إليه، وإنما هو لعب وعبث! ولقد عاد اليوم حافياً وزعم أنه نسي نعليه في الكتاب.. وما أظن عنايتك بحفظه للقرآن، إلا كعنايتك بمشيه حافياً أو ناعلاً.

١- رواية الأيام ١/٤٩.

قال سيدنا: أقسم بالله ثلاثاً ما أهملته يوماً، ولولا أني خرجت اليوم من الكتاب قبل انصراف الصبيان لما رجع حافياً، وإنه ليقرأ عليَّ القرآن مرة في كل أسبوع ستة أجزاء في كل يوم، أسمعها منه متى وصلت في الصباح، قال الشيخ: لا أصدق من هذا شيئاً، قال سيدنا: امرأتي طالق ثلاثاً ما كذبتك قط، وما أنا بكاذب الآن، وإني لأسمع له القرآن، مرة في كل أسبوع، قال الشيخ: لا أصدق) [١].

.. وظل صاحبنا في مكانه لا يفكر في القرآن ولا فيما كان، وإنما يفكر في مقدرة سيدنا على الكذب، وفي هذا الطلاق المثلث الذي ألقاه كما يلقي سيجارته متى فرغ من تدخينها!» [٢].

فطه حسين يكذب، ويلح على أن سيدنا كاذب كذلك، ويوثّق كذبه بالأيمان المغلّظة، العريف كاذب ومدلس، لأنه يمالئ الصبي في تهربه من الحفظ، فهل يريد إخبارنا بأن كذبه هذا تعلمه من سيدنا ومن العريف، وأنه بذلك يهين سيدنا وعريفه، ويعلن أنه لم يتعلم منهما سوى الكذب؟ فهو لم يكتف بتلطيخ سيرتهما عند القارئ، وإنما ألقى باللائمة أيضاً عليهما حيث إنهما أشاعا الكذب في المتعلمين أيضاً..

ثم ينعته بالجهل خلافاً لما اتّهمه به في المقطع السابق من الكذب، واستحلاله الحرام وحلفه بالطلاق الثلاث، علماً بأن الإسلام ينهى عن الحلف به «فمن كان حالفاً فلْيحلفْ بالله أو ليصمُت[٣]» فلا يعظم

١ - الأيام، ١/٦١.

٢- الأيام، ١/٦٢.

٣ - صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الإيمان - باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى - المجلد الرابع ص: ١٨٦، رقم الحديث (٢-٣).

المسلم فرج المرأة فيحلف بالطلاق، إلا في ضروراته التي جُعل لها. فالله (عز وجل) وإن استحله إلا أنه بغّضه، فالحلف بالطلاق سفاهة من الشيخ. ثم ينعته بالجهل «فيسأله الصبي ذات مرة، عن معنى قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ (١) فيجيبه هادئاً مطمئناً: خلقكم كالثيران لا تعقلون شيئاً (٢) وهو إزاء هذا الجهل، يشعر بالغيرة ويثور في نفسه الحنق المرير والحزن العميق، من مفتش الزراعية الذي كان على علم ودراية تامة بأصول التجويد والقراءات القرآنية، مما جعل الصبي يتباهى على الصبية أمثاله وعلى سيدنا نفسه مما كان يخرجه عن طوره(٣).

لذا أخذ يطلق الصبي لسانه في سيدنا دون هوادة، وكذا في العريف الذي لم يكن يختلف عن سيدنا في جميع صفاته، حتى إنه لا يلبث أن يتجرأ ويواجه سيدنا عند عودته حين انتهى من السنة الأولى بالأزهر، فلا يجد حرجاً في أن يقول لسيدنا: هذا كلام فارغ، حين سمعه يتحدث إلى أمه ببعض أحاديثه في العلم والدين وتمجيده لحفظة القرآن» (٤)، بل ويتعالى على سيدنا حينما أخذ في حفظ الألفية - ألفية ابن مالك لأن سيدنا لم يحفظ منها حرفاً، وأنه ابتهج بها ابتهاجاً لم يشعر بشيء مثله أمام أي سورة من سور القرآن الكريم، وأن نسختها الضئيلة القذرة سيئة الجلد، لكنها على ضآلتها وقذارتها، كانت تعدل خمسين مصحفاً من هذه التي كان يحملها أترابه(٥).

---

١ - سورة نوح الآية: ١٤- والآية كتبت في الرواية (وخلقكم أطواراً) هكذا خطأ!!.
٢ - الأيام: ٨٧/١.
٣ - الأيام: ١١٥/١.
٤ - الأيام: ١١٢/٢.
٥ - الأيام :/١- ٧١ - ٧٢.

وهكذا نلمح مروقاً واستهانة بالدين والقرآن لحق بالصبي مبكراً في سنواته الأولى، فهو على ما يبدو عنه لديه استعداد للتنكر للدين، مما هيأه فيما بعد لاتهامات كتبها عنه أنور الجندي[١].

وموقفه من عامة الشخصيات التي تنتمي أو ترتبط في وجودها أو نشاطها الحيوي بالدين لا يختلف كثيراً عن موقفه الماثل أمامنا من شخصية «سيدنا» التي لم يضع لها اسماً محدداً، وكأنه أراد لها الاتساع والانتشار لتكون رمزاً لكل من يقوم بهذه المهمة العظيمة في سبيل إثراء حياتنا بالعلم الديني، وأهم أسسه حفظ القرآن الكريم.. فهؤلاء جميعاً الذين كانوا يسمون بالعلماء في قريته - التي لم يضع لها اسماً كذلك - «كان صبينا يختلف بين هؤلاء العلماء جميعاً ويأخذ عنهم جميعاً، حتى اجتمع له من ذلك مقدار من العلم ضخم مختلف مضطرب متناقض، ما أحسب إلا أنه عمل عملاً غير قليل في تكوين عقله الذي لم يخل من اضطراب واختلاف وتناقض) [٢].

وخلال هذه الرحلة مع شخصية سيدنا التي تمثل زاوية من زوايا البناء الفني في ملحمة الأيام - إن جاز التعبير - يبحر بنا الكاتب عبر دهاليز عالمه الغريب والذي لم يضع له حدوداً مكانية أو زمانية، والرواية سيرة ذاتية، لا بد أن تشتمل على حقائق معيشة في حين معين، وكذا أماكن معينة وأشخاص كذلك معينين، إلا أن الكاتب وربما لرؤية يراها، قدَّم لنا هذه الشخصيات وهي تعاني هذا الخلل النفسي مما

١ - راجع مؤلفات في الميزان، حيث يناقش الكاتب أعماله الأدبية التي طفحت بما يؤكد هذه الاتهامات، إصدارات وزارة الأوقاف - أبو ظبي.
٢ - الأيام، ١/٨٧.

يتيح للكاتب أن يصب جام سخطه وسخريته على هذه الشخصيات، ويتيح له مساحة ليست بالضيقة لينفث إلى جانب سخطه وسخريته فحيحاً من التعالي والزهو الممقوتين، وكلاهما قلّل من فرصة الصراحة والتجرد والصدق في تصوير هذا العالم بشخوصه المختلفة، والتي عانت كثيراً من افتئاته وتحيزه، وبذلك ضحى الكاتب بأهم أساس إبداعي يسهم في بناء الرواية، وهو الصدق والموقف الحيادي الذي يعد شرطاً من شروط نجاح السيرة الذاتية في الوقت نفسه.

ولعل تنكيره لأسماء الشخصيات والأماكن وإغفاله التواريخ - فالتنكير كان هو الطابع الذي غلبت على الرواية - (أتاح له كذلك المجال ليقضي بكل ما تحمله نفسه من السخط والسخرية دون حرج ولا تحفُّظ. لا سيما والأيام كُتبت في عهد لا يفصله عن الزمن والشخوص الذين ازدحمت بهم روايته فاصل بعيد. فالعمد إلى التنكير هو الوسيلة التي تعفيه من المواجهة الإيجابية، والتعرض للمؤاخذة، والوقوع في حرب مع أولئك الذين ما زالوا يتنسمون نسمات الحياة. فهو في حالة سخط ممض، ولا يريحه إلا أن يزيح عن نفسه ما يثقلها من كلام وجروح.. وفي مثل هذه الحالة النفسية الثائرة يكون التنكير أكثر ملاءمة للإفضاء بما يعتمل في أطواء نفسه من سخط وتمرد ونقد واحتجاج) [1]. هذا إلى جانب الانعكاس (انعكاس الحاضر على الماضي) الملموس في روايته. إذ إنه اتخذ موقفاً أملاه عليه حاضره الذي اتصل فيه بالغرب فرفض كل ما عايشه..

١- الترجمة الذاتية في الأدب العربي، ص: ٤١٦، ٤١٧ بتصرف.

تلك كانت أهم الشخصيات (الصوفي - المأذون - الإمام - الواعظ - الداعية - المعلم - شيخ الكتاب). التي ترمز أو تمثل الشخصية الإسلامية فيما ترمز إليه من القيم والمبادئ السامية، والفضائل الإنسانية التي تقترب بالشخصية من دائرة النور، أو الخلاص في عالم الأحياء، إلا أنها واجهت بعضاً من الانحرافات المصطنعة بفعل مبدعيها الذين ينشدون من خلال هذا التصوير محاولات بعث أفكار أو أيديولوجيات تقف من الإسلام موقفاً عدائياً، وإن كان بعض الروائيين الذين لم تتح لهم فرصة الذيوع الإعلامي، والنقدي على الساحة الإبداعية، قدموا لنا نماذج فريدة، نابعة من الرؤية أو التصوير الإسلامي مثل (نجيب الكيلاني) لبعض من الشخوص الذين يرتبطون في هذه الوظائف بالدين الإسلامي، فكانوا نماذج رائدة، إلا أنهم يحتاجون منا إلى نشاط ووعي أكبر، بمهمة متابعة أعمالهم ما سنحت الظروف وأتيحت المنابر الثقافية.

الشخصية الإسلامية في الرواية التاريخية:

عرفنا - فيما سبق - أن التاريخ يحدّ من مصادر إبداع الشخصية ذات الثراء الفكري لما له من خاصية التجربة والمعاناة، وثراء النماذج القادرة التي تربعت في وجدان الأمة، واستطاعت أن تنصب رموزاً ومنارات يهتدي بها شباب الأمة، كلما نشطت ذاكرتهم من حيث كونه ذاكرة الأمة، (وبقدر ما تسلم هذه الذاكرة، وتُحسن الأمة التعامل معها، بقدر ما يمتد تأثيرها وتبرز قدراتها وتقوى شخصيتها) [١].

فالمسلم الحقيقي هو الذي يُولي «فن التاريخ وعلمه» أهمية قصوى في حياته، لا سيما إذا كان يمثل في ذاته «فوائد جمة» و«غاية شريفة» [٢] فضلاً عن كونه ذاكرة الأمة، ويمثل امتدادها العميق في الزمن، فيوقفنا على حياة الأمم وأخلاقهم، والأنبياء وسيرهم، فيقدم نماذج فذة يمكننا الاقتداء بهم في أحوال الدنيا والدين» [٣].. فإنه بهذا الحضور والثراء قادر على تقديم دور فاعل في تنمية المجتمع البشري الإسلامي، لا سيما في الزمن الذي يعز فيه وجود نموذج إسلامي، قادر على تخليص المجتمع أو الأمة، مما ألم بها من معوقات أو عقبات تَقْعُد بالأمة عن أداء دورها الفاعل في حياة الناس، فضلاً عن انطلاق عناصرها إلى الآفاق الرحبة في الجهات المختلفة التي يفتقد، أو لم نعثر فيها على هذا النموذج الإسلامي الحقيقي.. فالتاريخ بهذا المستوى القادر يصبح

١ - مقال بمجلة الأمة، عدد ٤٢ جمادى الآخرة ١٤٠٤هـ، المسلمون وضرورة الوعي بالتاريخ - عبد القادر عبار.

٢- ٣ : مقدمة ابن خلدون، ص ١٣ بتصرف، للعلامة عبد الرحمن بن محمد بن خلدون دار الجيل - د ت - بيروت.

«تجربة عطاء في شتى مجالات المعرفة والحركة الإنسانية.. وحصيلة سنن تحكم الطبيعة والإنسان والعالم.. حركة حياة نامية متطورة تتدفق من أعماق الوجدان البشري لتنساح - بعد هذا - على مساحات الزمان والمكان، ولتنشئ - من ثم - دولاً وأحداثاً وحضارات هي نتاج تفاعل خلاّق بين العقل والعاطفة، والمادة والروح، والوعي واللاوعي، والمباشر واللامباشر، والطبيعة والغيب، والتراب والحركة، والقَدَر والحرية..) (١).

وإذا كان المسلم في العصر الحديث، وعبر امتداده التاريخي على اختلال حِقبه السياسية، وحلقاته المتواترة قد فقد - بفعل الاحتكاك الحضاري حيناً، والتقاعس الحضاري، والتخلي عن مصادر القوة والثراء الفكري أحياناً- بعض مقومات شخصيته، وطفت على السطح شخصية تعاني الانفصام والتردي في هُوّة الاستلاب الحضاري والفكري مما جعله يجني، بل يحصد عوامل التخلف الفكري والحضاري التي لاذ بها وركن إليها فانطفأت سراج روحه، وتهدم من داخله، مما جعل المخلصين من أبناء الأمة، ممن أوتوا موهبة الإبداع أن يبحثوا، ويفتشوا عن نماذج تستطيع أن تواجه أو تقاوم من النماذج التي وثقت عراها بالسنن الكونية والأسباب الحضارية، كي يستطيعوا تقديم النموذج الإسلامي الفذ في بعديه العقدي والاجتماعي. فتبعث الشخصية الواعية الفاعلة المبدعة التي تتحرك بوعي على أرض الواقع. مما يجعل النظر في التاريخ، ومحاولة استلهام عناصره المشرقة أمراً حتمياً وضرورياً لاسبيل إلى تجاوزه الآن لفهم الأحداث وتطور المجتمع

---

١ - في النقد الإسلامي المعاصر، ص ١٢٣، ١١٨، د/ عماد الدين خليل - مؤسسة الرسالة ثالثة - ١٩٨٤ - بيروت.

الذي أصبح العالم فيه الآن، وكأنه قرية صغيرة تستطيع أن تتجول فيها في لحظات!!..

والقرآن الكريم يحفل بكثير من القصص التي لم تأت للتسلية أو الإمتاع والإيناس،بقدر ما هدفت إلى إثارة الفكر ودفعه إلى التساؤل الدائم والدائب عن الحق، وتقديم خلاصات التجارب البشرية عِبَراً يسير على هديها أولو الألباب، وإزاحة ستار الغفلة والنسيان في نفس الإنسان، وصقل ذاكرته وقدرته على المقاومة، لكي تظل في مقدمة قواه الفعالة التي هي بأمس الحاجة إلى تفجير طاقاتها دوماً.. فيجسد القرآن هذه الأحداث التاريخية في إطارها وزمانها ومكانها؛ لتأملها واعتماد مدلولاتها في أفعالنا الراهنة ونزوعنا المستقبلي) [1]. فترتفع بنا من حالة الرضا بالواقع على التمرد عليه والسموّ فوق ركامه، فننفك من قيود الأسر إلى آفاق الحرية الرحبة، من ثم يصبح الإنسان ذا قدرة على صنع تاريخه دون أن يتعارض مع إرادة الله عز وجل. فإذا كان ذلك فلا بد للإنسان أن يعي وهو يحيا الأحداث أن يشكل هذا التاريخ، ويصنعه على عينه،فإما أن يهبط إلى قاع الأرض،وإما أن ينهض ويسمو نحو آفاق السماء فيخلده التاريخ، ويحيا في ذاكرة الأمة، وتقتدي به نماذجها الإنسانية.

فالشخصية التاريخية في الروايات المصرية غالباً ما ترتبط في حضورها الروائي بالتاريخ الإسلامي، سواء أكان هذا العرض أو الإبداع لا يخرج عن كونه تعريفاً بالشخصية التاريخية في أسلوب أدبي جذاب،

١- التفسير الإسلامي للتاريخ، ص١٠٦، ٩٧، د/ عماد الدين خليل - دار العلم للملايين - ثانية - د ت - بيروت.

فيهيئ تناوله للعامة وشباب المراهقين من الناشئة للتسلية، أو الإمتاع فضلاً عن أغراض أخرى تتصل بفكر وعقيدة المبدع كما فعل الأديب المؤرخ جورجي زيدان[1] فيما أسماه «بروايات تاريخ الإسلام» [2] الذي بثّ خلالها سُمّه الزعاف.

فيما سيتضح لنا من خلال تحليل بعض شخوص رواياته هذه، وتابعه في هذا المنهج الإبداعي، وإن كان برؤية أو توجه مختلف، الأستاذ المبدع الروائي المرحوم: عبد الحميد جودة السحار «الذي نهج هذا المنهج التعليمي» من خلال إبداعاته، لاسيما ما يتصل منها بالسيرة النبوية أو

١- جورجي زيدان، ولد في بيروت في الرابع عشر من ديسمبر عام واحد وستين وثمانمائة وألف من الميلاد.
ألف مجموعة من الكتب في التاريخ منها: تاريخ مصر الحديث في جزأين، والتاريخ العام في بعض ممالك آسيا وإفريقيا، وتاريخ الماسونية التي يبدو أنه تورط في الانضمام إلى أعضاء محافلها، واعتنق شعائرها. وفي سبتمبر عام ١٨٩٢ أصدر جورجي زيدان العدد الأول من مجلة «الهلال» قام بتحريرها بنفسه إلى أن كبر ابنه أميل فساعده في تحريرها، ثم أخذ جورجي في إصدار مؤلفاته ورواياته التاريخية إلى أن توفي في الثاني والعشرين من شهر يوليو عام ١٩١٤م.
راجع: دراسة الأستاذ شوقي أبو خليل «جورجي زيدان في الميزان»، والأستاذ حسين الطماوي في دراسة عن جورجي زيدان، ضمن سلسلة نقاد الأدب.

٢ - إحدى وعشرون رواية أصدرها جورجي زيدان تحت هذا الشعار (روايات تاريخ الإسلام) ظهرت ما بين عامي ١٨٩١ وحتى ١٩١٤ وهي كالتالي:

١- المملوك الشارد
٢- أسير المتمهدي
٣- استبداد المماليك
٤- أرمانوسة المصرية
٥- فتاة غسان
٦- عذراء قريش
٧- ١٧ رمضان
٨- غادة كربلاء
٩- الحجاج بن يوسف
١٠- فتح الأندلس
١١- شارل وعبد الرحمن
١٢- أبو مسلم الخراساني
١٣- العباسة أخت الرشيد
١٤- الأمين والمأمون
١٥- عروس فرغانة
١٦- أحمد بن طولون
١٧- عبد الرحمن الناصر
١٨- الانقلاب العثماني
١٩- فتاة القيروان
٢٠- صلاح الدين ومكائد الحشاشين
٢١- شجرة الدر.

حياة الصحابة، كما عُرضَت بكتب السيرة والتاريخ الإسلامي مثل شخصية / رواية: أبو ذر الغفاري - عمر بن عبد العزيز وبلال مؤذن الرسول (ﷺ)، ومحمد رسول الله والذين معه، وأميرة قرطبة.. وغيرها، من الروايات التي عُنيت بهذا التقديم لهذه النماذج الفذة في التاريخ الإسلامي، فكان منهجهم (منهج التجميع) دون مقابلة الأحداث بعضها ببعض أو محاولة استغلالها، فكان التفسير واحداً دون محاولة فهم المعاصرة..) [١].

فهذا الاتجاه نحو التاريخ في الإبداع الأدبي لم يطمح أكثر من تقديم المادة / التاريخ ونقلها من عالم التاريخ إلى عالم الأدب أو الفن دون وعي أو فهم أو إدراك لمقتضيات العصر، أو الإيغال في دهاليز التاريخ، والتقاط ما يراه قادراً على تقديم شيء يتوازى مع العصر أو المستقبل. أي يختلف عن الأرضية التي اقتُطع منها، وإن كان جزءاً من تربتها.. فإن اعتماد النظرة الموضوعية الخارجية (المباشرة)، يؤدي بداهة إلى تعطيل عدد كبير من القوى الفعّالة في فهم التاريخ: كالفطرة والإدراك والانفعال والإيحاء الذاتي والإلهام والخيال.. ولماذا - كما يقول الناقد والمؤرخ الدكتور / عماد الدين خليل - نلجأ إلى فتح نافذة واحدة على التاريخ، إذا كان بإمكاننا فتح عدد كبير منها، يوسع مدى الرؤية، ويلقي مزيداً من الأضواء على الأحداث الداخلية التي يغطيها الظلام؟ [٢].

فهذا النهج يتجه فيه الروائي نحو التاريخ في إطار الحادث/ الماضي، وإن كان يحرص خلال هذه العملية الإبداعية على (المغزى

١- السحار مفكراً وأديباً وسينمائياً، ص١٣٢، عبد المنعم صبحي - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٧٥ - مصر.

٢- في النقد الإسلامي المعاصر، ص ١١٩.

الرئيس للأحداث دون أن يخضعه لإسقاطات معاصرة، أن يضفي عليه شكلاً قصصياً من الأشكال المعاصرة التي تحيل المادة التاريخية إلى عمل فني له خصوصيته وتأثيره.. إنه يحتفظ للنص بوجوده، فقط هو يصوغه صياغة أسلوبية! [١]. دون تعمق لفاعلية أو استلهام روح أحداثه،كي يسقطها على أحداث عصره أو شخوصه.. فالاستلهام، يتجاوز مقاييس العقل والمنطق المحدود، ويتخطى حدود التحليل الذي يصل إلى هدفه بطيئاً متردداً غير واثق من نتائجه، بينما تحقق الفطرة المدركة أهدافها بسرعة خارقة، بثقة أعمق ويقين أكثر، فضلاً عن أنها (تلقى أضواءها الخاطفة على مساحة أوسع في مجالات الرؤية الإنسانية إلى آفاق أبعد، وهذا يمثل ضرورة يصعب - بدونها - لمن يتعرض للتاريخ - على الذين لا يملكون الفطرة المدركة أن ينفذوا إلى أعماق التاريخ ويستبطنوا معناه، لأن التاريخ ليس حصيلة أحداث خارجية فحسب، بل هناك القوى الداخلية والطاقات الروحية التي تمثل دائماً العامل الأهم في رسم مجرى التاريخ وتحديد مصيره..) [٢].

وعلى الرغم من ذلك فإننا لا ننتظر من هذه المحاولات الأولية إلا أن تكون كذلك..

وهناك من مبدعي الرواية من خطا خطوة إبداعية في إطار المعالجة القصصية الفنية في إبداع الشخصية أو الحدث التاريخي، فيعرض لنموذجه التاريخي في إطار أو شكل فني كي يعالج من خلاله قضية ما

---

١ - الأدب الإسلامي والبحث عن خصوصية، مقال، مجلة الحرس الوطني، عدد ١٤٣، المحرم ١٤١٥هـ - د/ عبد الحميد إبراهيم.

٢ - في النقد الإسلامي المعاصر، ص ١٢٢، ١٢٣، بتصرف.

من قضايا عصره الذي يحيا، ويعيش معاناته ومشكلاته من خلال تقنية فنية (الإسقاط)، فيتخذ الروائي الشخصية التاريخية، ينطلق من خلال إحدى زواياها، أو لحظة من لحظات التاريخ الفاعلة، فيحاول تهيئتها على النمط الإبداعي الذي يمكنها من خلاله أن تحمل هموم الواقع المعيش، وتعبر عن آمال الأمة أو آلامها وطموحاتها، فيتعانق الفن والتاريخ، ويفرز نموذجاً مستقلاً وجديداً، فيفعل ويتفاعل مع الواقع من تلك الزاوية أو اللحظة الخاصة، لا نستطيع أن نفصلها عن مشاعر الفنان، ومواقفه الذاتية، وتجاربه وانتماءاته، فهو يفسر التاريخ، ويعلّق عليه، ويقابل بين أحداثه وأحداث الواقع، ومن خلال هذه المقابلة (العلاقة) تتضح معالم النموذج الجديد الذي صنعه الروائي في روايته، الذي يختلف عن النموذج المأخوذ عن التاريخ، وإن كان يتفق معه في شيء ما..

فالمبدع من خلال هذه التقنية لإبداع الشخصية المستلهمة من التاريخ في الإطار الفني الروائي يحاول أن يوجد علاقة بين الماضي والحاضر من خلال إسقاطات على الحاضر يوحي بها النص التاريخي، وهذا الاتجاه يعيد صياغة المادة التاريخية الخام، ينطلق منها كأساس، ثم يحيلها - خلال تشييد البناء - إلى شخصية جديدة تختلف عن الأصل ولا تقف على الماضي، تتجاوزه للتعليق على الحاضر، فيعرض التاريخ - خلال الرواية - (وهو يموج حركة وحيوية، كمسرحية حاضرة للعيان، تجعل من الحدث التاريخي - وكذا الشخصية - فعلاً مستمراً آخذاً شتى الاتجاهات والأبعاد وليس مجرد عالم مسطح، وتقضي على فكرة

الامتداد العمودي للأحداث، لكن تعطي للإنسان فرصة تدبرها أفقياً بكل عناصرها ومكوناتها، ولكن تتيح - في الوقت نفسه - للمبدع فرصة معايشة التاريخ، ومن ثم مدّ أبعاد الرؤية إلى كل جوانب الكينونة الإنسانية فعندما يعيش المبدع / المؤرخ أحداث التاريخ، وينفعل بها، فإن بإمكانه أن يقول لنا أشياء لا يستطيع أن يقولها الأكاديميون الذين تقتصر فاعليتهم على التنسيق والتفكير المجرد ...) [١].

ويمثل هذا المنهج من المبدعين المصريين، الأديب المرحوم الأستاذ علي أحمد باكثير في رواياته الإسلامية مثل رواية «سيرة شجاع، وا إسلاماه، الثائر الأحمر». والأديب المرحوم الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله في رائعته، الباحث عن الحقيقة. والأديب الطبيب المرحوم الأستاذ / نجيب الكيلاني في مجموعة من روائعه الأدبية التي استلهمت التاريخ: مواكب الأحرار، طلائع الفجر، ونور الله، اليوم الموعود، عمر يظهر في القدس، وقاتل حمزة، ورمضان حبيبي، وأرض الأنبياء، وغيرها من الروايات التي تناولت تاريخ مصر الإسلامية منذ حملات الصليبيين والاحتلال الانكليزي ومروراً بالأحداث العظام في مصر كثورة يوليو ١٩٥٢، وحتى حرب العاشر من رمضان في مصر الحديثة.. يعنى بموضوع الحرية والاستقلال وزرع الآمال في تربة خصبة ونقية في مصر والعالم الإسلامي من خلال رؤية إسلامية قادرة على زرع واحة خضراء متفجرة بالعيون والغدران وسط صحراء تلتهب، يتعانق خلالها الواقع الاجتماعي مع الواقع التاريخي دون إخلال

١- في النقد الإسلامي المعاصر، ص ١١٧/ سابق.

بالثوابت التاريخية، واختلاطه بإرهاصات المستقبل والآمال المنوطة به،ولا شك أن انطلاقة الشعوب وحركاتها التحريرية الكبرى، والتطورات الضخمة التي تواكبها، إنما تستمد تجاربها، وتمتص خبرتها وغذاءها الروحي لا من الحاضر فحسب، بل من دروس الأمس والصورة المرتقبة للغد المأمول[١].

وهناك منهج آخر، يحاول خلاله مبدعو الرواية في مصر خاصة [٢] البحث عن شكل مستمد من التراث يتمثل في الاعتماد على الرواية، وتعدد مستويات الحكي من نادرة، وعظة، وبيت من الشعر، وحكمة. فالرواية كما يقول الروائي إدوار الخراط (ألبوم) سجل الشكل الذي يحتوي على الشعر والموسيقى وعلى اللمحات التشكيلية..) [٣]، إذ يعتمد هذا الشكل الإبداعي القائم على إحياء منهج تحقيق المخطوطات العربية (استخدام الهوامش والأقواس والمقتطفات) وقد بدأ هذا النهج الروائي المصري، جمال الغيطاني في روايته «الزيني بركات» والتجليات.. وواكبه في هذه الطريقة، محمد جبريل، لاسيما في روايته أوراق أبي الطيب المتنبي، ثم أصبح حالة ذات جاذبية في الوسط الأدبي في العالم العربي، فاستخدمه كثير من الأدباء في العالم العربي. وقد

١- طلائع الفجر - المقدمة، ص ٤ - نجيب الكيلاني.

٢- وإن كانت لا تقتصر على الأدباء المصريين، فهناك في العالم العربي من نهج هذا النهج محمود السعدي في تونس، وإميل حبيبى في فلسطين ومحمد شكري في المغرب إلا أنها بدأت بالمصريين مثل جمال الغيطاني ومحمد جبريل ثم أبو المعاطي أبو النجا.. ممن تقوم تجاربهم على هذا الشكل الموروث (التراثي).. انظر مجلة الثقافة العربية، عدد ٨، السنة ٢- الجماهيرية الليبية العظمى - يوليو ١٩٩٥، حوار مع الروائي جمال الغيطاني.

٣ - نقلاً عن مجلة المسلم المعاصر، عدد ٥٣، ربيع أول ١٤٠٩ / محمد إقبال عروي.

(يتحول هذا الاتجاه إلى ظاهرة يُعَبَّر خلالها عن الواقع العربي الراهن، ويكشف عن خصوصية الحضارة العربية المعاصرة) [1]، كما يؤكد شخصية المبدع الروائي العربي الذي يلفظ العباءة الأوروبية التي أفرخت الأشكال الإبداعية الروائية التي نهجها كُتَّاب العربية في رحلة المخاض الإبداعي العربي، وحتى جيل الستينات. ولعل العدوان الثلاثي وهزيمة يونيو ١٩٦٧ كانتا سبباً في إلقاء هذه العباءة المستوردة، ومحاولة الأدباء التدثر بعباءة عربية خالصة...

وخلال الدراسة التحليلية التي سنقدمها في الصفحات الآتية ستتضح معالم كل منهج خلال رحلتنا مع نماذج الروايات التي سنختارها خلال تناولنا للشخصية الإسلامية في أعمالهم الإبداعية لدى كل كاتب على حِدَة داخل إطار منهجه الفني للإبداع..

١- الحرس الوطني، عدد ١٤٣، سابق.

أولاً: منهج جورجي زيدان في تناول الشخصيات الإسلامية.. (المنهج التعليمي):

خلال مطالعتنا لمجموعة «روايات تاريخ الإسلام» للكاتب النصراني «جورجي زيدان»، نجده ينظر إلى الشخصيات الإسلامية من زاوية مظلمة إلى الحد الذي تغيم فيه، وتغيب تماماً عن واقع الأحداث أو الحياة التاريخية،فتبدو هامشية في المجتمع.. لا يتيح لها فرصة واحدة تعبر فيها عن إنسانيتها، وتبرهن على وجودها، أو إسهامها في حركة الأحداث، فالاتجاه الغالب في روايات «جورجي زيدان» التشيع للمسيحيين وإغماط حق الإسلام والمسلمين، فهو دائماً يقدم شخصية مسيحية يجعلها فاعلة ومؤثرة في الأحداث مما يطفئ الشخصيات الإسلامية الأخرى، والمفروض أنها هي صانعة الأحداث في رواياته التي تتناول تاريخ الإسلام، وما ذاك إلا لأنه في حلقه غصة من انتصارات الإسلام على دولة الروم المسيحية ذات الأمجاد القديمة، فهو يستكثر أن تقوى شوكة المسلمين حتى تدمر هذه الدولة العظيمة في نظره، وتسيطر على أراضيها، إنها عداوة متمكنة فيه، جعلته لا يعطي الدولة الإسلامية حقها، وهي في أزهى عصورها وأعظم أمجادها، وذلك مثل شخصياته المسيحية المتعددة التي سنلتقط بعض صور لبعض نماذجها، تسفر في جلاء عن تعصبه هذا ضد الشخصية الإسلامية في رواياته:

ففي رواية «أرمانوسة المصرية» ، وهي التي تحكي تفاصيل فتح مصر بقيادة القائد المسلم «عمرو بن العاص» نراه يحتفي بشخصيتين مسيحيتين هما «أركاديوس» بن الأعرج القائد الروماني، وأرمانوسة ابنة

المقوقس والي مصر عندما فتحها المسلمون، فيخترع قصة حب تربط بين الحبيبين، وينسج خلالهما الأحداث، فكل ما يجري في الرواية يجري من خلالهما، وكأنهما المنبع الذي تتدفق منه الأحداث، فنراه يحتفي بهاتين الشخصيتين بالغاً، ينتزع إعجاب القارئ بهما: فأركاديوس البطل المسيحي الذي يهبّ للنجدة، ولا يرهب الظلام، فيمخر عبابه غير هيّاب لما قد يقع له فيه. فعندما يسمع صوت الفتاة مارية التي اختطفها ابن حاكم القرية التي تسكنها قرب بلبيس، تستنجد به «فأرسل نظرة إلى صاحب ذلك الصوت، فرأى ثلاثة أشباح وقوفاً تحت شجرة، ولكنه لم يميز أحداً منهم لشدة الظلام، فأغار عليهم بجواده، وناداهم بصوت كأنه الرعد القاصف، من هم اللصوص؟.. اتركوا الفتاة وإلا أذقتكم المنون بحد هذا السيف، وجرد حسامه، وكان بينه وبينهم نحو عشرين ذراعاً، فلاذوا بالفرار، فتبعهم.. فسار كل منهم إلى ناحية واختفوا بين الأشجار، فخاف أن يبعد عن الصوت، فيخطئ مكان الفتاة فعاد إلى الشجرة التي شاهد الأشباح تحتها، فرأى شبحاً يترامى عند أقدام جواده وهو يقول: حماك الله يا فارسُ، وأنقذك من غوائل الزمان، فقد أنقذتني من مخالب الموت والعار.. فأمسك الفتاة من يدها وخاطبها باللغة القبطية قائلاً: لا تخافي يا فتاة، إنك في مأمن من غوائل الأشرار.. لا تخافي يا فتاة.. قولي من أنت؟».

قالت: إني فتاة مسكينة، اختطفني بعض أولاد الحرام يريدون بي سوءاً، فجزاك الله خيراً على إنقاذي، ولكن احذر أن يغدروا بك وأنت واقف هنا، فإنهم لا يخافون الله، وكأني أرى واحداً منهم تحت تلك الشجرة..

وما أتمت كلامها، حتى شعر إركاديوس بنبلة صدمت فخذه ولكنها لم تصبه.. فتحول عن الفتاة وأسرع نحو الجهة التي جاءت منها النبلة، وصاح، «ويلك يا خائن.. إني والله قاتلك لا محالة، ولا أبالي إذا كنتم مئات أو ألوفاً» وكان الحسام لا يزال مجرداً فوثب كأنه الليث الكاسر خلف الرجل الذي أراد الفرار منه، ولكنه أدركه بضربة جندلته على الأرض وهو يصيح: أخ، لقد قتلتني» [1]. بينما فر الآخرون، وأخذ يهدّئ من روع الفتاة، ويسألها عن أهلها ومكانها، ثم بعد ذلك أركبها الفرس وراءه بعد استئذانها في ذلك قاصداً مكانها حتى سلمها لابن عمها مرقس الذي بهره صنيع هذا البطل الذي تنكر لنفسه أمامهم تواضعاً وشهامة - (قالت مارية: إنه شهم كريم.. أنقذني من مخالب الموت)[2]. فعده مرقس فضلاً عظيماً لا يعرف كيف يكافئه عليه؟!.

فالكاتب هنا يضع هذه الشخصية في المقدمة من شخصيات الرواية أجمع، ويسمها بالبطولة والإقدام والشهامة، وفي الوقت نفسه شجاعة بغير غرور، إنما شجاعة تنطلق من تواضع وحميمية في حب الخير وإسعاد البشر ومحاولة دفع الشر عنهم، وما ذلك إلا لكونه مسيحياً رومياً فحسب..

وعندما يلتقي بحبيبته أرمانوسة ويجددان العهد على الحب والانتظار، تطلب منه محبوبته أن يرحلا عن هذه البلاد، ويبتعدا عن الحروب حيث الصفاء والسعادة، بعيداً عن المخاطر والقلاقل، فيباغتها

١- أرمانوسة المصرية، ص ٢٠٥ - ٢٠٦، جورجي زيدان، دار الهلال ١٩٨٣ - مصر.

٢- الرواية، ص ٢٠٩ .

بقوله ويده على حسامه: أتريدين أن يفر أركاديوس من وجه العدو.. وهل ترضين به جباناً يخاف الموت؟ فما معنى تقلدي هذا الحسام إذن؟».

قالت: «لا، وحبك.. لا أحب الجبان، ولا أرضى أن يكون حبيبي إركاديوس جباناً، ولكن قلبي لا يطاوعني على أن أرى أو أسمع أن الناس يرمون النبال عليك».

فقال: دعيني إذن أخوض المعامع، فإذا حييت بعدها كنت أهلاً لرضاك.. فلا تندمين على استبدال الـ قسطنطين بي» [١].

فالكاتب يغالي في شجاعة أركاديوس حتى إن أرمانوسة تلك المخلوقة الضعيفة، لا ترضى منه الجبن، وإن كانت شجاعته هذه تؤخر لقاءها به كثيراً، إلا أنها لفرط انبهارها بهذا البطل ففي حبه يهون كل شيء.

وأثناء العودة من لقائه بأرمانوسة يُقبض عليه ويُساق إلى معسكر المسلمين بعد ما أظهر أركاديوس لمن قبضوا عليه شجاعة نادرة انتزعت إعجابهم به فلم يقتلوه، وإنما ساقوه أسيراً إلى الأمير، فوقف بين يديه موثقاً وتقدم إليه وردان وسأله بلسان الروم قائلاً: ألعلك من جند الروم، أم أنت من رجال المقوقس؟.).

قال: بل أنا من جنود الروم، وكلنا جند واحد سواء من الروم أو الأقباط.

فقال له مترجم كلام عمرو: «وما الذي جاء بك إلى هذا المكان».

قال: خرجت من المدينة في حاجة فظفر بي رجالكم منفرداً فأمسكوني، وليست هذه عادة الأبطال، ونحن نسمع أن العرب لا يغدرون..».

---

١ - الرواية، ص ٢٢٦.

قال: «نعم.. إن العرب أصدق الناس عهوداً وأحفظهم لمقام الرجال، ولكن حال الحرب تقضي بالقبض عليك.. فأخبرنا بما عليه جندكم ولا تخف شيئاً، فإنك أسير بين أيدينا ولا ينقذك إلا الصدق».

قال: «ونحن لا نعرف غير الصدق شعاراً، ولولا ذلك ما امتدت سطوتنا على الخافقين، ولست أخشى الموت إذا هددتموني به، أما جندنا فكلهم أبطال لا يهابون الموت ولا يخافون العدو».

فقال عمرو لوردان: «دعه يجلس...».

فأذن له بالجلوس...

فقال: «لا حاجة بي إلى الجلوس.. وما نحن ممن يملّ الوقوف.. قل ما بدا لك..».

فعجب عمرو لرباطة جأشه وما يتجلى في وجهه من الشجاعة وما ينبعث من حدقتيه من الذكاء، فقال له: «ألعلك من أفراد الجند أو أنت من كبارهم؟.

قال:بل أنا من أفراد الجند.. وأما قوادنا فستلقونهم في ساحة الحرب فازداد عمرو إعجاباً بشجاعته وأحبه لأنه كان محباً للشجعان..

أما جلساء عمرو فاستنكفوا من جرأته، فقالوا لعمرو: «ألا أمرت بقتل هذا الوقح، فإنه تجاوز حدود الحشمة في جوابه؟!..

فأسكتهم عمرو، وقال لأركاديوس: «إني معجب بشجاعتك، ولم ألق بين جند الروم مثل هذه الجرأة.. ولذلك فإني أبقي عليك بشرط أن تخلص لنا الخدمة وتكون واحداً منا...».

فقال أركاديوس: «أما ما ترجوه من خيانتي لدولتي فبعيد المنال.. وتعجيلك بقتلي أجمل بك وبي..»[١].

فالكاتب مازال يلح على البطولة المسيحية، وأن أركاديوس بطل لا يبارى، ولولا كثرة العرب عليه لما أسروه، فهما اثنان وهو واحد، وبهرتهم شجاعته، وحتى عندما يمثُل أمام أميرهم عمرو، لم يخف ولم يهب منظره، ولم يستكن لكونه سقط بين أعدائه، فهو ما يزال غير آبهٍ بما حاق به، أو خائف مما قد يفعله به هذا الأمير، بل إنه ينعى عليهم أنه لولا أنهم غالوه وهو بمفرده لما تمكنوا منه، وأن أخلاق الحرب تأبى ذلك عليهم، فإنه من طرف خفي يغمز بالمسلمين وبأخلاقياتهم في الحرب الذي شهد بها العدو قبل الصديق في تاريخ العسكرية الإسلامية.

إلا أن تعصب زيدان وتحامله على الشخصية الإسلامية حملاه على هذا الجور والتخبط اللذين أورثاه هذا التصور الإبداعي والفكري لهذه الشخصية، حتى إنه يُرجعِ انتصار المسلمين وفتحهم لمصر، بأنه لم يكن إلا غفلة من أركاديوس الذي كان آنذاك خارج الحصن للقاء أرمانوسة، ولولا ذلك ما أمكنهم تسلق أسوار الحصن وفتح مغاليق البلاد[٢]، والذي جلس بعد، يتجرع المرارة وكأنه هو الذي أسلم الحصن للعرب لتخليه عنه، هذا فوق ما عزاه جورجي زيدان في روايته إلى كون تمكن المسلمين من فتح مصر كان باتفاق مع المقوقس الذي أسلمهم البلاد تخلصاً من صلف الرومان آنذاك.

١ - الرواية، ص ٢٣٠ وما بعدها.

٢- راجع الرواية، ص ٣٠٠ وما بعدها.

والعجيب أن عمرو بن العاص أعجب بشجاعته إلى الدرجة التي يريد منها أن يضمه إلى صفوف جنده كأنه لا يجد بين المسلمين فارساً شجاعاً يضاهيه في شجاعته، على الرغم مما لمسه في كلامه من تحامل على المسلمين وعداوة لهم فهذا ما لم يحدث مطلقاً في الحروب الإسلامية.. وذلك لأن جورجي زيدان يريد أن تتوارى الشخصية الإسلامية بكل فضائلها وأمجادها خلف هذا الجلف المتغطرس الذي اخترعه جورجي زيدان اختراعاً؟!!.

كل هذه المغالطات التاريخية، والتحامل على الشخصية الإسلامية في الرواية، لم يكن لشيء إلا لسلب العرب والمسلمين أيَّ مقوم من مقومات البطولة، وأن انتصاراتهم وفتحهم للبلاد لم يكن إلا بالتواطؤ مع أهلها، أو العشق بين إحدى نساء هذه البلاد وأحد الأبطال من الجيش الذي يقاتل العرب.

ومن ثم يُعَرِّض جورجي زيدان بقيمة الفتح الإسلامي، وكون الظفر الإسلامي بهذه البلاد لم يحدث إلا عن طريق المؤامرات كما حدث في أرمانوسة المصرية، وفتح الأندلس حيث تآمر الفونس ابن غيطشة ملك الأسبان واليهود المتمثلون في شخصية «الخادم يعقوب» ضد الملك القوطى رودريك، فهيأ ذلك للعرب بقيادة طارق بن زياد فتح بلاد الأندلس ولقاء كل من الحبيبين (فلورندا وألفونس) ويتحقق أملهما في الزواج، وكأنه لم يجعل زيدان غاية الفتح الإسلامي إلا لقاء المحبين!!..

فإصرار زيدان وتعصبه ضد الحقائق التاريخية الناصعة، لا سيما وهو الذي اختار في رواياته أنصع وأزهى فترات الحياة الإسلامية،

فتشويهه لشخصياتها،أمر يدعو للدهشة (فهذا الاستبداد بالشخصيات بعيد عن روح الفن السمحة (والالتزام التاريخي) الذي تفرض إفساح المجال أمام الشخصيات، لتدلل على حياتها الإنسانية الطبيعية)(١).

بما يقتضيه وعيه الإبداعي، لتتعاون مع مفردات القصص الأخرى على إبراز الفكرة التاريخية التي يعنى بها في عمله الروائي، لا سيما إذا كانت الشخصية الروائية واقعية كانت أو تاريخية أو خيالية ليست النموذج الإنساني الذي يسعى في الحياة، أو قامت بأحداث تاريخية عظيمة سطرتها كتب التاريخ، (وإنما هي خلق جديد يضيف إليه الفنان من ذاته، ورؤيته له ما يبرر مواقفه وسلوكياته في شكل إبداعي يستطيع أن يتيح لنا التعرف على أنفسنا من خلاله، وفي الوقت نفسه تنبئ عن وعي المبدع بإيقاع العصر ونبضه، أو ما ندعوه بـ «الوعي التاريخي») (٢).

فرؤية المبدع زيدان للتاريخ الإسلامي ووعيه بإيقاعه عنصران يحددان طريقة تصويره للشخصيات وموقفه منها. وهذا ما استنبطته من خلال مطالعتي لأعماله الإبداعية لا سيما «روايات تاريخ الإسلام» وبعض القراءات النقدية لأعماله لبلورة رؤيته للتاريخ الإسلامي وشخوصه، ومدى تأثر البناء الفني لرواياته بهذه الرؤية.. من تلك الآراء الناقدة والمنصفة والتي عَرَّت زيفه، وفضحت هواجسه، وكشفت - في سفور فاضح - عن مراوغاته في عرض الأحداث التاريخية، لا سيما ما يتصل بالبطولات الإسلامية، لأن المادة التاريخية التي يعتمد عليها

١- القصة في الأدب العربي الحديث، ١٨٧٠ : ١٩١٤، ص ١٧٦، بتصرف، د/ محمد يوسف نجم. المكتبة الأهلية - ثانية - ١٩٦٢- بيروت.

٢- الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث، ص ٤٠ / سابق.

زيدان كانت تتصل اتصالاً مباشراً بالتاريخ الإسلامي الذي يتمتع بقدر عال من الاحترام والتقديس في نفوس الأمة الإسلامية ووجدانها، فلعل العامل الديني للمبدع زيدان هو الذي أيقظ مشاعر النقاد، وشد أنظارهم، قبل رواياته فهو نصراني، ويكتب عن تاريخ الإسلام ورجالاته - لا سيما ما يتصل بالشخصية الإسلامية التاريخية، وما يثار حولها من قضايا تتصل بالسلوك أو الحدث أو العقيدة أو الموضوع (المضمون الفكري للرواية)، فقد تحَفَّظ كثير من النقاد في قبول منهجه في إبداع رواياته تحت هذا المسمى «روايات تاريخ الإسلام» [1].

ومن ثم ندرك مدى افتئات «جورجي زيدان» على تاريخ الإسلام وأحداثه حين يدعو رواية من رواياته - وهكذا أكثر رواياته إن لم تكن كلها - بأنها تحكي تاريخ الإسلام في ولاية من ولايات الإسلام آنذاك، وليس لها من هذا التاريخ وجلاله إلا هذا الادعاء الاسمي، فإنها تتناول حياة امرأة نصرانية، وعلاقاتها الغرامية مع أحد بني جلدتها ودينها كما رأينا، فأين الإسلام وتاريخه وأبطاله في هذا الموضوع، حتى يعنون زيدان به هذه الرواية؟ أليس هذا الأمر مثيراً للتساؤل والدهشة؟!!.

أما الشخصيات الإسلامية التي قدمها زيدان في روايته فهي شخصية بارزة في تاريخ الأمة الإسلامية، لما لها من مشاركات فاعلة، وبطولات فذة، ومواقف جليلة ونادرة في ذاكرة الأمة، وبمقدار جلال

١- راجع كتاب الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث (الملاحق) ذيل الدراسة، ص ١٥٥ وما بعدها. والقصة في الأدب الحديث، ص ١٩٤، مقدمة رواية أرمانوسة المصرية للدكتور / سيد حامد النساج، وكتاب مؤلفات في الميزان للأستاذ أنور الجندي، وكتاب جورجي زيدان في الميزان لشوقي أبو خليل، حيث تناول كل روايات جورجي زيدان بالتحليل الأدبي والنقد التاريخي.

هذه البطولات وتفرُّدها تتمتع هذه الشخصية بالحياة في وجدان الأمة إلا أن هذه المعطيات الهائلة لهذه الشخصية لم تشغل من رواية زيدان إلا بضعة سطور لا تتعدى القطرة في البحر العميق!!.

«فسأل مرقس عن اسمه: فقالوا إنه البطل الشهير عمرو بن العاص، وكان قد سمع به كثيراً فتفرس فيه جيداً، فإذا هو قصير القامة، وافر الهمة، أدعج أبلج عليه ثياب موشاة كأن بها العقبان، تأتلق عليه حُلّة وعمامة وجبة..» (١).

فهذه صورة البطل الشهير «عمرو بن العاص» في نظر زيدان!! وكأنه ينكر عليه إسلامه، إذ الإسلام لا يستطيع أن يقدم مثل هذا البطل في نظر جورجي زيدان!!..

ولم يعجب من هذا البطل إلا بِقِصَر قامته، وثيابه الموشاة، وكأن بها العقبان..!! وأيٌّ إعجاب هذا الذي أفرز هذه الصفات المظهرية في الوقت نفسه، وكأن هذه الهيئة التي جاءت عليها صورة البطل الإسلامي الفاتح، والصحابي الجليل، لم تأخذ في وجدان زيدان إلا الهيئة الشكلية التي تقتحمها العين في لحظة وقد تتساها بعد ذلك. لكن الصفات التي تنبئ عن جلال الشخصية واحترامها وتقديرها، والتي تلمس في الأعمال والمواقف لم يتعرض لها جورجي زيدان، مع أن هذه الملامح هي الأبقى والأدوم التي حرص الإسلام على أن يتصف بها المسلمون في شتى الميادين..

١- رواية أرمانوسة المصرية، ص١٢٦، دار الهلال - ١٩٨٣ - القاهرة.

ولعل هذا التصور الزيداني «للبطل المسلم» الذي أهمل الدور الحقيقي لعمرو بن العاص «فما تاريخ الإسلام إلا الجهاد في سبيل الله، وما اكتسب عمرو بن العاص، وغيره من الأبطال الفاتحين، البطولة، والجلال، إلا لتفانيهم في نيل هذا الشرف العظيم، فأين إذن هذه البطولة ومقوماتها من الأخلاقيات والسلوكيات التي أضفاها الإسلام على هذه الشخصيات، من هذا التصور والوصف المنحاز فكرياً، والميت فنياً في الرواية!!.

ويعرض في موضوع آخر (فصلاً مستقلاً) تحت عنوان «الإسلام» عرض فيه لإسلام البطل عمرو بن العاص في شيء من المباشرة والنقل الكمي، مما ورد في أخباره التاريخية مما سجلته أسفار التاريخ في جفوة وتيبُّس، ولنتأمل هذا الحوار بين زياد العربي وعمرو بن العاص:

فقال زياد: وكيف كان إسلامك؟.

فقال: أما إسلامي فجاء متأخراً.. وقد كنت من أعداء النبي (ﷺ) فإنه لما قام يدعو الناس إلى التوحيد اضطهدته قريش، وشددوا النكير عليه حتى اضطر أصحابه أن يهاجروا إلى النجاشي (ملك الحبشة) فأمَّنهم، ثم أرسلتني قريش ورفيقاً لي بهدية إلى النجاشي، ليسلم المهاجرين إلينا، فأبى.. وكان عوناً لهم علينا فعظم عندي أمر صاحب الدعوة ووقعت في نفسي رهبة منه، ولكني بقيت على دين الجاهلية إلى السنة الثامنة للهجرة، وأنا في أثناء ذلك أفكر في أمره (ﷺ) فوجدت أعماله ناطقة بصدق دعواه، فاجتمعت يوماً بخالد بن الوليد، وعثمان ابن طلحة العبودي، وهما لم يسلما بعد، فقلت لخالد: أين يا أبا

سليمان؟ قال: «والله قد استقام الميسم!.. إن الرجل لنبي، اذهب والله فحتى متى؟! فقلت: ما جئت إلا للإسلام، فقَدِمنا على النبي (ﷺ)، فتقدم خالد فأسلم، ثم تقدمت أنا وكانت أول مرة لقيته وجهاً لوجه فملأتني الرهبة لمنظره وما جمع الله فيه من المحاسن..».

فاشتاق زياد لمعرفة أوصاف النبي، فقال: «وما الذي أرهبك منه؟ وما هي أوصافه؟...

فقال عمرو: «والله يا زياد لا أنسى ساعة لقيته فيها، فإن صورته لاتزال مرسومة على لوح صدري منذ لقيته يوم جئت ألتمس الإسلام.

وأما صفاته: فهو ليس بالطويل ولا بالقصير، ضخم الرأس واللحية، خشن الكفين والقدمين، مشرب بالحمرة. وكان حين لقيته واقفاً يمشي، فإذا هو يتكفأ كأنما ينحط من صبب، لم أر قبله ولا بعده مثله، وكان أدعج العينين، سبط الشعر، سهل الخدين، إذا التفت التفت جميعاً، ولعله كان إذ ذاك قائماً من الصلاة، وقد كلّل العرق وجهه كاللؤلؤ الرطب، وفوق كل ذلك، فإن الهيبة كانت تجلّله، فلم أستطع النظر إليه طويلاً، فوقفت بين يديه، فقال لي: «ما جاء بك يا عمرو؟» قلت: «جئت أطلب الهداية يا رسول الله، قال: «أتريد الإسلام. فقل: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله» ثم دخل عثمان بن طلحة، فقال مثل قولي، وصلينا جميعاً، وقد شعرت والله يا زياد بغشاوة انقشعت عن عيني ساعة الشهادة) (١).

---

١ - الرواية، ١٤٦ وما بعدها.

فماذا يشكل إسلام عمرو في أحداث الرواية؟ فسؤاله في غير مكانه، إلا أن جورجي زيدان ربما لم ينس من وقت لآخر أن مهمته تعليم التاريخ، فينسى نفسه، ويسهب في سرد أحداث تاريخية دون داع، أو وعي فني - في الوقت نفسه - بتوظيفها، والإفادة منها الإفادة المرجوة من العمل الفني (الرواية).

من ثم تأتي شخصياته مهلهلة النسج، فتبدو كأنها مخلوقات ميتة، عاجزة عن النبض والحركة والتدفق، كما يقع حتى في الواقع التاريخي فإنه كثيراً - وكما هو المثال - ما يكتفي بنقل ما أوردته كتب التاريخ من معلومات وأقوال عن شخصيته [1]، وكأنه لا يدري أن الشخصية - واقعية أو تاريخية - ما هي إلا مجموعة من المشاعر والأحاسيس والدوافع التي تدفعها لسلوك ما، خيراً أم شراً، سامياً أم وضيعاً، تضع الشخصية في سياق يمكننا تصنيفها في إطار معين، تحدده ملامحها وطباع أحاسيسها ومشاعرها، بل ومزاجها الشخصي، فتبدو الشخصية حية نابضة قادرة على إقناع المتلقي، بما تحمله من مضمون أو فكر، وما قامت به من أفعال أو قدمته من سلوكيات أو ما صنعت من أحداث.

ومن ثم ظهرت شخصية «عمرو بن العاص» ، وهو البطل الإسلامي العظيم، في صورة باهتة، شاحبة، ولا نغالي إن قلنا ميتة ليست بذي قيمة أو فاعلية في تحريك الأحداث الروائية، فلم تكن إحدى قوى الدفع في تقدم الرواية أو تدفق ينابيع النهر الروائي، من ثم لم نخرج

١- اتجاهه نحو نقل المعلومات المثبتة في بطون كتب التاريخ، يومئ بيقينه أن شكا ماسيواجهه في مهمته، وإن كان يلجأ إلى اختراع أحداث لم تكن في كتب التاريخ، ليستطيع من خلالها أن يصنع مايحلو له من افتراء وإيهام ..

من هذه الرواية بانطباع معين أو واضح عن هوية هذه الشخصية، وإذا كانت الشخصية بوصفها أداة فنية وعنصراً مهماً تحقق التواصل بين المبدع والمتلقي فهي في الوقت نفسه التي تقوم بالدور الفني في بناء الرواية، تحمل موقف الأديب ورؤيته، وإلا اتُّهم المبدع إن صح التعبير - بالفقر الإبداعي.. ونضوب ينابيع الموهبة الإبداعية!!.

وموقف زيدان من شخصية عمرو بن العاص «البطل الإسلامي الفاتح موقف يشوبه التعصب والازدراء مما يتنافى مع أصول الأمانة التاريخية والصدق، فلم نستطع أن نتبين في روايته إلا الدسائس والأكاذيب، والتغيب والاستهجان للشخصيات الإسلامية التي تتمتع بحضور وحيوية في واقعها التاريخي، فكيف بها باهتة وجافة ومحطمة في رواية زيدان؟!!.

مع أن هذه الشخصية هي التي صنعت أحداث الفتح الإسلامي لمصر، وقدم على الخليفة عمر بن الخطاب لكي يأذن له في فتح مصر، لأنه أعرف الناس بمصر وبشعبها حيث كانت تكثر رحلاته التجارية إليها. فكيف يتناسى الدور الكبير لعمرو بن العاص من يريد أن يؤرخ لفتح مصر؟!.

إلى أي حقيقة يستند زيدان في ادعائه؟! أهي حقيقة الفن أم التعليم؟!، ما الذي يضطره إلى اختراع شخصيات أسند إليها بطولات ليبهر القارئ بعظمة هذا المسيحي أو ذاك؟!.

أما عن حقيقة الفن فهي بعيدة عن حقيقة الفن وذلك، لأن الفنان مطالب بأن لا يغير في التاريخ الحقائق الجوهرية التي إن أُسقطت

ضاع التاريخ أو كاد. فالفن يبيح للمبدع إذا تعرّض للتاريخ أن يغيّر ويزيد ويحذف بشرط ألا يطغى ذلك على الحقائق الثابتة، والتي لا يمكن إغفالها من الأحداث التاريخية، ولم يلتزم زيدان بذلك.

أما التعليم فجورجي زيدان لم يقم بتعليم النشء البطولات والتضحيات التي ينبغي أن تتحلى بها بطولات رواياته، اللهم إلا إذا كان يريد تعليم النشء البطولات المسيحية في روايات تتناول تاريخ الإسلام (روايات إسلامية). هذا شيء مثير للضحك.

فهذه المغالطات والادعاءات تكشف عن رؤية الكاتب النصراني «جورجي زيدان» لتاريخ الإسلام، وتصوره لنماذج البطولات المضيئة، فإنه يتعامل معها من منطق التعصب لعقيدته، فكأنه يحمل على عاتقه - شأن أكثر المستشرقين، ودعاة التنصير من المبشرين في الشرق الإسلامي مهمة تزوير التاريخ، والنبش في مخابئه عن بؤر الفساد الاجتماعي، والوهن أو التمزق السياسي، فيحسر عنها الغبار، ويحاول رصدها واتخاذها منطلقاً، وأساساً في الوقت نفسه لتصور التاريخ الإسلامي، وعندما يصادفه اللؤلؤ فإنه يهيل عليه التراب ويطمره، فإن لم يستطع أغرق في تشويهه وتحقيره إلى الحد الذي يجافي الموضوعية والصدق والأمانة العلمية..

لقد سلب جورجي زيدان الإسلامَ قدرته على تغيير النفوس والطبائع التي امتاز بها، وأثبت جدواها مع كل من دخل فيه، فإننا نراه - ويشهد بذلك التاريخ - أنه يتغير من النقيض إلى النقيض بين عشية وضحاها، لمجرد أنه اعتنق الإسلام باقتناع ووعي...

وقس على ذلك شخصيات رواياته التي استدعاها «زيدان» من التاريخ الإسلامي والتي فقدت كل ما ينهض بها من مقومات فنية وفكرية - قصداً - لقطع التواصل بينها وبين المتلقين من شباب العالم الإسلامي الذي أراد لهم استبدال التاريخ الإسلامي والبحث في مصادره والاستغناء عنه برواياته التي اتخذها مسرحاً أو ساحة لترويج مغالطاته التاريخية، فيقطع أسباب التوادّ بين هذه الشخصيات الإسلامية وشباب الأمة. فينبتُّ ما بين الأمة وتراثها التّليُّد ولا سيما إذا كان جورجي زيدان لم يتحر مصادره، أو يخطط لرواياته، فإن مراحلها بنت اللحظة التي تتطلب سد الفراغ المتاح له في مجلة الهلال التي يصدرها «إن ما نشره من روايات في الهلال إنما هو ابن يومه فلا نكتب من الرواية عند كل هلال إلا ما نحتاج إلى نشره في ذلك الهلال.. إننا ننشر الفصل من الرواية، ونحن على غير بيّنَة من الفصل الثاني، أي أننا نصطنع حوادث كل فصل، أو بضعة فصول في حينها، ويبقى سائر القصة في عالم الغيب، فلو سُئِلنا أن نقصَّ ما بقي منها ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً...» (١).

وفي رواية «عبد الرحمن الناصر» أمير الأندلس في الخلافة الأموية لم يتعرض جورجي زيدان للبطولات العظيمة، التي أبلى المسلمون بلاءً حسناً في فتح هذه البلاد، إلا أنه عُنِيَ بالصراع القائم بين عبد الرحمن الناصر الأمير والبطل الإسلامي،وبين ولديه الحكم وعبد الله على الاستئثار بجارية، وصور هؤلاء الثلاثة في صور حيوانات هائجة للاستئثار بهذه الجارية على ما في قصورهم من الجواري الحسان ما لا

١ - نقلاً عن الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث، ص٤٥، فيما نقله مؤلفاه عن الهلال، عدد فبراير ١٨٩٩م.

يستطيعون حصره.. فعَلام الصراع الذي اضطرم بينهم؟ لا نعرف، وربما لم يكن هذا السبب قائماً إلا في عقل وذاكرة جورجي زيدان كي يطمس حقائق هذه البطولات، ويطفئ شخصيات من أفرزوا هذه البطولات، بخاصة أن الدولة كانت في عنفوانها لم تخمد جذور الحماسة في نفس منشئها (عبد الرحمن الناصر) وأبنائه، فلو أنه اختار زمناً غير هذا الزمن لقلنا إن التّرهُّل قد أصاب الدولة بسبب الرفاهية التي يعيش فيها أمراؤها، وأنها بدأت تتقوض وتنهار بسبب الفساد الذي عم، ولكنّ عبد الرحمن الناصر وأبناؤه ما زالوا في رباط وجهاد طمعاً في تثبيت أركان الدولة الجديدة الأموية التي أقامها عبد الرحمن بجهاده وكفاحه.

نحن لا نصدق زيدان في زعمه وادعائه.. وكأن زيدان عظم على نفسه أن يذكر لهؤلاء بطولات، وهي كانت بطولات على جيش الروم أو الفرس أو القوط ممن يدينون بالنصرانية أو الوثنية، فلم يجد حرجاً في تمييع هذه الأحداث أو تلك البطولات، حتى تستريح نفسه أو يطمئن قلبه، ولو كان ذلك الخلط والغمط قائماً في نفس جورجي زيدان.

وعبد الرحمن الناصر هذا في كتب التاريخ: كان سلطانه أعظم ما كان، وأعز ما كان الإسلام بملكه.. وحكي أنه وجد بخط الناصر رحمه الله أيام السرور التي صفت له دون تكدير، يوم كذا، ويوم كذا من شهر كذا.. وعدت تلك الأيام، فكانت أربعة عشر يوماً، فاعجب أيها العاقل لهذه الدنيا، وعدم صفائها، وبخلها بكمال الأحوال لأوليائها، هذا الخليفة المضروب به المثل في الارتقاء في الدنيا والصعود، مَلَكَها خمسين سنة وستة أو سبعة أشهر وثلاثة أيام (٣٠٠-٣٥٠) هجرية، ولم

تصف له إلا أربعة عشر يوماً) (١) فهل وجد من الوقت ما يتصارع خلاله مع أبنائه على جارية، وأيٌّ جارية هذه التي تشغل بيت الأمير آنئذ - إنها جارية مجهوله لا وجود لها في الواقع بدليل أن زيدان سماها عابدة، ولهذا الاسم مدلوله، وكأنه يشير إلى أنها هي وحدها التي تعبد الله، وهؤلاء متكالبون عليها يعبدون الشهوة..

كما يذكر أن الناصر كان يحتفي بالتنجيم والمنجمين، فيحتفي بسعيد الوراق الذي احتفى جورجي زيدان به وجعله الشخصية المحورية في روايته فهو وراق ومنجم، وكذلك يدير الصراعات داخل القصور، لاسيما بين الناصر وأولاده بسبب الجارية «عابدة» ليتلهى بها الناصر ويترك لسعيد جاريته الزهراء، فإنه كان يعشقها، وهي كانت تبادله نفس الشعور، إلا أن وجودها في قصر الناصر يمنعها من تحقيق أمنياتها.

يقول سعيد:

« لاينبغي لمولاي - حفظه الله - أن يستسلم لحقير مثلي، ولا أن يركن إلى التنجيم كثيراً فإنه قد يخطئ»..

فأعجب الناصر بتواضعه وزاد ثقة به، فقال: «إن قولك هذا يزيدني ثقة بعلمك.. فإني لم أر بين المنجمين الكثيرين في قصري من يعترف بالقصور مثلك..(٢)» .

كيف يقنع عبد الرحمن بالتنجيم الذي لم يقره الإسلام، بل أزرى به، وحذر منه الرسول كثيراً، ثم كيف يثق في التنجيم، وهو الذي أقام

١- راجع جورجي زيدان في الميزان، ص ٢٢٦ فيما نقله عن نفح الطيب للمقري جـ١، ص ١٧٩ . وكذا شهادات أخرى لكتاب أجانب.. ص ٢٢٦، ٢٢٧ .. شوقي أبو خليل.

٢- رواية عبد الرحمن الناصر، ص ٦١، ١٦٢، ١٦٣، جورجي زيدان - الهلال - ١٩٨٤ - مصر.

الدولة وسط أهوال أحاطت به، وأخطار أوشكت أن تفتك بحياته منذ أن فرّ من تعقُّب العباسيين له، وتنقُّله من بلد إلى بلد، حتى وصل إلى الأندلس وحيداً مطارداً مهدداً. وعلى الرغم من ذلك تمكن بقوة عزيمته وإصراره وشجاعته من إعادة ملك الأمويين على نحو آخر وفي بلاد أخرى، وهي الأندلس دون أن يصحبه جيش أو يحيط به أنصار، إنها رحلة تشبه المعجزة، ولو كان في رحلته تلك الغامضة أنبأه منجم بما سيصير إليه حاله لما صدقه، فأنّى لمقهور مضطهد أن يصبح ملكاً فيما بعد..؟

إن شخصية عبد الرحمن الناصر بكل ما عرفناه عنه بعيدة جداً عن الاحتفاء بالمنجمين، أو حتى تقبُّل كلامهم..

ويحاول هذا المنجم الماكر أن يغري عبد الرحمن الناصر بابنه ويزعم أن الجارية الزهراء - أقرب الناس إلى قلبه - هي في قصر ابنه الآن، فإنه رأى الخوف يأتي لأمير المؤمنين من أكثر الناس ثقة عنده..) [(١)].

فالناصر هنا الأمير والبطل الإسلامي غِرّ وعبيط في نظر جورجي زيدان، يمكن لمثل سعيد أن يحتال عليه، ويصدق بما يرمي به، ولو كان ذلك تآمراً من المنجم حتى يصل إلى مآربه فيلهو بصراعه مع أبنائه، ويخلص هو للجارية الأثيرة لدى الناصر والحبيبة إلى قلبه، وقد كان له ذلك عندما استأذنه المنجم في أن يدرب له الفتاة على شيء تقوله في حضرته[(٢)].

١- رواية عبد الرحمن الناصر، ص ٦١، ١٦٢، ١٦٣، جورجي زيدان - الهلال - ١٩٨٤ - مصر.
٢- الرواية، ص ١٦٥.

فالمتأمل في وصف هذه الشخصيات ورسمها بهذه الرؤية المتعصبة، يجدها لا تختلف عن غيرها من الشخصيات الإسلامية التي طمسها زيدان طمساً، وألحّ على طمس الحقائق، وأفرط في تشويه وطمس البؤر المشرقة والمضيئة في الشخصية التاريخية الإسلامية، لا سيما وهذه الشخصيات تمثل بحضورها الدعوة الإسلامية، في قمة مدّها وعنفوانها، وترمز إلى فكرة نبيلة حرص الإسلام أن يبثها في أفئدة معتنقيه، أعني فكرة الجهاد، والواقع أن هذه الفكرة هي التي تعطي للعمل الفني (روايات تاريخ الإسلام) معنى، إن كان هناك معنى يذكر وراءها.. وإن كنت في ريب من وعي «زيدان» به. فالقراءة الباطنة لروايات زيدان تسمح للناقد استناداً إلى وقائع أو أحداث الرواية المستمدة من أخبار الفتح - وفي ضوء الإضاءة التاريخية لظروف العصر - بالتنبؤ بما يكمن وراء ظاهر الحوار، فالنص الروائي يشف عن فكرة الجهاد ولا يجسدها في مواقف حية [1].. تنبض بالحياة أو تهبها لهذه الشخصيات فتبدو وكأنها تعيش معنا، داخل كلٍ منا كائنات حية تفعل ما تفعله وتقول ما تقوله، وتجارينا في حياتنا بكل شؤونها ومشاركتها عواطفها وأحاسيسها فنتبادل الهموم هماً بهمّ، والعواطف حباً بحب، وكرهاً بكره، وتكون بهذه شخصيات أو نماذج إنسانية فاعلة وذات أبعاد وآفاق متنوعة.. وإن لم يستطع الروائي أن يقدم مثل هذه المقومات أو المعطيات - شأن زيدان في إبداعاته - جاءت شخصياته باهتة وباردة، منعدمة الدور في بناء الرواية فتبدو في الرواية وكأنها

١- الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث، ص: ٤١/ سابق - بتصرف.

رقعة في ثوب مهلهل لم تزده إلا تمزيقاً وتشويهاً، فكانت هامشية الشخصيات وعدم اكتمالها له دوره في تخلخل البناء الروائي وتهدمه..

أما الأديب عبد الحميد جودة السحار[١]، وإن كان يشارك «جورجي زيدان في منهج تعليم التاريخ الإسلامي في إبداعه الروائي، الذي يستلهم التاريخ بأحداثه وشخوصه مثل روايات: «أبو ذر الغفاري» و«بلال مؤذن الرسول (ﷺ)» و«سعد بن أبي وقاص» ، و«أبناء أبي بكر الصديق»، و«حياة الحسين» ، و «عمر بن عبد العزيز» ، وملحمته التاريخية «محمد رسول الله والذين معه».. التي صدرت في عشرين جزءًا والتي شغلت من حياته في إعدادها ما يقرب من الثلاثين عاماً، فجاءت من إبداعه في الذروة، حيث تربعت على قمة أعماله الإبداعية (حافظ خلالها على الحقيقة التاريخية، لم يدون حادثة إلا لها سند، واختار أقرب الروايات المختلفة إلى المنطق وروح الدعوة) [٢].

تناولت هذه الملحمة حياة العقيدة الصحيحة رحلة التوحيد من لدن آدم (عليه السلام) وحتى وفاة رسول الإسلام سيدنا محمد (ﷺ).. هذا الامتداد التاريخي، أتاح للسحار حرية الحركة داخل الإطار التاريخي، واختيار الأحداث والشخصيات ذات الحضور والتدفق والامتلاء، كي يوظفها خلال العملية الإبداعية التي وصلت إلى آلاف الصفحات...

١- ولد عبد الحميد جودة السحار في ٢٤/ أبريل ١٩١٣ في حي باب الشعرية بالقاهرة، تنوعت مجالات إبداعه فكتب القصة القصيرة والرواية التاريخية أو الواقعية.. خلال رحلته الحياتية الممتدة التي تقلب فيها في وظائف مختلفة في مجال التجارة والاقتصاد أو الفن (رئيساً لمؤسسة السينما، وهيئة السينما والمسرح).

راجع التيار الإسلامي في قصص السحار، د/صفوت يوسف زيد. وهذه حياتي للسحار نفسه.

٢- السحار: رحلة إلى السيرة النبوية، ص ٤٥، محمد جبريل - دار مصر للطباعة - دت - القاهرة وصدرت السيرة ما بين أكتوبر ١٩٦٥ وحتى صدور الجزء الأخير في ديسمبر عام ١٩٧٠م.

كان السحار يؤمن بثراء هذا التاريخ الإسلامي، وقيمته العظيمة في حياة الأمة الإسلامية وذاكرة شبابها، لا سيما الذين وعوا تسرب كل شيء من بين أصابعهم، فلم يبق لهم إلا هذا التاريخ المجيد، (لقد أحسست أن التراث الإسلامي، والثقافة العربية يمثلان شيئاً هاماً وجوهرياً داخل حلقات التطور الفكري لمصر عبر العصور، وأنه لا يمكن تطوير الأدب وتطوير الثقافة المصرية دون العودة إلى استلهام هذا التراث، وتحقيقه على المستويين الفكري والفني، لذلك كتبت العديد من الأعمال القصصية بعد محاولة هضم هذه الألوان من الثقافة الإنسانية بشكل عام...) [١].

فالسحار عندما راودته عملية إبداع قصص أو روايات أدبية، استرعى نظره هذا التراث الثري فراح يستلهم معلوماته من هذا المصدر الإبداعي الثري، فأصدر ثلاث عشرة رواية تاريخية منها رواية واحدة تمثل الاتجاه نحو التاريخ الفرعوني لمصر القديمة (أحمس بطل الاستقلال)، بينما كانت سائر قصصه الأخرى تتصل في تصميمها الفكري بالتاريخ الديني الإسلامي، مما يدل على احتفال الكاتب به وإيمانه بثراء القيم والمثل، وبثّ روح الأمن والطمأنينة في النفوس البشرية، بعد أن أنهكتها قيم الحياة المادية وما تمر به من مشكلات، وما طبعت به الناس من قلق وخوف.. إنه (السحار) تعرّف منذ اللحظة الأولى على نفسه، واكتشف الطريق الموصل إلى الغاية، فانطلق يجوب آفاق الماضي بحاسته الباصرة، ووعيه الرشيد، وحسه المرهف والشفيف، في الوقت نفسه

١- المرجع نفسه، ص ٩، محمد جبريل - سابق. والكلام للسحار الروائي.

منقّباً عن كنوزه المطمورة، ونماذجه المشرقة الفريدة على امتداد خارطته منذ فجر الدعوة الإسلامية ذات البطولات الفائقة المدحورة في دهاليز التاريخ، (اتجه إليها بقلب مفتوح ووعي متبصر، يستمد منه إلهامات فنه، وخرج إلى الناس بآيات من الفن الواعي الذي جمع بين جمال الإبداع وجلال الإيمان) [١].

من هذه النماذج الإسلامية في تاريخ الدعوة الإسلامية ممن صنعتهم العقيدة الإسلامية، وخلقتهم خلقاً جديداً (بلال بن رباح) العبد الحبشي الذي كان مولى لأمية بن خلف، إلا أنه عرف طريقه إلى النور فآمن بمحمد هذا النبي الذي جاء بدين جديد، دين صادف رضى وطمأنينة في نفس بلال، لكن سيده ما زال على شركه وصلفه وعناده، فإنه يسعى جاهداً إلى رد من يعرف ممن اعتنقوا دين محمد، فما باله عندما يعرف أن عبده قد اعتنق هذا الدين؟ ولكنّ بلال لن يثنيه عن معتقده شيء ولو كان ثمن ذلك خروج روحه، فإنه أهون عليه من أن يطيع سيده في ذلك..

- الويل للعبد إن صدق ما بلغني عنه[٢].

وخلال رحلة العذاب مع أمية تكشفت شخصية بلال العنيدة الصابرة على عذابات وآلام فادحة كادت أن تفقده حياته، إلا أن الإسلام الذي اعتنقه كان الوقود لروحه، يدفعها نحو آفاق العزيمة والعظمة الإنسانية الرائعة..

١- التيار الإسلامي في قصص السحار، ص ٩١.

٢- بلال مؤذن رسول الله، ص ٢٥، عبد الحميد جودة السحار - دار مصر للطباعة - د ت - مصر.

لنقف أمام بعض المواقف العظيمة في حياة هذه الشخصية التي ترينا كيف خلق الإسلام هذا الإنسان الذي كان بالأمس مهملاً في حياة الجاهلية، خلقاً جديداً فأصبح بلال إنساناً يشغل مكانه اللائق بإنسانيته وعقيدته..

فعندما جلس نفر من الصحابة يتذاكرون فضل بعضهم، وكان من بين ما ذكروا فضل بلال في الإسلام، وصنائعه العظيمة، إلا أن بلالاً - على كثرة ما صنع - لم تزهُ نفسه أو تته عجباً بما صنع، فإذا هو مقبل عليهم، فما إن رأوه حتى كفّوا عن الحديث:

- ما هنالك؟

- فقال أحدهم:

- كانوا يذكرون فضلك، وما قسم الله لك من خير.

- إنما أنا حبشي كنت بالأمس عبداً.

وجمع أحدهم أطراف شجاعته وقال:

- إن أناساً هنا يفضلونك على أبي بكر.

فتغير وجه بلال، ونهض من مكانه غاضباً وقال:

- كيف يفضلونني عليه، وأنا حسنة من حسناته. [١]

فسيدنا بلال لم يفرحه هذا الإطراء شأن عامة الناس، إلا أنه لا يفتأ يَذكّر نفسه والناس بأنه عبد، كان إلى وقت قريب عبداً، وأن فضل أبي بكر لم ينسه أبداً، فهو لا يعدو كونه حسنة من حسناته.

١- الرواية، ص ١٠٤، ١٠٥.

هذا خُلقُ التواضع الذي طبعه الإسلام عليه، فهو يعرف حدود نفسه ولا يغريها - مهما صنع - بصنائعه في الإسلام، فإن فضل الإسلام عليه جمٌّ وعظيم.

وهل يركن إلى الراحة بعدما فارقه النبي (ﷺ) وصاحبه الخليفة أبو بكر (رضي الله عنه)، لا لم يأنس هذه الدعة أو السكون وجيوش المسلمين هناك تثير الغبار في سبيل الله:

فأتى بلالٌ عمر بن الخطاب أمير المؤمنين، واستأذنه في الخروج للجهاد، فقال له عمر:

- ألا تبقى يا بلال بجواري كما كنت بجوار النبي وأبي بكر؟.

- أحن إلى الجهاد يا أمير المؤمنين، ولا أستطيع عليه صبراً.

- ابق يا بلال فإني في احتياج إليك.

- بالله دعني ولا تحرمني الأجر والثواب.

- لك ما تريد يا بلال وإلى أين تتجه؟

- سألحق بأبي عبيدة في الشام.

- سر على بركة الله...[١].

هاهو بلال ينطلق إلى الجهاد في سبيل الله، لأنه مسلم يعرف قيمة الجهاد في حياة المسلم وينفذ أمره في دعوته للجهاد، فلن يكتمل إيمانه إلا بالجهاد ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَّنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [٢]. فلبّى

١- الرواية، ص ١٠٦.

٢- سورة الأنفال، آية ٧٤.

بلال النداء، ولحق بركب المجاهدين يحرز النصر تلو النصر في جيش الإسلام.. وظل هكذا حتى دنا الرحيل وأحس دبيب الموت في جسده: فغمغم وهو يجود بأنفاسه الأخيرة:

- وافرحتاه! غداً ألقى الأحبة، محمداً وصحبه.[١]

فالإسلام هو الذي خلق هذه الشخصية الإسلامية خلقاً فريداً، استطاع بلال أن يحقق ذاته، وما ذلك بغريب (فإن العقيدة - التدين - عنصر أساسي في تكوين الإنسان، والحس الديني، إنما يكمن في أعماق كل قلب بشري، بل هو يدخل في صميم ماهية الإنسان مثله في ذلك مثلُ العقل سواءً بسواء) [٢].

فالسحار كان مدفوعاً نحو التاريخ الإسلامي لما يتميز به هذا التاريخ من الثراء والجلال، ووعيه بأهمية إيقاظ مشاعر الأمة وإثارة ذاكرتها التي ران عليها من مقومات التخلف ما يكاد أن يفقدها هويتها وتفردها في الحياة، لا سيما في عصر تكالب فيه أعداء الأمة، وتداعى المتآمرون منهم من كل صوب وحدب، كما يتداعى الأكلة على قصعتهم!!.. مما يجعل إيقاظ وعي الأمة والاتجاه نحو تاريخها الخالد أمراً ضرورياً في مواجهة حملات التغريب الفكري والثقافي، ومحاولات التشويه التي كان يمارسها أمثال جورجي زيدان للرموز الإسلامية الناصعة في تاريخ الأمة الإسلامية.

١- الرواية، ص ١٢٥ .

٢- المعتقدات الدينية، ص ٧، جفري باندر - ت د / إمام عبد الفتاح/ عالم المعرفة، عدد ١٩٧٣ مايو ١٩٩٣.

من هذه الشخصيات التي عُني السحار كذلك بتجلية دورها العظيم ومواقفها الإسلامية الرائعة: أبو ذر الغفاري، يقف بمواجهة معاوية بن أبي سفيان داهية بني أمية يقض مضجعه، ويحاسبه على ما يصدر منه، فعندما علم بأن أموال الغنائم دخلت حوزة معاوية وجاءه من يبلغه ذلك:

- يا أبا ذر، ألا تعجب من معاوية، يقول المال مال الله، ألا إن كل شيء لله، كأنه يريد أن يحتجنه دون الناس، ويمحو اسم المسلمين؟

فقال أبو ذر:

- أو قد قال ذلك؟

- أجل إنه يقول ذلك في كل خطبة.

- والله لأعتبنَّ عليه.

ونهض أبو ذر من فوره إلى قصر معاوية، وطلب الإذن بالدخول، ولما دخل هشّ له وبشّ، ولكن أبا ذر لم يلتفت إلى كل ذلك، بل اندفع إلى غرضه، وقال:

- يا معاوية، ما يدعوك إلى أن تسمي مال المسلمين مال الله؟

- يرحمك الله يا أبا ذر.. ألسنا عباد الله؟ والمال ماله.

- فلا تقله.

- سأقول مال المسلمين.

وهمَّ أبو ذر بالانصراف، فقال معاوية:

- يا أبا ذر، مالذي أوجدك علينا؟.

- إن أموال الفيء من حقوق المسلمين، وليس لك أن تختزن منها شيئاً، ولكنك خالفت الرسول وأبا بكر وعمر، وكنزتها لك ولبني أمية.

- يا أبا ذر، إني لا أكنز المال كما تظن، ولكني أدخره لأصرفه في وجوه المصالح العامة، وإني لا أبخل بالمال على المسلمين، فما تركت من سبيل يجب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها..

- إنك لا تريد بعطاياك وجه الله، بل تريد أن يقال إنك جواد، وقد قيل. يا معاوية لقد أغنيت الغني وأفقرت الفقير.

- يا أبا ذر، ارجع عما أنت فيه، فإنك تقود الناس إلى فتنة لا يعلم إلا علام الغيوب مداها.

- والذي نفسي بيده. لا أرجع حتى يبذل الأغنياء المعروف.

«هذا رجل أشرقت نفسه بنور الإسلام، وعمرت بطمأنينته فلا يخشى في الله لومة لائم، كما علمه صاحبه محمد - صلى الله عليه وسلم - ولو كان ما يواجه معاوية بن أبي سفيان مؤسس دولة بني أمية، فهو يقف بمواجهته ولا يرهبه لكونه أميراً أو حاكماً فإن طاعة الله أولى من طاعة الأمير، إذا انحرف عن منهج الإسلام في رأي أبي ذر حتى همس إليه أحد الجالسين بالقرب منه: «إنك تخوض في معاوية، فحاذره، فالتفت أبو ذر إليه وقال: أوصاني خليلي أن أقول الحق ولو كان مراً، وألا أخشى في الله لومة لائم، وإني أدعو دعاءه: «اللهم إني أعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا وعذاب القبر» (١).

١- الرواية، ص ١٨٠ .

فأبو ذر في مواقفه، وما أكثرها، رجل صلب الرأي قوي الحجة، لن يثنيه عن الحق غضب الأمراء أو مواجهتهم له، فإن الإسلام الذي تربى في كنف تعاليمه السامية، علّمه ألاّ يخنع أو يذل، فإذا كان الأمر كذلك فما من مصيبة تقع عليه إلا والله مجزيه عنها خيراً، ووقوع البلاء علامة الإيمان، وأبو ذر هو التقي الورع الذي يحفظ من القرآن الكريم ما يجعله يرحب بالبلاء. ﴿.. وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ (١).

وفي هذا الموقف العظيم يبدي أبو ذر من أخلاقه العظيمة التي خلقها الإسلام فيه ما يدل على زهده في المناصب وفي الدنيا وفي المال، مما أوغر صدر بعض الحكام ضده، فبعدما رحل أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) إلى الرفيق الأعلى، حمل أبو ذر زوجه وابنته وانطلق بهما إلى الشام، وفي يوم من الأيام جلس في المسجد، وجلس الناس إليه ودار الحديث بينهم، فقال أحدهم:

– يا أبا ذر ألا تتخذ ضيعة كما اتخذ أبو هريرة فقد أصبح والياً على البحرين؟

فقال أبو ذر: وما أصنع بأن أكون أميراً؟ وإنما تكفيني كل يوم شربة ماء أو لبن، وفي الجمعة قفيز(٢) من قمح...) (٣).

١– سورة البقرة الآيات (١٥٥، ١٥٦، ١٥٧).

٢– القفيز: مكيال كان يكال به قديماً، ويختلف مقداره في البلاد، ويعادل بالتقدير المصري الحديث نحو ستة عشر كيلو جرام.. المعجم الوسيط، مادة «قفز» ص ـ ٧٥١/٢ .

٣ – الرواية، ص ١٥٧ .

فالمسلم المجاهد أبو ذر الغفاري لم يعنه من الدنيا إلا شربة الماء أو اللبن، وفي الأسبوع قفيز من القمح، وكأنه يستلهم تعاليم صاحبه رسول الله - ﷺ - الذي كان يقول[١]: من عاش آمناً في سربه، عنده قوت يومه، فكأنه حيزتْ له الدنيا بحذافيرها».

فأيُّ قناعة بعد هذا؟ حتى عندما يأتيه مال من عند أمير الشام «حبيبه بن مسلمة» ، مع رسولٍ من قِبَله:

- قد بعثني مولاي إليك بثلاث مئة دينار، لتستعين بها على حاجتك.

قال أبو ذر: قم بها إليه. أو ما وجد أحداً أعز بالله عز وجل منا؟ مالنا، ألا ظل نتوارى به، وثلة من غنم تروح علينا، ومولاة لنا تصدقت علينا.

أخذ أبو ذر عطاءه، فخرج مع عبد الله بن الصامت واستصحب معه جارية، واتجه الجميع إلى السوق، فجعلت الجارية تقضي حوائج أبي ذر ينفقها، فقال له عبد الله بن الصامت:

- لو ادخرتها لحاجة بيتك، وللضيف ينزل بك.

- إن خليلي عهد إليّ أن أيما ذهب أو فضة أوكئ عليه فهو جمر على صاحبه،حتى يفرغه في سبيل الله)[٢].

فأبو ذر الزاهد المتأدب بأدب الإسلام قبل هدية أمير الشام، ولكنه آثر بها من هو أحوج منه إليها، على الرغم من كونه ليس غنياً، فما دام

---

١ - سنن الترمذي - باب الزهد، ما جاء في الزهادة في الدنيا، المجلد الرابع ص: ٥ رقم الحديث: ٢٤٤٩ (من أصبح منكم آمناً في سربه معافى في جسده عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا ..).

٢- الرواية، ص ١٥٨، ١٥٩.

قد توفر له ما يحفظ الحياة، فما قيمة المال معه؟ فإن إنفاقه على المحتاجين لأمر يمليه عليه ضميره الديني، وأدبه الإسلامي، فإن كنز الأموال لا يجني صاحبه من ورائه إلا العذاب بما كنز يوم القيامة: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ (١).

فالمال في يد المسلم لا بد أن يزهد فيه ما دام زائداً عن حاجاته الضرورية حتى ينال به رضى الله عز وجل. فأبو ذر الزاهد المسلم يعرف قيمة المال في الحياة وقيمة بذله للمحتاجين، وحجم البلاء الذي يقع لكانزه في الآخرة.

بهذه المعطيات الإسلامية لبناء الإسلام المسلمَ قَدَّم السحار شخصياته في ضوء المعلومات التاريخية المنضبطة، بعيداً عن المغالاة أو المبالغات الممقوتة، فإنه يعلّم النشء تاريخهم الإسلامي ليتعرفوا على هويتهم الإسلامية.

اتجه السحار - من هذا المنطلق الواعي بكل هذه المقومات - إلى سيرة النبي (ﷺ)، وما يلحق بها من سير أصحابه (رضوان الله عليهم أجمعين)، وما يكتنفهم من الجلال والبهاء، (فالتزم الصدق في عرض معلوماته التاريخية وأخبارهم، فعرضها عرضاً أميناً، مُعمِلاً خياله المبدع ليختار ما يفيده في طرح موضوعاته، ويطرح ما لا يفيده، لكن الحقائق التاريخية كانت الركيزة الأساسية التي ينطلق منها بناؤه

١- سورة التوبة، الآيتان ٣٤- ٣٥.

القصصي (أحداثه وشخوصه)، وفق منهج يتّسم بالطرافة والجدة في عرض الأحداث، في أسلوب أدبي مشوق، وتتبُّعه للشخصيات التاريخية التي عاشت هذه الأحداث في عرض شائق، ومثير للعواطف والأحاسيس، بعيداً عن الجفاف الأكاديمي، في تسلسل منطقي فريد، يتحول معه المروي من أشتات الكتب التاريخية إلى وحدة متماسكة البناء، مترابطة الأجزاء على الرغم من اتساعها،وتعدد شخوصها، وكثرة أحداثها، واختلاف البيئات التي تنقلت بين ربوعها)[١].

فالخيال الإبداعي هو الذي أوجد هذه العلاقات بين أشتات الأحداث والشخوص، فلاءم بينها، وأكمل الصورة التي رسمها الكاتب بريشته وكلماته من خلال عملية الاختيار والطرح، أمام الكم الهائل من المتاح من المعلومات المتوفرة لدى الكاتب منها ما يمكن تقديمه من هذه الأحداث أو الشخوص التي يحركها على صفحات الرواية.

والمتأمل لفن الرواية التاريخية عند السحار يجده يتجه نحو المنهج التعليمي للتاريخ في أسلوب أدبي مرهف وجذاب مثير للعواطف ومحفز للأحاسيس، ويشحذ النفوس نحو هدف ديني، هو الاقتداء بهذه النماذج المشرقة، والتي خلدها هذا التاريخ.

تلك كانت ملامح المنهج التعليمي الذي اتخذ من القصة وسيلة لتعليم التاريخ وجذب شباب القراء نحو هذا العلم الجاف. وإن اختلفت طرق التناول ونوايا المبدعين لدى كل من جورجي زيدان الذي احتفى بالمغالطات والتركيز على بؤر التمزق وإثارة الفتن وحلقات الضعف

---

١ - التيار الإسلامي في قصص السحار، ص ٩٥، بتصرف.

السياسي في تاريخ الأمة الإسلامية، فضلاً عما قام به من تحقير للنماذج المشرقة في التاريخ الإسلامي، والعبث بالقيم والفضائل الإسلامية لتشويه تاريخ الأمة وتنفير الشباب من هذا التراث وبناته من العظماء والعمالقة، أما السحار فكان يحتفي بالمعلومات التاريخية، ويتحرى مصادرها وصدقها، ويسعى لحسر الغبار عن شواهد العصر الإسلامي المطهمة الذين تجسدت من خلالهم القيم الرفيعة والمعاني الإنسانية السامية والبطولات العظيمة..

فجسدت هذه الشخصيات كل هذه القيم والمعاني المشرقة التي ربما غابت أو حوصرت في مجتمعه (واقعه)، فراح يبتغيها في التاريخ الإسلامي، مما يفسح للسحار مكاناً بين كُتَّاب الرواية التاريخية الإسلامية في العصر الحديث الذين ينطلقون في بناء رواياتهم وشخوصهم على أساس من الحقائق التاريخية الناصعة ومن خلال رؤية أو تصور إسلامي خالص.

فرؤية السحار للتاريخ الإسلامي تنطلق من الإجلال والتقديس لهذا الرافد الإبداعي، يتعامل معه بيقين وصدق، فما هذا التاريخ إلا واقع لمن عاشوه من الأنبياء والمجاهدين والقادة، ممن يتمتعون بقدسية هائلة في وجدان الأمة. بخلاف زيدان الذي روج الأكاذيب والأغاليط بغية النيل من هذه القدسية أو التشويش عليها في ذاكرة أبناء الإسلام والاحتفاء بالنصارى (الروم - والقبط) والإعلاء من مكانتهم ونسبة الفضائل والتحضر إليهم، مما يخلق حباً في قلوب المتلقين، وينفرهم في الوقت نفسه من عادات المسلمين وتقاليدهم وأفكارهم.

ثانياً: المنهج التنظيري أو التوظيفي (الإسقاط):

تخطو الرواية التاريخية خلال العملية الإبداعية خطوة فنية متقدمة، بحيث تبدو في عالم الفن أعمق عن سابقاتها، من إبداعات زيدان أو السحار، فيعرض الأديب شخصياته التاريخية أو المستلهمة منه في إطار فني لمعالجة قضية ما، قائمة في الواقع المعاصر أو يرمز بها إلى شخصية معاصرة، ويحاول المبدع من خلال الإسقاط أو التنظير - تنظير الماضي بالحاضر - أن يهيئها لتحمل هموم الأمة، وتصور أزماتها، كي تصنع - ولو على الورق - آمال الأمة وطموحاتها في غدق مشرق فيتعانق الفن والتاريخ لإيجاد نماذج (شخصيات) قادرة على الاستعلاء فوق هذا الواقع واجتيازه وتخطيه لما هو أسمى منه (الغد المأمول)..

من أبرز كُتَّاب هذا التيار ممن عنوا بتقديم الشخصيات الإسلامية في إبداعاتهم الروائي الكبير علي أحمد باكثير[1] الذي يعد (الامتداد المتطور لفن الرواية عند من سبقوه، تعينه على ذلك ثقافته الإنجليزية، وتمكّنه من العربية، وحميته الإسلامية معاً، فيختار من التاريخ ما تميز

---

١ - ولد علي أحمد باكثير في بلدة سوربايا بأندونيسيا في عام ١٣٣٠هـ/ ١٩١٠م لأبوين حضرميين.

من أهم مؤلفاته التي تتجاوز الثلاثين عملاً:

١- الروائية: وا إسلاماه، سيرة شجاع، سلامة القس، دار ابن لقمان، والثائر الأحمر، جلفدان هانم.

٢- المسرحية: هاروت وماروت، جبل الغسيل أوزوريس، أخناتون ونفرتيتي، روميو وجولييت (مترجمة عن شكسبير شعراً) والملحمة الإسلامية.

٣- الدراسات: فن المسرحية من خلال تجاربي الذاتية..

راجع: الاتجاه الإسلامي في أعمال باكثير القصصية والمسرحية - عبد الرحمن صالح العشماوي..

بالحركة الخارجية.. وبإدراك فني ناضج يبرز انعكاس هذه الحركة على النفوس، وعلى تطور الأحداث في وحدة متناسقة إلى حد كبير..[١].

وقد بدأ علي أحمد باكثير بهذا الوعي الإبداعي لمعطيات التاريخ، لا سيما عندما يوظف في أعمال فنية ينطلق نحو الإبداع (الروائي التاريخي) فأنتج «سلامة القس» وهو ما يناسب كاتباً مثله في مرحلة الشباب (يتعلق بالمُثل الإلهية، ويعيش بوجدانه أكثر مما يعيش بعقله)[٢]، ثم لفت نظره بعد ذلك تلك الأحداث العظام التي وقعت في التاريخ الإسلامي، وكان عالمه مسرحاً لها، فلم يجد مندوحة من استلهام هذا التاريخ والاتّكاء على أحداثه وشخوصه، لاسيما، وظروف العالم الإسلامي خاصة في الوطن العربي كانت عند إبداع رواياته ذات تأثير عظيم في توجيه اهتمام الكاتب - باكثير - إلى طبيعة المشكلات التي يتناولها في رواياته، فأصدر في الأربعينات - وتاريخ تلك الفترة يشير إلى الصراع القائم والمحتدم بين المسلمين العرب واليهود في فلسطين السليبة، كما كانت تزدحم ساحة الفكر آنذاك في الوطن العربي بالأيديولوجيات المتصادمة مع الإسلام كالشيوعية والرأسمالية- رواياته «وا إسلاماه» و«الثائر الأحمر» و«سيرة شجاع» فجاءت انعكاسات لهذا الصراع الدائر على مختلف المستويات السياسية والفكرية والاقتصادية، كما أنها تكشف عن خبرته الفائقة بالنفس البشرية وطبائعها، وسبر أغوارها في إطار من التصور المرن الذي يحدد علاقاتها الطبيعية

١- الواقعية في الرواية العربية ص ٢١٠، د/ محمد حسن عبد الله/ سابق.

٢- المرجع نفسه، ص ٢١٠ .

بالكون، ومفرداته الحية من الموجودات بوعي ويقظة تامة، وكأن المؤلف بصنيعه هذا، (يستنهض الهمم الإسلامية أن تتحرك لدفع أخطار التتار الجدد عن فلسطين كما فعل أجدادهم وأسلافهم من قبل، إذ كانت الحمية الإسلامية، والغيرة على دين الله دافعاً قوياً لتجميعهم وتضامنهم أمام الخطر الواحد، ولعل ذلك ما يوحي به نداء الغوث - وإسلاماه - الذي اتخذه الكاتب عنواناً لروايته)[١].

ففي رواية «وا إسلاماه» نرى شخصية البطل الإسلامي «قطز» التي أولاها الكاتب جل اهتمامه وصنعها على عينه حتى بدت (محاطة بهالة نورانية تستمد نورها من حرارة الفكرة الإسلامية عن الجهاد الديني)[٢].

وباكثير يحتال ليرينا البطل الإسلامي خلال أداة فنية هي «الرؤيا» بوصفها أداة فنية، يطرح خلالها الروائي، (رسالة البطل ودوره في التغيير السياسي والاجتماعي الذي يمهد للإعداد العسكري والنصر على التتار)[٣].

هذه الرؤيا التي رآها قطز في منامه ذهب يقصها على شيخه العز ابن عبد السلام فقال:

أرقت البارحة، ونابني ضيق شديد، فقمت فتوضأت، وصليت النفل وأوترت، ودعوت الله، ثم عدت إلى فراشي فغلبتني عيناي، ورأيت كأني ضللت طريقي في برية قفراء فجلست على صخرة أبكي، وبينما أنا

١- اتجاهات الرواية، ص ٣٩.
٢- الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث، ص ٩٢.
٣- المرجع نفسه، ص ٩٦.

كذلك إذا بكوكبة من الفرسان قد أقبلت، يقدمها رجل أبيض جميل الوجه على رأسه جمَّة تضرب في أذنيه، فلما رآني أشار لأصحابه، فوقفوا وترجل عن فرسه، ودنا مني فأنهضني بقوة، وضرب على صدري وقال لي: «قم يا محمود فخذ هذا الطريق إلى مصر فستملكها وتهزم التتار».

فعجبت من معرفته اسمي، وأردت أن أسأله من هو؟ فما أمهلني أن ركب جواده فانطلق به، فصحت بأعلى صوتي: «من أنت».

فالتفت أحد أصحابه وهم منطلقون في أثره: «ويلك! هذا محمد رسول الله (ﷺ)، وانتبهت من نومي وأنا أحسّ برد أنامله في صدري».

فسكت الشيخ هنيهة متعجباً من الرؤيا، ثم قال: «ما زلت تفكر في الملك وهزم التتار يا قطز حتى أتاك النبي (ﷺ) فبشّرك بهما، إنها رؤيا عظيمة كما ذكرت، فإن تكن صدقاً، فستملك مصر حقاً وتهزم التتار، فإن النبي (صلى الله عليه وسلم) يقول: «من رآني فقد رآني حقاً، فإن الشيطان لا يتمثل بي» [1].

فالتصور الإسلامي الذي يحكم الكاتب وإيمانه بفكرة الجهاد الديني جعلاه يطوع الرؤيا بمفهومها الفني لكي تتلاءم مع التصور الإسلامي للرؤيا، فالرؤيا الصالحة دائماً تكون بمثابة البشرى الإلهية بخير لمن رآها خاصة، والبطل الذي رأى هذه الرؤيا شخصية يعدها الراوية لتتبوأ مكاناً عظيماً في تاريخ الأمة الإسلامية، فالرواية تقدم لنا

١- وا إسلاماه، ص -١٠٣- ١٠٤، علي أحمد باكثير، دار مصر للطباعة - د ت القاهرة. والحديث رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي، كتاب الرؤيا، المجلد الخامس، ص: ٢٢ برقم (١٤).

الشخصية من خلال هذه الرؤيا- التي تساعد بدورها على تطوير الحدث الدرامي، ليواكب ما يطرأ على الشخصية من تغير أو تغيير فتتطور لتقنعنا فنياً أيضاً [١] - شخصية إسلامية ذات مقومات إيمانية جعلت الرسول (صلى الله عليه وسلم) يُحَمِّلها أمانة خلاص الأمة من الخطر الداهم التتار).. والرسول (ﷺ) من رآه فقد رآه حقيقة..

ومن ثم سنرى من مواقف هذا البطل ما يجعله أهلاً لحمل هذه الأمانة التي كانت نفسه دائماً تشتاق لتحقيق تبعاتها..

فعندما سأله الشيخ عن: ماذا يصنع لو تحققت رؤياه هذه، وصار ملكاً على مصر؟: سأرجع إلى رأيك في كل شؤون ملكي، فأقيم الشرع، وأنشر العدل، وأحيي ما أمات الناس من سُنّة الجهاد) [٢].

وما يفعل ذلك قطز - لو ملك مصر - إلا من وعيه بدينه الذي خلقه هذا الخلق العظيم، وكأن الرجل ينظر بعين الواعي بعلل الأمة وأمراضها في شتى شؤون الحياة، ولن تُشفى وتصحّ إلا بإقامة الشرع ونشر العدل وإحياء سنة الجهاد.

وعندما تحققت له هذه الرؤيا النبوية (التي بايعه فيها النبي)، واعتلى سرير الملك في مصر، فلما وجد بعض الغضب من بعض الأمراء، شرح لهم وجهة نظره: «إني ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتار، ولا يتأتى ذلك بغير ملك قادرٍ فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو فالأمر لكم، أقيموا في السلطنة من شئتم، وإذا كان فيكم من يرى نفسه

١- الرواية التاريخية، ص ٩٦/ سابق.

٢ - وا إسلاماه، ص ١٠٥ .

أقوى مني على الاضطلاع بهذا الأمر، فليتقدم إليَّ لأحلّه محلي فيعفيني من هذه التبعة العظيمة، ويتحمل مسؤولية حفظ بلاد الإسلام أمام الله) [١].

فقطز لم يخلع السلطان المنصور حاكم مصر آنذاك طمعاً في ارتقاء كرسي الملك، أو السلطة في مصر، ولكن ما صُنْعه هذا إلا لتخوفه من انضمام ملك دمشق إلى التتار ومعاونتهم في مباغتة مصر، والقضاء عليهم، وبهذا تكون ضاعت بلاد الإسلام، فلم يكن طامعاً في شيء مما يجول بخواطرهم، ولو كان الأمر كذلك لما أحل نفسه من أمر القيادة إذا وجدوا فيهم من يستطيع تحمل هذه الأعباء فيتحمل أمانة المحافظة على بلاد الإسلام أمام الله (عز وجل)، ولقد صحت وجهة نظره بدليل أن صاحب دمشق فاوض التتار، ليساعدوه على غزو مصر، مما شق على الملك المظفر قطز فدعا السفير الشامي وقال له: أما يستحيي صاحبك أن يستنجد بنا على عدو الإسلام، ثم يستنجد به علينا، إذا لم يكن عنده إسلام فلتكن عنده مروءة!.. أيرضى لنفسه ولدينه أن يتطوع لأعدائه وأعدائنا وأعداء الإسلام، فيعينهم علينا، ويمهد لهم السبيل لغزو بلادنا، والقضاء على ما بقي فيها من دين وإيمان؟ والله لئن لم يكفّ عن خيانته للدين لأسيرن إليه فأحطمه قبل التتار!..» [٢].

فقطز لم يقرع الرجل ولم يلمه إلا لكونه انضم إلى أعدائه وأعداء الإسلام قاطبة، فإن ما يعنيه قبل كل شيء، هو أن تبقى أرض الإسلام

١- الرواية، ص ١٦٩.
٢- الرواية، ص ١٧٠.

مصونة، يتمتع أبناؤها بالحرية التي يكفلها لهم دينهم الحنيف، إذن ففي ضياع هذه البلاد ضياع للدين والإيمان فيها، خاصة العدو يضمر عداوته للدين قبل كل شيء.. فالعقيدة وما تصنعه من معطيات حيوية سامية هي التي تحرك قلب هذا البطل العظيم ووجدانه.

وعندما أرسل هولاكو (قائد التتار) إلى مصر رسلاً يحملون كتاباً بأمر قتالهم لجند مصر، فاستشار السلطان «قطز» الأمراء فيما يجيب التتار به، فأشار معظمهم أن يتقوا شره ويتفقوا معه على مال يؤدونه إليه كل سنة، وأنه لا فائدة من مقاومة التتار، فما كان من الملك «قطز» البطل المسلم إلا (أن يغضب غضباً شديداً، واحمر وجهه حتى كاد الدم ينبثق منه، وجعل يقول بصوت أجش:

«إن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [1]. وأنتم تريدون منا أن نعكس، الآية وتقول: «حتى تعطوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون؟ «ثم قام إلى كبير الجماعة فاختطف منه سيفه فكسره على ركبته ثم ألقاه أمام صاحبه، وهو يقول: «إن السيف الذي يجبن حامله على القتال لخليق أن يكسر هكذا ويلقى في وجه صاحبه») [2].

فالبطل الإسلامي قطز لا يخنع ولا يذل للتتار، أو لأمرائه الذين أشاروا عليه بمهادنتهم، كيف ذلك؟ وهو المسلم الذي تربى على القيم والمبادئ السامية، هذا الإسلام الذي صنع الأبطال طيلة القرون التي

---

١ - التوبة من الآية ٢٩.

٢- الرواية، ص١٨٠.

سبقته، كيف يتخلى عن هذا الكم الهائل من المعطيات الروحية التي بثها الإسلام في روحه ونفسه؟ وإلا ما كان أهلاً لرؤيا النبي - ﷺ - والذي دعا له الشيخ ابن عبد السلام بتحققها له، فبأي وجه يقابل هذا الشيخ، وذاك النبي الذي توسم فيه الخير والحب للإسلام، وأين يضع أمانته التي حملها على عاتقه من يومها؟!.

بهذا التدفق والعزم الأكيد جهز السلطان جيشه، وسار إلى التتار وهاجمهم في المعركة الشهيرة في عين جالوت، أبلى خلال المعركة هو وجنوده بلاءً حسناً، أحرزوا به النصر المبين، فما كان من البطل الإسلامي العظيم «قطز» (إلا أن يخرّ ساجداً لربه، شاكراً لربه، شاكراً لما اجتباه من أنعمه، وأطال السجود، ثم رفع رأسه والدموع تتحدر على لحيته حتى سلم من صلاته، فامتطى صهوة جواده، وخطب في جيشه قائلاً: أيها المسلمون! إن لساني يعجز عن شكركم، والله وحده قادر على أن يجزيكم الجزاء الأوفى، لقد صدقتم الله الجهاد في سبيله، فنصر قليلكم على كثير عدوكم، قال تعالى: ﴿ **إن تنصروا اللهَ ينصرْكُمْ ويُثبّتْ أقدامَكُم** ﴾ قال عز وجل: ﴿ **كم مِنْ فئةٍ قليلةٍ غلبتْ فئةً كثيرةً بإذن الله واللهُ مع الصابرين** ﴾.

إياكم والزهو بما صنعتم، ولكن اشكروا الله واخضعوا لقوته وجلاله، إنه ذو القوة المتين، وما يدريكم لعل دعوات إخوانكم المسلمين على المنابر في الساعة التي حملتم فيها على عدوكم من هذا اليوم العظيم، يوم الجمعة في هذا الشهر العظيم، شهر رمضان، كانت أمضى على عدوكم من السيوف التي بها ضربتم، والرماح التي بها طعنتم، والقسي التي

عنها رميتم، واعلموا أنكم لم تنتهوا من الجهاد، وإنما بدأتموه، وأن الله ورسوله لن يرضيا عنكم حتى تقضوا حق الإسلام بطرد أعدائه من سائر البلاد، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، ألا فترحموا على إخوانكم الذين علم الله ما في قلوبهم من الإيمان والخير فاختار لهم الشهادة والجنة، واختار لكم النصر والبقاء، لتعودوا للجهاد في سبيله، وما عند الله خير وأبقى) [١].

بهذا الحديث يعزف البطل سيمفونية رائعة من سيمفونيات العقيدة الإسلامية الباهرة، فإنه يحسم مجموعة من الأمور التي ينبغي للمجاهد المسلم أن يعيها جيداً، فالنصر من عند الله، وما هم إلا أداة حققت هذا النصر، فلا ينبغي أن يغتروا بما أحرزوا، فإن دور الدعاة والمخلصين من أبناء الأمة هناك في مصر لم يقل عن دور من حاربوا، بل ربما يفوق ما صنعته أسلحتهم على مضائها، وأن طريق الجهاد في الإسلام ما يزال ممتداً في جميع الاتجاهات في الحياة، سواء في الحرب حتى تخلص للإسلام جميع دياره، أو في السلم. فالرسول - ﷺ - قال عند رجوعه من إحدى غزواته: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، ألا وهو جهاد النفس الإنسانية الأمّارة بالسوء، وأن من قتلوا من إخوانهم لا يقلّون عنهم شجاعة، ولكنه اختيار الله لهم لعلمه بما في قلوبهم من الإيمان والخير، فاختارهم في ضيافته هناك عند ربهم أحياء يرزقون..

فآيات النجاح الإبداعي لباكثير في هذه الرواية لا تعد، ولعل أهمها هي مصداقية هذه الشخصية مع التصور الإسلامي الذي يُعدّ أبرز

١- الرواية، ص ١٩٩- ٢٠٠.

وأغنى شخصية في إبداعه الروائي، حيث استطاع بمقدرته الإبداعية أن يجلي هذه الفكرة - فكرة الجهاد الإسلامي وامتدادها - بثرائها الإيماني الفريد على امتداد الرواية، منذ ولج عالمها البطولي بالرؤيا الصالحة للبطل الإسلامي.

هذه هي البطولة الإسلامية في التصور الإسلامي الذي يعبق بعبير الحب والتوادّ، الذي يحتوي الكون في مجموعه، ينظر علاقاته مع الإنسان والطبيعة والحياة بشمولها.. فكانت شخصية قطز ملتقى هذه المعطيات الإنسانية والإيمانية الزاخرة بالفضائل والقيم السامية، فلم يخن الوطن، أو يغتصب الملك أو يتخلى عنه إلا عندما اصطدمت طموحاته بمقدرات الوطن والدين انحاز إليه منهج الله عز وجل الذي يقيم مثل هذه العلاقات على أسس عقائدية خالصة قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ (١)

ويقول عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ (٢).

١- سورة التوبة، الآية ٢٤.

٢- سورة المجادلة، الآيات (٢٠، ٢١، ٢٢).

خلال هذه الرؤية التي تطرحها الآيات تنطلق شخصية باكثير نحو تصميم علاقات متنوعة من الكون والحياة والناس وجهادها في شتى الجهات، وعلى مختلف الجبهات، فهي شخصية تتميز بردّ فعل تجاه ما يعرض لها من مواقف أو أحداث، تخطئ وتصيب مثل كل البشر، لكن المحصلة النهائية توحي بالأمل، وتترك في المتلقي التأثير المقنع وفق التصور الفكري المقبول..

وكأن الكاتب أراد أن ينشّط ذاكرة الأمة، ويُثري واقعها بهذه النماذج الإنسانية الرائعة في عالم البطولة والجهاد الإسلامي في تاريخ الأمة الإسلامية، ليس في مصر وحدها، بل في العالم الإسلامي كله...

ومن المبدعين الذين واكبوا باكثير في منهجه التنظيري أو الإسقاطي الذي يوظف التاريخ في صناعة نماذج فنية ذات رؤية عميقة تتجاوز الواقع التاريخي، وتتمرد عليه، وتتعداه إلى الحاضر المعيش قضاياه ومشكلاته وشخوصه، لإيقاظ الوعي الديني والقومي ولفت أنظاره إلى هذا الواقع لمعالجته، أو التمرد عليه، ومحاولة الخروج من الشعور بالهزيمة أو السقوط، فتراه يبحث وينقب في التاريخ عن البطولات الشعبية (بطولات الأمة لا الأفراد)، ليقدم النموذج الإسلامي الفريد، القادر على مواجهة مشكلات هذا الواقع، لا سيما، إذا كان الواقع الذي نعيشه واقعاً متهرئاً ومهزوماً، مثل هذا الواقع الذي عايشه - وما زلنا نعيشه - الأديب: نجيب الكيلاني...

خلال هذه الرؤية الإنسانية للتاريخ أبدع نجيب الكيلاني مجموعة من رواياته الخالدة (اليوم الموعود، مواكب الأحرار أو نابليون في الأزهر،

عمر يظهر في القدس، رمضان حبيبي - أرض الأنبياء - رحلة إلى الله، وغيرها من الروايات التي احتفلت بتاريخ مصر والعالم الإسلامي، يلتقط الكيلاني حادثة من حوادث التاريخ الإسلامي. لا سيما، تلك التي اختلطت فيها الهزائم بالانتصار، والآلام بالآمال، يحاول خلال العملية الإبداعية أن يصهر هذا كله في بوتقة واحدة، ليصنع منه عالماً روائياً فريداً، يؤكد على بعث روح النضال الكامنة في أعماق الأمة المسلمة، وريثة الأمجاد التاريخية العظيمة على امتداد تاريخها الحضاري الطويل، مبرزاً الجانب الحقيقي في شخصية هذه الأمة.. الجانب الإيماني الطموح.

من خلال وعي نجيب الكيلاني بفلسفة التاريخ الإسلامي وحركته، يقفز فوق البطولات الفردية مما احتفلت به كتب التاريخ المدونة ليصل إلى نقطة الإشعاع البطولي، ومنبعه في أي معركة أو حادثة من حوادث التاريخ. فإن ما يشغله ليس الأفراد وإنما النشاط الجمعي الذي يصنع هذه القيم ويحسم هذه المواقف، فمن المؤكد أن الجموع الشعبية التي تهب ثائرة في وجه الطاغية أو المستعمر، وتُشكّل الأحداث لا بدّ دبّرها مهنيون وتجار ورؤساء طوائف وعلماء دين) [1]. وغيرهم من فئات المجتمع، يحاول الكيلاني أن يرمز إلى جهاد هذه الطوائف من خلال شخصية لا يهم أن تكون حقيقية أو مخترعة، الأهم أنها ترمز إلى شعب بأكمله إلى مجموعة من القيم الإسلامية التي تحكم هذا الشعب أو الأمة كي تستطيع أن تضّطلع بمهام الخلافة في الأرض التي خلقه الله عز وجل من أجل أن يقيمها.

١- راجع تحليل رواية مواكب الأحرار، للأستاذ / محمود حنفي كساب - مجلة المسلم المعاصر، عدد ٣٠، رجب ١٤٠٢هـ/ يونيو ١٩٨٢م.

ولعل الكيلاني يريد القول - من خلال هذه الرواية - لكل المسلمين على اختلاف أوطانهم بأن الحضارة الغربية وسدنتها ما يزالون على عهدهم وإصرارهم على استمرار حربهم الصليبية ضد الإسلام في كل مكان، وها هي ذي تبعث إلينا مع مطلع كل شمس، في يوم جديد، جناحاً جديداً من عساكرها وعتادها كي تستولي على جزء من ديار المسلمين، كي يصبح الجسم الإسلامي معتلاً ومريضاً تتساقط أعضاؤه العضو تلو الآخر، كي يسهل الإجهاز عليه بعد ذلك[1].. من هنا كانت رواية «مواكب الأحرار» ، وكانت شخصية الحاج مصطفى البشتيلي.. المجاهد المسلم عندما هاجمت أرض مصر الإسلامية الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت. فعندما علم بمجيء الحملة الفرنسية على أعتاب القاهرة كان للحاج مصطفى البشتيلي المسلم موقف من هذا الزحف أثار حفيظة زوجته فسألته:

- ألا تأكل يا حاج مصطفى؟

لم يرد عليها، كان احتقان وجهه المستطيل الأسمر، وارتعاشة يديه وبريق عينيه الحائرتين.. كلها تعطي الجواب المؤلم الحزين. مرة أخرى يستشعر الحاج مصطفى البشتيلي مذاق العجز بمرارته وعذابه، فينتابه شقاء ما بعده شقاء، لحظات عصيبة، الموت أهون منها..

وعادت زوجته تقول:

- ولماذا لا ترحل؟

التفت إليها بوجه مكفهر:

١- المرجع نفسه.

- إلى أين يا امرأة؟

- إلى أعماق الريف البعيدة، أو نتجه ناحية برّ الشام، ولدينا من المال والمجوهرات ما يكفينا طول العمر..

لشدة ما ضايقته هذه الكلمات، وحزت في نفسه! الحاج مصطفى يهرب! يا للمهزلة! وتمتم:

هل أصابك مس من الجنون؟

وما جدوى انتظارنا؟ إنه الانتحار بعينه.. غداً يدهمنا هؤلاء الغزاة الكفرة ويجردوننا من كل ما نملك، وقد يقتلوننا.. أنا لا أطيق الحرب، ولم تعد أعصابي تحتمل ذلك العنف كله.. وأولادي كيف نفرط فيهم ونعرضهم للمخاطر؟

ولوح بيده متوعداً، وصرخ:

- كفي عن هذا الهراء.. إذا لاذ الجميع بالفرار، فلمن تكون تلك الديار؟

وكيف نقابل الله وقد تقاعسنا عن الجهاد في سبيله؟ ولسنا وحدنا يا جاهلة (١).

فالحاج البشتيلي يقف من الحملة الفرنسية على وطنه موقف المؤمن الذي يعي تعاليم دينه تماماً، موقفاً ينمُّ عن شجاعته وشهامته وعزته التي تأبى أن تُراق جميعها في مهاوي الجبن أو العجز، إن الإسلام الدين الذي يعتنقه ينأى به عن أن يذل أو يخون، والفرار من وجه

١- مواكب الأحرار، ص ١٨- ١٩، نجيب الكيلاني، مؤسسة الرسالة، ثانية ١٩٨٥، بيروت.

الطوفان وعدم مواجهته وإيثار السلامة ليسا من شيم المسلم، فالمسلم القوي خير وأحب إلى الله من المسلم الضعيف، والحاج مصطفى مسلم قوي يرى حياته في البقاء والمواجهة، أما الفرار وإيثار السلامة فهما الموت بعينه، ولو امتدت أسباب الحياة..

وعندما يصدر نابليون منشوراً يَعِدُ فيه أهل مصر ممن يهادنونه ويكونون معه، وأنه أسلم، وهو منهم وليس عدوهم، يقرأ الحاج مصطفى البشتيلي المنشور، إلا أنه يفطن لخداع نابليون وكذبه وتآمره على طوائف الشعب.

(هكذا يكشف الذئب عن نواياه!.. إنه يقسم البلد إلى طوائف، سيحارب طائفة، ويهادن أخرى، أما من يعرف واجبه الوطني، وينفذ ما يمليه عليه ضميره ودينه، فلسوف تحل به لعنة الرجل المؤمن، الموحد بالله المسلم العريق نابليون بونابرت!) [١].

فهذا تعليق من رجل يقظ، فطن لما يجري حوله،لا يستسلم ويهرب من وجه العاصفة كما فعل غيره [٢]، ويؤثر سلامته، وأولاده وأمواله، لاسيما، وهو التاجر الذي تعد الحروب مغنماً لأمثاله، إلا أن الواجب الوطني والضمير الديني يمنعانه من ذلك منعاً، ويثبّتان قدميه على الجهاد.. نِعْمَ الإسلام صانع الرجال..

من منطلق هذا الواجب الوطني والديني نحو بلاده، فإنه يتبرع بماله ليشتري به السلاح والبارود كي يوزعه على رجال المقاومة الشعبية وهو

١- الرواية، ص ٣٥.

٢- الهارب صديقه تاجر البارود أحمد المدبولي الذي فر من وجه الزحف.

وابنه وزوج ابنته معهم مما أثار الدهشة على وجه زوجته التي صرخ فيها محتداً:

(أيتها الجاهلة، لقد استطاع عثمان بن عفان خليفة رسول الله (ﷺ) أن يجهز جيشاً كاملاً من ماله في صدر الإسلام، وما عند الله خير وأبقى، والدنيا كلها لا تساوي عند الله جناح بعوضة.. لقد شغلتك الدنيا عن كل معنى نبيل، فلم تعودي تفكرين في شيء سوى أولادك وبالمال، والخنوع للحياة الدنيا، حتى اكتنز بدنك، وأصبحت كخنزير كبير! منذ متى كنت تعترضين مشيئتي؟.. لا تنسي يامرأة أنني هنا الرجل، رب البيت.. أتفهمين؟) [١].

فالبشتيلي يؤمن إيماناً جازماً بأن المال قيمته في كونه يدفع عن الناس البلاء، لا في كنزه، فالدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة.. أما القيمة العظمى ففي المعاني النبيلة كل خير، وما المال الذي بأيدينا سوى مطية لتحقيق هذه المعاني السامية..لم يمنعه من الإنفاق كونه تاجراً يعي قيمة المال، ولا إلحاح زوجته تدعوه إلى التخاذل والفرار، فجاء موقفه صلباً عنيداً لا يلين.

وعندما يستشهد زوج ابنته في الحرب وتجزع ابنته وزوجه يهمس الحاج:

- لقد مات مصطفى الفرماوي..

وقالت الزوجة:

- لشد ما حزنت عليه، لكن الموت لا يمكن التحايل عليه، انتهى الأمر.

١- الرواية، ص ٤٥.

قال الحاج:

- لم ينته بعد.. موته بداية.. الذي مات فعلاً هو أحمد المدبولي.

- بل يحيا في أمان على أرض بعيدة.

- إن حياته بداية موت أبدي..ومصطفى لن يموت.

وأخذ الحاج يدق الأرض بقبضته ويصرخ بأعلى صوته:

- ومصطفى لن يموت.. لن يموت.. لأنه أنا وأنت وكل الشرفاء المؤمنين.. لأنه هذا الشعب.. إنه فوق كل عوامل الموت والفناء.. أتفهمين؟؟) [١].

نعم لم يمت مصطفى في نظر الحاج البشتيلي، لأنه شهيد، والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، وكأن لسان حاله يقول لزوجه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [٢].

.. يا امرأة إن زوج ابنتك حي في ذاكرة الأمة، وكذلك عند ربه، ألم يقل الله تعالى: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [٣].

١- الرواية، ص ٥٨، ٥٩.

٢- سورة البقرة، الآيتان ١٥٣، ١٥٤.

٣- سورة آل عمران، الآيات ١٦٩، ١٧٠، ١٧١.

فالبشتيلي مؤمن بما عند الله من الفضل والنعمة والخير المعد للشهداء لذا فهو يطمح، إما في الحياة الكريمة فوق أرضه، وإما الموت في سبيل الله فينال عز الشهداء..

فالكيلاني حريص كل الحرص على أن تترجم هذه الشخصية عن المعاني البطولية الإسلامية التي تضرب بأسبابها في عمق العقيدة الثابتة، والإيمان العظيم القادر على تقديم مثل هذه النماذج الإنسانية (المثال البشري) في هذا المقام. فيحرص على أن يكون سلوكها وحديثها إسلامياً لا يخرج عن قيد هذا الإطار ولو لمسافة شعرة واحدة في رأس حليق!!

فالتصور الإسلامي لبناء الشخصية الإسلامية، ووعي الكيلاني بحركة التاريخ الحضارية، في الإسلام جعلاه يضع يده على مناطق الضوء في التاريخ الإسلامي، ليفرز هذه النوعية الرائدة من النماذج البشرية، وهي تجاهد في ثورة عارمة كي ينماز الحق من الباطل.. الإسلام بمعطياته الهائلة من مقومات الحضارة، والصليبية بمعطياتها الهائلة كذلك من الحقد والتعصب الأعمى.

وعندما تنتهي الجولة الأولى من المواجهة بين أهل القاهرة والفرنساوية، ويقتل مجموعة من ضباط الحملة وعساكرها، يُقبض على الحاج مصطفى البشتيلي بتهمة التمرد ويُهان ويجلد بالسياط، إلا أنه يتنهد في أسى ويمضي في الطابور الذليل رافعاً رأسه قدر ما يستطيع، لكن كلمات حلوة تنسكب على قلبه المشتعل، «كل شيء يهون في سبيل

الله، كل شيء يهون من أجل الوطن وحرماته.. الصبر طيب يا فرط الرمان» (١).

فبرغم ما يقاسي من آلام جسدية ونفسية مبرحة إلا أن قلبه ما يزال مترعاً يفيض من الإيمان يكاد يغرق الآلام والعذابات، ويستبدل بها عزيمة وقوة لا يستهان بها، فالجهاد في سبيل الله فريضة إيمانية لا يكتمل الإيمان إلا بها. لا سيما إذا ووجه الإنسان بما ووجهت به هذه الشخصية. ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ (٢).

فالإسلام الذي كتب عليه القتال لديه من المعطيات الإيمانية ما يثلج صدره، ويثبته على اليقين الرباني، فآلام سياط برتلمي لم تتجاوز ثيابه إلى جسده الطاهر، فإيمانه أقوى من أن تناله سياط هؤلاء الخنازير، فلقد قال لنفسه:

«الأمور أهون مما يتصورون.. ما العمر؟ إنه حيز زمني محدود.. له نهاية،لا يوجد فرق كبير بين أن تكون النهاية اليوم أو غداً.. لقد استطعت أن أؤدي بعض الواجب، ولا شيء يقلقني سوى أن هؤلاء الأوغاد ما زالوا يتحكمون في مصائر العباد، لكني واثق أن ذلك لن يطول أمده...) (٣).

١- الرواية، ص ١٣١ .

فرط الرمان: بائع قارورات الخمر في القاهرة، وهو رومي الأصل، تعاون مع الحملة الفرنسية عندما جاءت إلى مصر وأصبح من رجالاتها.

٢- سورة البقرة، الآية ٢١٦.

٣- الرواية، ص١٣٢.

وعندما يُودَع مع زملائه من المجاهدين في سجن بارتلمي (بائع قارورات الخمور) الذي اتخذته الحملة الفرنسية عيناً لها على المصريين والمماليك، وأفسحت له مكاناً لائقاً في مناصبها القيادية، ويجزع أحد الرجال ويلقى باللائمة عليه لأنه يُحَرض الرجال، وها هي ذي النتيجة أنهم في غياهب السجن:

فينهره الحاج مصطفى البشتيلي ويصرخ فيه:

- كفى! إنك تتكلم بوحي من ضعفك وهزيمتك.

وصمت الرجل، بينما استطرد البشتيلي:

- ما هكذا يجب أن تناقش الأمور.. إن الباطل كان دائماً أقوى من الحق من حيث العدد والعدة، لكن النصر كان من نصيب أصحاب الحق، لأنهم يدافعون في استماتة عن شيء أصيل يؤمنون به، ولأن الله معهم..هل نسيتم تاريخكم؟؟ كان الرسول وبضعة نفر يواجهون رجالات مكة وكبراءها، وكانوا يقاسون شتى صنوف العذاب.. وبعد سنوات قليلة كانت كلمة التوحيد ونور الهداية ينشران أريجهما العطر فوق الجزيرة العربية والشام وفارس وجزء كبير من بلاد الرومان.. إن الهزيمة المؤقتة التي منينا بها ليس معناها الموت.. إنها حلقة واحدة من سلسلة طويلة من النضال من أجل الحق الصريح، إن من قبلنا كانوا يُنشرون بالمناشير، ويُفَصَل لحمهم من عظامهم، ويتعرضون لامتحانات رهيبة، لكنهم صبروا حتى جاء نصر الله. «وكان حقاً علينا نصر المؤمنين».

وعاد الحاج مصطفى يقول:

- رددوا معي بصوت خفيض: «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنتُ من الظالمين». إنها الكلمات التي نادى بها «ذا النون» [١] ربه، وهو غارق في خضم الكرب العظيم فنجاه الله..

وأخذوا يتمتمون ساعة أو بعض ساعة، لم يتوقفوا برغم الصراخ والسياط القاسية التي تمزق الظهور العارية، وتبدد سكون الليل في القلعة الكبيرة ذات الأسرار الرهيبة) [٢].

فالبشتيلي يستمد هذه القوة الهائلة في تراث أمته المجاهدة على طول الطريق، يستلهم هذه القوة العظيمة التي تمد روحه بزيت الحياة يستمد هذا الفيض البطولي من حياة الرسول (ﷺ) وجهاده في مكة، وما لقيه من مكاره لقاء نشر دعوته، وخلاص البشرية من الجهل والجاهلية. ولو أن الرسول وهن، أو استكان ما تمتعت البشرية بنور الهداية الذي أضاء جنبات الحياة. فأخرج الناس من الظلمات إلى النور. ففي سبيل المبادئ والحرية تهون الأرواح، فإنها مجرد ابتلاءات كي يمتحن الله العزائم، فمن عزم وصبر فله أجره عند ربه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [٣].

١- أورد المؤلف اسم «ذا النون» كما ورد في الآية «وذا النون» إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه، فنادى في الظلمات..) الآية منصوباً على تقدير محذوف (واذكر)، بما يسمى الإعراب على الحكاية، وموضعه في سياق الجملة الرفع على الفاعلية، و«ذو النون» هو لقب يونس عليه السلام.

٢- الرواية، ص١٤٠.

٣- سورة البقرة، الآيات ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧.

هيأ الله الأسباب للحاج مصطفى البشتيلي، وخرج من السجن لقاء رشوة كبيرة قدمها ابنه الحسين لبرتلمي كي يفرج عنه، وعندها فرحت به زوجته وبدأت تراوده للإقلاع عن عاداته القديمة، حتى يصفو له الجو كما كان، وعسى ما رآه في السجن أن يغير طريقته في التفكير والتصرف.

(قال الحاج وهو يصر على أسنانه من الغيظ:

- أعرف كل ذلك.. لقد تغيرت فعلاً.. آمنت للمرة المئة أنه لاحياة بدون حرية، ولاضمان في وجود المحتلين، ولاكرامة بغير ثورة) [١].

ويظل هكذا البشتيلي كالشعلة المتقدمة، توزع ضوأها في كل أرجاء القاهرة، لتنير الطريق أمام التائهين والمتمردين، كي يتبينوا الدرب الصحيح، ولا يتساقطوا في الظلام دونما وعي منهم، فالحاج البشتيلي ابن هذه العقيدة الخصبة التي تترعرع فوق تربتها الطيبة نماذج إنسانية عظيمة تنشد الحب والفضيلة والخير والحرية، وتنبذ التعصب والمكر والخداع وكل الشرور..

يظل هكذا، يقاوم ويبذل من المال والنفس طمعاً في رضى الله عز وجل، وطمعاً في حريته التي يتنفسها في سماء وطنه الحبيب، يظل هكذا حتى يصرع غيلة بعد مواجهة ساخنة مع برتلمي، عندما قُبض عليه وسيق للمحاكمة وهو رابط الجأش ثابت العزم حتى يدهمه برتلمي.

- من يظن أن كلباً تافهاً ضئيلاً مثلك يفعل كل هذا؟؟.

١- الرواية، ص ١٩٣ .

قال الحاج مصطفى باسماً:

- تستطيع أن تقول أي كلام، لكنك لا تستطيع الحكم على الرجال لأنك لست برجل..

احتقن وجه برتلمي وصرخ:

- ماذا؟؟

لا تتعجل يا برتلمي إنني أعرف مصيري جيداً.. لكن اعلم أن البشتيلي لم يكن سوى واحد من عامة الناس، وقَتْلُ البشتيلي لن يخمد الثورة التي تشتعل في القلوب ضدكم.. والمعركة مستمرة يا برتلمي حتى النصر.. والله أكبر..

قهقه برتلمي في شماتة وقال:

- انظر إلى النيران من حولك.

- اللعنة على مشعليها.

- لن تحيق اللعنة إلا بك..

وقال برتلمي فجأة ليحطم كبرياء الرجل العنيد.

- لقد بحثنا عن جثتك تحت أنقاض بيتك، فلم نجد إلا امرأتك وابنتك وقد فاحت رائحتهما المنتنة.

- ضغط الحاج مصطفى على أسنانه، وشعر بما يشبه الدوار، وخيِّل إليه أن أكداساً من الصخور تتساقط على رأسه. لم يكن الأمر خيالاً كما توهم البشتيلي، لأن برتلمي أشار إلى رجاله، فانهالوا على رأس

البشتيلي بعصيهم وبالقضبان الحديدية التي في أيديهم حتى سقط بعد أن تحطمت جمجمته تماماً..

وراح البشتيلي في غيبوبته الأبدية:

وتمتم برتلمي بعد أن انتهى كل شيء:

- لم يكن لدينا وقت للتحقيق والمحاكمة.. لقد انتهى البشتيلي، وانتهت بموته ثورة بولاق) [1].

- بهذا الحسم والتحديد، استطاع الكيلاني أن يقدم شخصية بطل مسلم صنعه الإسلام، فأضاء في سماء الكفاح كنجم وهاج، ثم خبا وتساقط تحت ضربات الغدر والخيانة والخسة، إنها شخصية واضحة في انتمائها إلى الإسلام، وكاتب مجيد يعرف طريقه فأبدع في تصويرها أيّما إبداع.

- تلك كانت ملامح المنهج التنظيري، الإسقاطي «في إبداع الرواية التاريخية في أبرز نماذجها، وكتابها في العصر الحديث.

١ - الرواية، ص ٢٥١ - ٢٥٢.

ثالثاً: منهج التشكيل التراثي:

يحاول المبدع خلال هذا الإطار، أن يبحث عن شكل جديد مستمد من التراث العربي الذي يتمثل في الاعتماد على الرواية، وتعدد المستويات السردية، من نادرة، وعظة، وبيت من الشعر، وحكمة، وأحاديث نبوية، أو آيات قرآنية، أو مقاطع من كتب التاريخ والسير، ليعبر خلالها عن الواقع المتأزّم الذي تحياه الأمة العربية والإسلامية، وتفاعلاته واضطراباته المتلاحقة، لاسيما، إذا كانت (الأشكال الأدبية تعكس في حد ذاتها حركة المجتمع، وتصور مضامينه، وليس عبثاً في فترة غلبة المد الأوروبي - أن تكون الأشكال القصصية في عالمنا هي أشكال أوروبية.. وليس عبثاً أيضاً، أن المجتمع وقد بدأ يكتشف هويته، أخذ في الوقت نفسه يتحسس ما في التراث من أشكال قد تستطيع أن تنبعث من جديد، وأن تتصدى لتيارات العصر)[١]، لا سيما، إذا كانت القضايا التي عُنى بها في تلك الفترة كانت تنبع من تربة المجتمع العربي والإسلامي[٢]، لأن (الشكل لفظ يدل على الطريقة التي تتخذ بها هذه العناصر موضوعها في العمل، كل بالنسبة للآخر، والطريقة التي يؤثر بها كل منهما في الآخر، فهو إذن يشتمل على ضروب من العلاقة، منها تعاقب الحوادث التي تكون عقدة الرواية) [٣].

١ - مقالات في النقد الأدبي، ص ٤/٤، د/ عبدالحميد إبراهيم.

٢ - المبدعون الذين بدؤوا البحث عن هذا الشكل التراثي هم الأدباء الذين عاشوا معاناة العرب وصراعاتهم مع إسرائيل ومن ورائها الغرب، فإن إسهامهم في الرفض والتخلي عن الأشكال المستوردة من الغرب، والاتجاه نحو التراث لإحياء الذاكرة وتأصيل الإبداع العربي، مما يعد شكلاً من أشكال المواجهة الفكرية والثقافية، إذ الإبداع آلتهم الأثيرة التي تشبه آلات الحرب للمقاتلين.

٣ - النقد الفني، ص٣٤٠، جيروم سولينتز ت/د/ فؤاد زكريا - سابق.

من هنا، كان لابد للمبدعين من جيل الستينيات أن يخلصوا في البحث عن شكل عربي، يستمدونه من تراثهم الزاخر بالمقومات الهائلة في الفكر والثقافة، لا سيما، إذا كانت الأشكال المتعارف عليها أصبحت لا تساير طبيعة القضايا المعقدة التي أفرزها الواقع الغربي الآن (فالتعبير عن الحاضر مُنبتّاً عن التراث الماضي لا يساير طبيعة المجتمع ذات الجذور الأصيلة)[١]. فكان هذا الوعي أو الإدراك بحالة الإبداع العربي في فترة من فترات التاريخ العربي المأزومة آنئذ بمثابة إرهاص بميلاد شكل إبداعي جديد، يختلف عن تلك الأشكال التعبيرية المتعارف عليها، أو المستوردة من الحضارة العربية، شكل عربي ينبع في مقوماته ومعطياته من التراث أو الحضارة العربية، يعبر عن هموم الأمة ومشكلاتها المعقدة في الواقع الماثل، لاسيما في ضوء المتغيرات السياسية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية التي اقتحمت على المجتمع العربي والإسلامي عزلته والمعاناة التي عاشها المبدعون خلال خوض مصر والعرب عدة حروب مع المستعمر والمغير الأجنبي أوجدت لديهم الرغبة الأكيدة في تأصيل هوية الإنسان (المبدع - المتلقي)العربي، وهذا التأصيل لا يأتي إلا عن طريق ربط الحاضر بالماضي (البحث في التراث واستلهامه) لا سيما إذا كان هذا الماضي غنياً بمعطيات وتقنيات ذات طابع متميز عن غيره من الحضارات الأخرى التي نعاني من جراء الجري وراءها والإمساك بتلابيبها، مما لا يخفى على كل ذي نظر!!.

وهذا الشكل الإبداعي، الذي يعتمد في بنائه شكل الكتابات التراثية استوحاه الكُتّاب بقصد فني، بغية خلق شكل روائي عربي إسلامي

١- العناصر التراثية في الرواية العربية، ص٢٣٣.

أصيل، يعتمد على الروافد التراثية، ولا يعنى به الشكل الفني في الروايات التاريخية، بل يعنى به الشكل الذي يستوحيه الكاتب من قالب الكتابات والمؤلفات التاريخية، فيقترب الشكل الفني في الرواية من شكل المؤلفات التاريخية التراثية، من ثم يختلف الشكل التاريخي التراثي في الإبداع الروائي عن الشكل الفني للرواية التاريخية، فالأول يعتمد على استلهام الحدث والنص واللغة والشخصية والقالب التراثي التاريخي، فيكون الشكل الفني في الرواية بمثابة محاكاة لشكل الكتابات التاريخية عند المؤرخين، لكنه يحمل أبعاداً فنية وإيحاءات خاصة، فيضحي استلهام الشكل التاريخي ذاته له وظيفة فنية في بناء الرواية، يعتمد على الملامح المستحدثة في البناء الروائي.. بينما الشكل في الروايات التاريخية شكل تقليدي يعتمد على البداية والعقدة والحل، ولا يعنى الكاتب فيه باستلهام شكل الكتابات التاريخية، بل يعتمد على قص الحوادث التاريخية في شكل روائي تقليدي..

فكتاب هذا اللون من الإبداع، إنما يستلهمون شكلاً تاريخياً لا أحداثاً تاريخية (الأحداث أو الشخصيات راهنة، والقناع تاريخي، بينما التقليديون يستخدمون أحداثاً أو مادة تاريخية في شكل روائي)[١].

والكاتب عندما يستقدم شخصيته الروائية في إطار الشكل التوثيقي التراثي، لا يعنينا كون هذه الشخصية حقيقية أو وهمية، ما يعنينا في المقام الأول (أن يجعل لهذه الشخصية حضوراً واقعياً)[٢] على صفحات روايته التي يختلف في مستواها التوثيقي عن المستوى التاريخي السابق.

---

١ - العناصر التراثية في الرواية، ص ٢٧٢ بتصرف، وكتاب «القصة القصيرة في الستينات، ص ١٣٦، د/ عبد الحميد إبراهيم - دار المعارف - اقرأ - عدد ٥٤١.

٢ - العناصر التراثية في الرواية، ص ٢٨٦.

فالكاتب عندما يستوحي في روايته الطرق الجوهرية التي تعتمد عليها المؤلفات التاريخية كالحوليات والنداءات والتقارير والمراسلات والمقتطفات يصبح الشكل الفني شكلاً تاريخياً، وعندما يستوحي طرق تحقيق المؤلفات والمخطوطات التراثية، ويوظفها فنياً في الرواية، حينئذ يصبح الشكل شكلاً حقيقياً يسعى الكاتب من خلاله إلى (إضفاء هالة من الماضي وظلاله على الأحداث والأشخاص والأفكار التي تتحرك عبر آفاق الإبداع الروائي، فتمنحه فرصة الخروج من السياق التاريخي للإسقاط على الواقع المعاصر..)[١].

من ثم، تكون الرواية ذات الشكل التراثي قد مرت بمراحل خلال رحلة الإبداع، أو مستويات تطورت خلالها إلى الشكل الماثل في النتاج الإبداعي، لمجموعة من كتاب الرواية - جمال الغيطاني - محمد جبريل أبو المعاطي أبو النجا، وغيرهم من العالم العربي[٢]، يختار كل منهم من هذه المستويات أو الأطر الفنية (الأشكال) التراثية ما يتناسب مع موضوعه، ويستطيع تجليته أو إبراز ملامحه من خلاله، فلكل موضوع الشكل الذي يناسبه. فالشكل والمضمون كل منهما يؤثر في الآخر (الشكل يولد مع مضمونه.. العلاقة جدلية بين الاثنين)[٣]. من ثم لا يستطيع أحدهما النهوض إلى المستوى الفني دون أن يتكاتف مع الآخر.

---

١ - الرواية التاريخية في أدبنا الحديث ص ـ ٣٥٦، ٣٦٠.

٢- راجع حوار مع جمال الغيطاني عن استعادته التراثية، حاوره جميل حتمل بمجلة الثقافة العربية، عدد ١٨، لسنة ٢٠، أغسطس ١٩٩٥ الجماهيرية الليبية العظمى.

٣- الحوار نفسه.

شخصية المحتسب:

وإذا كانت الدراسة تعنى بالشخصية الإسلامية في هذا الشق (الإطار التاريخي)، فإنها ستختار من هذه الرواية ما يعنى بإبراز دور هذه الشخصية ذات الحضور التاريخي، إلا أن هذه الرواية التي اتخذت هذا الشكل التراثي إطاراً لبنائها الفني لم تعن بإبراز شخصيات تاريخية بالمفهوم الذي ألفيناه في إطار المنهجين السالفين (التعليمي - التنظيري).. أما هذه الروايات فأبرزت شخصيات إسلامية تقترب من النمط الإنساني، تتجلى إسلاميتها في الإطار الوظيفي الذي يرتبط بالدين، أو يتعالق مع مناصبه الاجتماعية التي أرسى منهجها في المجتمع مثل شخصية «المحتسب» الزيني بركات بن موسى «في رواية» الزيني بركات «للأديب جمال الغيطاني» في القاهرة المملوكية، تلك الوظيفة التي ترتبط بالمجتمع الإسلامي، حيث إنها وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين، يعين لذلك من يراه أهلاً له فيتعين فرضه عليه ويتخذ الأعوان على ذلك[١]. في ظل متابعة ومحاصرة ومحاسبة تمنعه من الانحراف حتى إذا شابت تصرفاته شائبة عزل من منصبه فوراً، يخوّل الإسلام لشخصية المحتسب القيام بهذه المهمة الاجتماعية الدينية السياسية الاقتصادية من منطلق رؤية الإسلام لهذه الوظيفة التي يضبط قواعدها بإحكام..

من هنا تعد هذه الشخصية التاريخية التي تقترب من النمط الإنساني المتكرر في التاريخ الإسلامي في مختلف مراحله، منذ مجيء

١ - مقدمة ابن خلدون، ص ٢٤٩ (الحسبة).. سابق.

الرسول (ﷺ) [١].. ومن جاء بعده من الخلفاء التابعين.. عولجت هذه الشخصية في إطار الشكل التاريخي، بحث خلاله الغيطاني عن (الأصالة في الجانب المعنوي، لقد رجع إلى التاريخ، فَلَخَّص جوهر تفكيرنا، ورسم عقليتنا التي تتحكم فينا، إذ الفن العظيم نوع من التاريخ، ليس التاريخ السطحي، ولكن التاريخ الجوهر، الجوهر الذي لايمكن أن يُرى إلا من خلال الفن) [٢]، ولما كان الغيطاني في روايته هذه خاصة يستخدم القناع التاريخي للشخصية، وإن كانت الأحداث ماثلة راهنة، وجدنا معالجتها في الإطار التاريخي التراثي، أقرب من معالجتها في الإطار النمطي..

فالحسبة نظام إسلامي اجتماعي سياسي قديم قدم الإسلام - يقوم خلاله المحتسب بمراعاة بعض الأمور التي تمس شؤون المجتمع الإسلامي، في نزاهة وتجرد - تطور بتطور الحضارة الإسلامية، وأصبح له أسسه وقواعده ونظمه التي تحفظ على المجتمع أمنه وتوازنه، ويضرب على أيدي الخارجين على نظم الشريعة الإسلامية في البيع والشراء، وحفظ الأمن، ومعاقبة الخارجين على الأعراف العامة والتقاليد الإسلامية، فتكاد تدخل في جوانب الحياة المتعددة والمختلفة، ما يجعلها تمثل ظاهرة حضارية إسلامية تستمد خطورتها وأهميتها من أهمية العقيدة التي نبتت منها هذه الوظيفة، أو أوجدت هذا النظام ضمن تشريعاتها الإنسانية العظيمة التي تدعو في جوهرها إلى الأمر

---

١ - يذهب بعض الكتاب أن أول من قام بوظيفة المحتسب هو الرسول (ﷺ) حيث يحمل على عاتقه أمانة النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٢- القصة القصيرة في الستينات، ص١٣٢ - وحوار الغيطاني بمجلة الثقافة العربية.

بالمعروف والنهي عن المنكر في كل شؤون الحياة الدينية منها والدنيوية على حد سواء..

والقرآن الكريم المصدر الأول للتشريع الإسلامي، أولى هذه الوظيفة في جوهرها الديني أهمية قصوى، فأفسح لها من نصوصه مكاناً لائقاً ينبئ عن خطرها في المجتمع، وفي الوقت نفسه تؤصل هذه الآيات لمبدأ الحسبة وضرورة التمسك بها بين جماعة المسلمين، فأعلى من شأنهم لإقامة هذا المبدأ في حياتهم. قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ.. ﴿١١٠﴾﴾[١]، وغيرها من الآيات التي تحض على إقامة الحسبة في المجتمع[٢].

والسنة النبوية في حديث جامع للنبي (ﷺ) يلزمنا بإقامة هذه الوظيفة، وأنها واجبة على جماعة المسلمين، (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان..)[٣].

وأمام هذه النصوص الدينية، نذعن أن هذه الوظيفة قائمة على أساس ديني يطمح إلى تقرير فكرة العدالة في المجتمع الإسلامي ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿٨﴾﴾[٤].

---

١ - سورة آل عمران من الآية ١١٠.

٢ - هناك بعض الآيات التي تشير إلى هذه الوظيفة والتكليف بها: «وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾» آل عمران ١٠٤، والآية ١١٤ من سورة النساء، ومن سورة التوبة الآيتان ٦٧، ٧١، وسورة المائدة، ٨٧، ٧٩، وسورة النور آية ٢١.

٣- سنن النسائي، كتاب الإيمان / باب تفاضل أهل الإيمان / المجلد الثامن / حديث رقم ٥٠٠٨ .

٤ - سورة المائدة من الآية ٨.

فالقيام بهذه المهمة الدينية في المجتمع يعني في جوهره (امتداد مرحلة الروح، وفاعلية الفكرة واستمرارية شحذها، وتجديدها وعدم انقطاعها.. فقد تضعف الأمة وتسقط، وتصاب وتمرض، ولكنها لن تموت، لأن علاجها تحمله في ذاتها، وعلاجها وخيريتها إنما هما باستمرار القيام على الحق، وتقويم سلوك الأمة، أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر كمسؤولية تضامنية مطالب بها كل فرد.. فالدين في غاياته النهائية، هو القيام بحسبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[١].. والدين - كما يقول الرسول (ﷺ) النصيحة[٢].

وقد وضع الإسلام للمحتسب بعض الملامح أو الأسس التي يمكن أن نصفها بالمنهج النابع من المعطيات الدينية، لاختيار هذه الشخصية التي تمثل نموذجاً يرمز إلى العقيدة التي يمثلها، حددها أهل العلم والفقه منها[٣]:

١- الإيمان.. فالحسبة نصرة للدين، والكافر عدو لهذا الدين، لذا وجب أن يتوفر لديه شرط الإيمان فيمن يقوم بأمر الناس بالمعروف ونهيهم عنه.

٢- أن يكون المحتسب مكلفاً من أولي الأمر حتى يشعر أنه يؤدي واجباً، فيؤديه على أتم وجه ويُحاسب إذا قصّر فيه..

---

١ - فقه تغيير المنكر، ص٣١، بتصرف، مقدمة الأستاذ عمر عبيد حسنة - كتاب الأمة، عدد (٤١).

٢ - صحيح مسلم بشرح النووي - كتاب الإيمان - باب بيان أن الدين النصيحة، المجلد الأول، ص ٢٣٧، رقم ٨٧.

٣- المرجع السابق، ص ١٠٦، بتصرف فيما نقل عن بعض المصادر التي توفرت له.

٣- أن يكون المحتسب قادراً على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك حتى يجوز له أن يؤدي هذا العمل، فالعاجز لا تجب عليه حسبة ولا يمكنه القيام بها..

٤- أن يكون المحتسب ذا رأي وصرامة، وأن يأمر عن علم ومعرفة وفقه بالدين وأحكام الشريعة، ليعلم ما يأمر به وينهى عنه، ويعلم كذلك (مواقع الحسبة وحدودها ومجاريها وموانعها، ليقتصر على حد الشرع فيه) [١].

ويلحق بصفة العلم أو الفقه بمواقع الحسبة أن يكون المحتسب عارفاً بأصناف المعايش والمهن والحرف بأنواعها المختلفة، وله خبرة في الموازين والمكاييل حتى يتوصل إلى حيل الباعة في الغش والتدليس.

٥- أن يكون المحتسب عفيفاً عن أموال الناس، ممتنعاً عن قبول الهدية من أرباب الحرفة والصناعات، لأن ذلك يعد رشوة نهى عنها الإسلام في قول الرسول -ﷺ (لعنة الله على الراشي والمرتشي...)[٢]، فامتناعه عن قبول الرشوة أصون لعرضه وأقوم لهيبته.. وتقاه وورعه يردعانه - كما يقول الإمام الغزالي - عن مخالفة معلومة. فما كل من عَلِمَ عَمِلَ بعلمه، بل ربما يعلم أنه مسرف في الحسبة، وزائد على الحد المأذون فيه شرعاً، ولكن يحمله عليه غرض من الأغراض)[٣].

فيعمل المحتسب بما يأمر، وينتهي عما ينهى الناس عنه، فيكون قوله موافقاً لفعله حتى لا يتعرض لسخرية الناس واستهزائهم من ناحية،

---

١ - إحياء علوم الدين، جـ ١، ص٣٦١، الإمام الغزالي، دار الكتب العلمية - أولى - ١٩٨٦ بيروت.

٢ - سنن ابن ماجة - المجلد الثاني / كتاب الأحكام / باب التغليظ في الحيف والرشوة، رقم الحديث ٢٣١٣، ص ٧٧٥.

٣- إحياء علوم الدين، جـ ٢ / ٣٦١، سابق، باب آداب المحتسب.

وتتوفر لدعوته مقومات القبول والتواصل من جهة أخرى، وهذا ما جاء في القرآن الكريم حكاية على لسان سيدنا شعيب عليه السلام حين دعا قومه إلى عبادة الله تعالى، فنهاهم عن نقص المكاييل والموازين والبخس، وعن الفساد في الأرض، قال تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ﴿٨٨﴾﴾ [1]. فخلقه موافق لدعوته (فحسن الخلق، ليتمكن به من اللطف والرفق وهو أصل الباب وأسبابه، والعلم والورع لا يكفيان فيه، فإن الغضب إذا هاج لم يكف مجرد العلم والورع في قمعه، ما لم يكن في الطبع قبوله بحسن الخلق، وعلى التحقيق فلا يتم الورع إلا مع حسن الخلق، والقدرة على ضبط الشهوة والغضب، وبه يصبر المحتسب على ما أصابه في دين الله، وإلا فإذا أصيب عرضه أو ماله أو نفسه بشتم أو ضرب، نسي الحسبة وغفل عن دين الله، واشتغل بنفسه، بل ربما يقدم عليه ابتداء لطلب الجاه والإسلام) [2]. قال تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾[3].

وبهذه الصفات تصير الحسبة من القربات التي تندفع بها المنكرات، وإن فقدت لم يندفع المنكر، بل ربما أيضاً صارت الحسبة منكرة، لمجاوزتها حد الشرع كما يقول الإمام الغزالي.

١- سورة هود، الآية ٨٨.

٢- إحياء علوم الدين، جـ ٢ / ٣٦١، سابق.

٣ - سورة لقمان، آية ١٧.

من ثم، وجد الأدباء لاسيما الروائيون منهم في هذه الشخصية التي ترتبط في وظيفتها بالدين الإسلامي ونظمه السياسية [١] ثراء وحيوية من خلال الطرح الفكري لهذا النظام العقدي الذي تنتمي إليه هذه الشخصية «النموذج الإسلامي»، لاسيما إذا كان الكاتب يحيا فكراً أو أيديولوجية غير متجانسة مع هذا النظام الإسلامي العتيد!!..

لفت نظر جمال الغيطاني[٢] العاشق للتراث الذي يستخدمه تقنية فنية إبداعية في إبداعه الروايات «الزيني بركات» تلك الشخصية الحقيقية التي سجلها المؤرخ المصري ابن إياس في مؤلفه التاريخي (بدائع الزهور في وقائع الدهور)، إلا أن حياة الزيني بركات لا تتجاوز الصفحات الخمس في كتاب التاريخ، أما في رواية الغيطاني فقد أصبحت موضوعاً ضخماً (ومختلفاً تماماً عن الشخصية التاريخية، ممَّا أتاح للرواية ذيوعاً وانتشاراً أثار دهشة كاتبها، حيث ترجمت إلى العديد من اللغات وطبعت ما يقرب من خمس عشرة مرة وبجميع اللغات الحية) [٣].

١- حيث إن نظام الحسبة الآن نظام يمثل إحدى حلقات النظام السياسي في الدولة الإسلامية، من ثم تعبر لفظة «سياسي» هنا عن النظام الشمولي للسياسة فتشمل الاجتماعي والاقتصادي والفكري والثقافي، من حيث هو قائم بمراقبة جميع هذه الأنظمة..

٢- جمال الغيطاني: ولد في التاسع من مايو عام خمس وأربعين وتسعمئة وألف في جهينة إحدى أعمال محافظة سوهاج. من أهم أعماله:

١- الزيني بركات.

٢- هاتف المغيب

٣- التجليات.

٤- حارة الزعفراني.

٥- الزويل.

٦- القاهرة المملوكية وغيرها..

راجع فصول عدد ٣، المجلد ١١، خريف ١٩٩٣، ص ٨٠ وما بعدها.

٣- راجع مجلة الفيصل، عدد ٢٢٨، جمادى الآخرة ١٤١٦، حوار مروان ناصح مع جمال الغيطاني.

فهذه الرواية التي اتخذت من هذه الشخصية (المحتسب) في قاهرة المماليك، في بواكير القرن السادس عشر الميلادي، وهي تكاد تسلم مفاتيحها للعثمانيين، عندما كانت تشهد صعود نجمِ الزيني بركات بن موسى، الصارم غالباً في أداء مهنته العويصة للغاية، وموقف الأخلاق العامة. (كل هذا كان يضعه على ذروة المجتمع المدني بالقاهرة، وأن طبيعة حكمه وسيطرته تغنيان الرواية بمكيدتها الأساسية، وموضوعاتها الأصلية من خلال الصلات التاريخية ذات العلاقة الملحة مع الحاضر الحديث، مابعد الاستقلال وما بعد الثورة)[١].

وأياً كان موضوع الرواية، سواء كان يدور حول هزيمة النظام السياسي في البلاد، من قِبَل قوة خارجية استقوت حديثاً في هاجسه عن طهارة الحياة، عن الأمانة، عن الإصلاح، مَثُلُه عن العدل المستمسك والعدل الجزائي) [٢]. أو (تعالج موضوع القهر الإنساني في العالم كله)[٣]، فإنها باستضافة هذه الشخصية (المحتسب) تكون قد ولجت عالماً آخر يتصل بالدين الإسلامي، من منطلق أن هذه الوظيفة من الوظائف الدينية في الإسلام، ولذا سنحاول مناقشة هذه الشخصية في ضوء هذا التصور الديني للمحتسب ووظائفه...

١- مجلة الثقافة الجديدة، عدد ٨٦، نوفمبر ١٩٩٥.

٢- المرجع نفسه.

٣- راجع عدد الفيصل (٢٢٨).

لنر الزيني بركات من خلال وعي الرحالة البندقي (فيا سكونتي جانتي)[١] في إحدى مشاهداته خلال شهر أغسطس ١٥١٧ الموافق رجب ٩٢٢هـ.

«متولي حسبة القاهرة الزيني بركات بن موسى...

إنه صاحب مناصب عديدة أيضاً، ومسؤول عن حفظ الأمن والنظام، لو رآني فسيتذكرني، أعرف أنه لا ينسى وجهاً عابراً رآه مرة واحدة حتى لو مضى على رؤيته لصاحبه عشرة أعوام..» [٢].

« الزيني يراه أهل القاهرة يومياً ولو مرة واحدة، تدق الطبلخاناة أمامه، يمشي السُّعاة في ركابه.. الزيني دائم التفتيش على أسعار البضائع، يتعقب أوكار الفساد. مشي الناس في الطرقات له قواعد لابد من مراعاتها، الالتزام بها، أحياناً يمنع النساء من ارتداء أزياء معينة، ربما منعهن من الخروج إلى الطرقات لتزايد عبث المماليك في بعض الفترات، آخر زيارتي لمصر، رأيت الزيني بركات قوياً عفيفاً، لاأدري كيف سارت به الحال؟.. ثلاث سنوات تغير الإنسان حقاً، رأيت الزيني ينزل بنفسه، يناقش باعة الحلوى والأجبان والبيض يقف وقتاً طويلاً مع الفلاحات بائعات الدجاج والإوز والأرانب والبط، يسعِّر الأصناف بنفسه، يجرِّس المخالفين في المدينة، أعرف رضاء الناس عنه، حبهم له،

١- لعل الكاتب أراد باستضافة الرحالة البندقي (فيا سكونتي جانتي) في روايته أن يوهمنا بأنه ينقل عن مصادر حقيقية، ليقنعنا بصحة نقوله وأخباره عن طريق التوثيق المزعوم، وكأنه يخشى التشكيك فيما يقوله أو يسجله، لا سيما والرواية تتخذ شكلاً وثائقياً. فإذا كان الرحالة هذا شخصية حقيقية كان الأولى التعريف به وبمصدر نقوله حتى نعثر على هذه المشاهدات ونطالعها.. فالأمر إذن محض خيال ليس غير..

٢- الرواية، ص ٩ - ١٠.

رأيت رجالاً كثيرين، بربراً، وهنوداً وإيطاليين وحكاماً من بلاد الغال والحبشة وأقصى شمال الدنيا، لكنني لم أر مثل بريق عينيه، لمعانهما، خلال الحديث تضيقان، كحدقتي قط في سواد ليلي، عيناه خلقتا لتنفذا في ضباب البلاد الشمالية، في ظلامها، عبر صمتها المطبق، لايرى الوجه والملامح إنما ينفذ إلى قاع الجمجمة، إلى ضلوع الصدر، يكشف المخبأ من الآمال، حقيقة المشاعر.. في ملامحه ذكاء براق، إغماضة عينيه فيها رقة وطيبة تدني الروح منه، في نفس الوقت تبعث الرهبة..» (١).

وعندما أرسلت إليه جارية رومية صغيرة السن لم تتجاوز الخامسة عشرة تستغيث به من سيدها الذي يكبرها بأربعين سنة.. قام لفوره.. شاور العلماء في الأمر تباحث معهم وأفتى شيخهم بصحة ما ينوي الزيني القيام به.. عندئذ توجه الزيني إلى بيت الرجل (العطار) كبس البيت، هاج الرجل، وصار يزعق غاضباً، ما للمحتسب وما للناس في بيوتهم؟ قبض عليه الزيني، أمر ببطحه أرضاً، كشفوه فقيل: إنهم رُوِّعُوا لمنظره ؟..

وأقسم شيخ الحنفية أنه لم ير شيئاً كهذا في حياته من قبل.. قال الزيني: البنت تصغرك بأربعين سنة أليس حراماً أن تؤذيها.. وبهذا، ضربه خمسين عصا ثم أمره بإعتاقها، وفعلاً، أعتقها الرجل مرغماً لكنه لم ينس ما فعله الزيني به...» (٢).

اختلف الناس حول تصرف الزيني بركات، أكد جمع منهم صحة ما قام به، خاصة أن البنت أرسلت تستغيث به لاقترابها من الهلاك، ورأى

---

١ - الرواية، ص ١١، ١٢.

٢ - الرواية، ص ١٢، ١٣ .

فريق آخر أنه تدخل في أخص أمور الناس، وأن أحداً من الخلق لا يأمن على بيته، أو عياله بعد الآن، خاصة بعد تردد إشاعة كبيرة تنفي استغاثة البنت بالزيني بركات، إنما استطاع الزيني معرفة الأمر بفضل طرق عجيبة تمكنه من الاطلاع على أدق ما يجري في البيوت والزوايا....، بقي شعور خفي بالرهبة في أعماق الناس، تعجبوا لمهارة المحتسب، قدرته على النفاذ إلى أدق الأمور التي تخص البيوت، وهذا ما لم يتفق لغيره قط..» (١).

فالرحالة البندقي، يقدم لنا الزيني بركات المحتسب، وهو يمارس مهام وظيفته على أكمل وجه، من مراقبة الأسواق وتسعير الأسعار، ومقاومة المنكر إلا أنه في الوقت نفسه، يقتحم عليهم خلواتهم، ويهتك الأستار عن أسرارهم، ويضع أنفه الطويل في كل شيء في حياتهم، مما يجعلهم يعيشون واقعاً متهرئاً وساقطاً، تنتفي فيه الخصوصية والأمان.

فالإسلام الذي يستمد الزيتي قوته منه في تنفيذ مهام وظيفته الدينية، لم يتح له فرصة التدخل بهذه الصورة التي تجعله يخرج عن إطار تعاليمه، فالإسلام يحفظ للناس أسرارهم، ويحمي خصوصياتهم، فتدخل الزيني بين هذا الرجل وزوجته، فعل غير مبرر إسلامياً ولا اجتماعيا، فهو ينفذ أحكام القضاء، لم يكن ليصدرها، حتى يفرق بين هذا وذاك، كما أن الإسلام رسم شرائع وقنوات تختص بمثل هذه المشكلات.. فالقاضي هو الذي يصدر هذه الأحكام، وبعد ذلك على المحتسب تنفيذها، إن لم تنفذ، فهو القَيِّم على تنفيذ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أما ما قام به فلا يخرج عن كونه منكراً ينكره الشرع والعقل.

١- الرواية، ص١٣ - ١٤.

فالغيطاني، من الوهلة الأولى، يقدم شخصية لا تلتزم بمواصفاتها الدينية، وهذا التوصيف، إما يرجع لجهل الغيطاني بالشريعة وأحكامها ومهامها واختصاصاتها، وإما أنه يغمز بهذا النظام القائم على أسس دينية إسلامية تحكمه الشريعة الغراء، فمن ثم يحارب الدين ويحاول إقصاءه عن حياتنا الحاضرة ولا يخفى علينا ما حدث أخيراً تجاه من أقام دعوى حسبة ضد كاتب، فقامت قائمة العلمانيين ولم تقعد حتى نزلت السلطة التنفيذية والقضائية في الدولة على رغبتهم، وأصدرت قانوناً يمنع مثل هذه الجريمة، أقصد إقامة دعوى حسبة ضد المنحرفين.

فالزيني بطل هذا العالم، شخص (قوي يمتلك مهابة أسطورية تقربه من صورة الأب الإله، في الديانات القديمة، الذي يستطيع أن يخلق حوله دائرة مغناطيسية خادعة، تتيحها له قدرات خاصة، تبدأ من المستوى الجسمي، حيث الجسم القوي الصلب، والعينان البراقتان المؤثرتان، وتنتهي بما يبديه من الترفع عن الدنايا، وعلوٍّ فوق الأطماع والأحقاد والتُّرهات، إنها صورة الديكتاتور الذي يتدخل في كل شيء ويعلم كل شيء[1]، حتى أدق أسرار المواطنين، وما يجري في المخادع بين الرجل وامرأته، والعطار وجاريته، مما يجعلهم يخشون الزيني، ويعجبون لأمره مما يحيل القاهرة (المدينة الغالبة) تصبح وكأنها كتلة من العجز والانصياع لهذا الديكتاتور، وهذا ما لمسه الرحالة في ذيل تقريره:

«أرى القاهرة رجلاً معصوب العينين، مطروحاً فوق ظهره ينتظر قدراً خفياً، أشعر بأنفاس الرجال داخل البيوت تتقارب رؤوسهم الآن،

١- راجع فصول ٢/٢، مقال الأستاذ محمد بدوي، ص ١٤٠ «مغامرة الشكل».

يتهامسون الآن بما يسمعون من أخبار، النداءات مجهولة، الوقت يمضي ولا يمضي، لا يمكنني الطلوع إلى الطابق الأعلى لأرقب مواضع النجوم، ربما يقترب الفجر، غير أنني حتى الآن لم أسمع ديكاً واحداً يصيح» [١].

فلعل عدم سماعه ديكاً واحداً يصيح، يصلح أن يكون رمزاً صارخاً لحالة العجز والتبلد والانكماش التي انتابت القاهرة، انتابت ساكنيها!! بعد ما أحالها الزيني إلى عالم زاخر بالمؤامرات والدسائس، والعيون الثاقبة التي تنفذ إلى مخادع الناس. تعبث بهم وتفضح أسرارهم!! فصياح الديك رمز لقرب انبلاج الفجر، وهو الموعد الذي ينهض فيه المصلون لأداء تلك الفريضة، وكأنه يخفي وراء هذه العبارة، أو يوحي إلى صمت المآذن أيضاً، فإذا كانت الديكة التي خلقها الله على تلك الصفة، وعلى تتابع صياحها في هذا الوقت دائماً، غير خاضعة أو عابئة بظلم الزيني، أو غيره من الحكام المستبدين، فهي لا تكف عن الصياح في هذا الوقت مهما كانت الأسباب، حتى الكوارث الطبيعية لا تمنعها من ذلك، وعليه يمكن أن نفهم هذه الإشارة الخبيثة إلى أن الظلم الواقع من هذه الشخصية، التي هي في الأصل إسلامية كمَّم الأفواه، وحال بينهم وبين أداء الفرائض، وتعدي ذلك إلى الديكة حرمها من غريزة فيها!!.

وفي وعي المجاور الطالب الأزهري «سعيد الجهيني»: الزيني بركات ذو قدرة فائقة على النفاذ إلى أدق أسرار بيوت القاهرة مما يجعل الناس يضيقون بأفعاله:

---

١ - الرواية، ص ١٧.

- «عين الزيني ترقب الناس كلهم رغم ابتعاده...» [١].

لذا نرى بعض النقاد يؤكد على أن الرواية رغم الانزواء وراء الملامح المملوكية للقاهرة إلا أنها تصور واقع الحياة في المجتمع المصري عقب هزيمة يونيو ١٩٦٧م.

وهو نفس الواقع الذي عاشه المجتمع إثر هزيمته في عام ١٥١٧م، فيضفي الكاتب على التراث المملوكي هموماً عصرية واجتماعية خلال مساحة التشابه بين الهزيمتين، المماليك ١٥١٧م، والمصريين في يونيه ١٩٦٧م. وفي كلتيهما كانت الهزيمة طبيعية، للقهر والخوف والانهزامية التي خلفتها هذه الأنظمة السياسية في المجتمع المصري[٢]..

يصنع الغيطاني ما يمكن تسميته «بالفلاش باك» في السينما الارتداد إلى الخلف زمنياً، فيعود بالزيني بركات إلى ٩١٢هـ بعد أن بدأت الرواية بمقتطفات من مشاهدات الرحالة البندقي التي سجلها في إحدى رحلاته للقاهرة في رجب ٩٢٢ هـ.. فتسير الرواية طبقاً لهذا التسلسل الزمني المعكوس (٩٢٢ - ٩١٢هـ) فيتأرجح النص بين الماضي والحاضر والمستقبل، ولهاتين البنيتين وظيفتان مختلفتان، فالأولى منهما لا تهدف إلا إلى تقديم التسلسل الزمني في موضوعيته، أما الثانية فإنها تتضمن علاقة جدلية بين الماضي والحاضر، فإذا بدأنا بالحاضر وعدنا إلى الماضي، فإننا نكون قد ألمحنا ضمناً إلى الماضي، وقد يفسر هذا الحاضر الذي يمثل مشكلاً (موقفاً) مطروحاً في بداية النص

١- الرواية، ص ١٥.

٢- راجع للاستزادة: العناصر التراثية في الرواية العربية في مصر ص٨٦ وما بعدها.

(قضية الذات الإنسانية داخل المجتمع) [١].. فالمبدع طوال الرواية يتحرك بين هاتين النقطتين الزمنيتين ذهاباً وإياباً، لنسمع زكريا بن راضي بعد علمه بصدور مرسوم شريف بشغل الزيني منصب الحسبة في القاهرة، ليرينا كيف أنه وصل إلى منصبه هذا:

«أكثر من مصدر، أكثر من بصاص، كل بصاص يجهل الآخر، نقلوا إليه أخبار سعي بركات بن موسى لحصوله على منصب الحسبة، ذهابه اليومي إلى الأمير «قاني باي» طلوعه إليه، بقاؤه عنده، حديثه إليه، ثم ثلاثة آلاف دينار كاملة سلمها إلى الأمير قاني باي ليلة الثامن والعشرين من رمضان المعظم بعد العشاء، ثلاثة آلاف دينار يشتري بها بركات منصب الحسبة..» [٢].

فبركات لم يكن اختياراً شعبياً، أو اختياراً سياسياً، لكونه أهلاً لمنصب الحسبة، لكنه اشتراه بثلاثة آلاف دينار، فهو مع شيوعه في الدولة المملوكية، إلا أنه يخالف الإسلام احتال لارتقائها بالرشوة، فالإسلام ينهى عن هذا السلوك، قال ﷺ: لعن الله الراشي والمرتشي» بعدها يتمنَّع أمام العامة، وينافقهم بأنه زاهد فيها لا يمكنه أن يطيق أعباءها.

والإسلام يرفض هذا الخلق الدنيء في طلب المناصب، ولذا يحمل لنا تاريخ الإسلام عندما طلب أبو ذر الغفاري وهو الصحابي الجليل، وله ما له من السبق والجهاد والمكانة في المجتمع الإسلامي بين الصحابة وعند رسول الله (ﷺ)، ولكن عندما طلب من الرسول ﷺ أن

١- فصول ٢/٢ (المفارقة في القص العربي) سابق.
٢- الرواية، ص ٣٨ .

يتولى ولاية ما أخبره الرسول (ﷺ)[1]: «بأنها أمانة، وأنه ضعيف، وأنها يوم القيامة خزي ومهانة»، وأن دأب الإسلام في هذه المواقف أن يرفض طالب المنصب: قال الرسول (ﷺ): إننا والله لا نولي هذا العمل أحداً سأله، ولا أحداً حرص عليه[2]:

فالإسلام ربى أتباعه على العفة والشرف والعزة التي تأبى عليهم التزلُّف وإراقة ماء الوجه، فضلاً عن الرشوة: لتقرأ ما دونه كبير البصاصين زكريا بن راضي في دفتره المجلد بحرير أخضر وأفرده لأخبار الزيني بركات:

الصفحة الأولى:

عاشر من شوال ٩١٢هـ.

على مرأى من الأمراء في حضور جمع عظيم، طلب الزيني بركات بصوت خدشه التأثر، أن يعفيه مولاه من وظيفة الحسبة، قال بصوت مرتجف: «الحسبة يا مولاي ولاية يؤتمن صاحبها على أحوال العباد، وحاشا لله أن أجد في نفسي القدرة على هذا، أنا عبد فقير لا أطيق وصايتي على إنسان، أتمنى انقضاء عمري في أمن وسلام، بعيداً عن أمور الحكم والحكام، ما أريده رقدة آمنة لا يقلقني فيها سب إنسان أو سخط مظلوم غفلت عنه ولم أنصفه من ظالمه؟ [3].

١- صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، المجلد الرابع، ص ٤٨٩، رقم (١٦)..

٢- المصادر والمجلد والكتاب والباب السابق ص ٤٨٧ رقم (١٤).

٣ - الرواية، ص ٤٠.

فالزيني الذي ساوم على منصب الحسبة واشتراه خلسة بالدنانير، والآن يحتال وينافق الناس ويماري الوالي، ويظهر تعففه عن تقلد هذا المنصب، مع أنه أشد الناس حرصاً على شغله، بل قدم الرشوة لنيل هذا المنصب الشاغر في دولة المماليك حتى انطلت حيله الماكرة هذه على الأمراء والعامة من الناس، وعلماء الدين كذلك، حتى أن رواد الشيخ أبي السعود يرجونه أن يطلب إلى الزيني بركات قبول منصب الحسبة، وأخذوا يرددون[١]:

- «لن يقنعه.. لن يقنعه إلا أنت»..

- «لم نسمع برجل مثله.. ونحن ما نرضى إلا به»..

- «أعرفتموه؟؟»..

- «رفضه للمنصب خير تعريف به يا مولانا..».

وأخذت الشائعات تنتشر في ربوع المحروسة أن بركات يعتذر عن منصب الحسبة، وأن بركات جاهر السلطان بظلمه، وأنه يتعفف أن يشارك في هذا الظلم، لئلا ينسب إليه، فأخذ يرتفع رصيد الزيني من الحب في قلوب الناس حتى إنهم يرفضون قبول أي شخص غيره لهذا المنصب. الشيخ القصبي (من رواد الشيخ أبي السعود) يقول:

- «والله يا مولانا إن لم يولوا علينا الزيني فلا خير فينا» [٢]..

١- الرواية، ص ٤١ - ٤٢، مواطن متفرقة.

٢- الرواية، ص ٤٥.

- «لن يقنعه بولاية الحسبة إلا أنت.. أنت يا مولانا والبركة فيك» [١]

الواضح من الجمل المنقولة أن وظيفة الحسبة وظيفة خطيرة وجليلة، وأن الزيني بركات بشخصه الضعيف لا يمكنه النهوض بتبعاتها ويخشى الله، فهو على الرغم من خبثه وتظاهره بالتقوى، وشرائه للوظيفة خلسة يضع الزيني بركات أمامنا في صورة المنافق الدجال المتحايل على كسب عواطف الناس بالكذب والادعاء.

استجاب الشيخ أبو السعود الجارحي (العالم الفقيه) واستدعى الزيني، وبعد لقائهما أعلن الزيني على الناس، قبوله منصب الحسبة، ويلتقي الناس في جامع الأزهر ومن فوق منبره ألقى عليهم خطبة وضَّح فيها سيره في منصبه، وبيَّن لهم أن غرضه من كل ذلك إقامة العدل، ورفع الظلم عن المظلومين، وأن داره مفتوحة لصغيرهم قبل كبيرهم، فهاج الناس وأخذوا يهتفون له وبحياته[٢].

لكن زكريا بن راضي كبير البصاصين يخلو لنفسه، ويفكر في أمر هذا الزيني، الذي لا يخفى عليه كذبُه ومكره فتفكر في كتابة رسائل للأمراء يُعرِّفهم بما هو عليه هذا المحتسب:

« ليعلم المباشرون وأصحاب الإقطاعات ومشايخ البلاد، حتى العامة من الناس الذين خدعوا في الزيني، أيَّ خطأ أتاه السلطان عندما ولَّى على أمة الإسلام رجلا لا يُعرَف له أصل ولا فصل، ولم يره أحد يصلي

١- الرواية، ص ٤٦.

٢- انظر وقائع هذا اللقاء في الرواية، ص٥٧، ٥٨.

جماعة في يوم جمعة، يظهر العدل، ولا يعرف أحد ما في عقله، أبطأ في استخراج أموال علي بن أبي الجود[١]، ومن يدري؟ ربما شاركه خفية من قبل أن يعرفه أحد في أذية الخلق)[٢].

وهنا أيضاً يركز الكاتب على الزيني بركات في شخصه وليس في وظيفته، يركز على انحرافه وفساد طويته وخبثه الذي يداريه على أخبث الناس، حتى إن زكريا بن راضي يهم بأن يفضح أمره عند الأمراء ويكشف حقيقته للعامة..

لأن شدة خبثه جعلته يسخر أبا السعود الجارحي العالم الفقيه في أن يطلب من الوالي تولية الزيني بركات محتسباً بعد أن احتشد الناس المُغَرَّر بهم أيضاً، لدى ذلك الفقيه الورع، ويطلبون منه أن يشفع عند الوالي لتولية الزيني الحسبة.

وخلال هذه الرسالة، نرى المحتسب رجلاً عارياً من القيم والفضائل والأصول، لم يعرف له نسب، حتى الصلاة لم يره أحد يصلي.. وهذا ما يتنافى تماماً مع مقومات الوظيفة التي عرضنا لها، ولعلها صفات في الزيني بركات خاصة به، وتؤكد على إقامته أركان الدين، فما باله يأمر بالمعروف ولا يأتيه، وينهى عن المنكر ويأتيه.

إذاً، إنه النفاق الذي يعفيه تماماً من ارتقاء هذا المنصب، ولعل الكاتب ما زال يؤصل لفكرته أنه من الممكن أن يعتلي هذا المنصب

---

١ - علي بن أبي الجود كان يشغل عدة مناصب في عهد السلطان الغوري منها نظارة الأوقاف، وكالة بيت المال، والوزارة والاستدارية وديوان الخاص، عاش حتى شنق بجرائمه ضد الناس في المحرم سنة ٩٠٩. راجع ابن إياس في بدائعه، مواضع متفرقة.

٢- الرواية، ص ٩١.

الخطير شخص منافق مخادع ليس مؤهلاً للاضطلاع بها فإذن، الوظيفة في نظره قد تقع في يد الدجالين، مما يكون شرهاً أكثر من خيرها، وقد يكون ذلك إيماء منه إلى عدم جدوى هذه الوظيفة، وأن إلغاءها أفضل من بقائها..

وفي يوم يرسل إلى كبير البصاصين كي يعرف منه المكان الذي أخفى فيه علي بن أبي الجود موجوداته، وأخذ في مساومته على أسرار تورط فيها زكريا بن راضي تنبئ عن دناءة الزيني وخسته ووصوليته المقززة. وبعد مباراة كلامية حادة اضطرت الزيني إلى الدخول في غرضه مباشرة وقال: (بدون لف أو دوران، باختصار شديد أريد أن أعرف بالضبط أين أخفى علي بن أبي الجود أمواله؟ أسند زكريا جبهته إلى إصبعين من يده اليمين، باختصار كعناوين البطاقات «لا أعرف» زعق طائر غريب الحس في السماء، الليل يشيخ، قام الزيني مرة واحدة على مهل اقترب من زكريا، أنت يا زكريا تعرف تماماً أين موجودات علي بن أبي الجود، وأنت لايخفى عنك شيء، ولو خفي لما خاطرت بسمعتي وأقررتك نائباً للحسبة، أنت تعرف، ليس لأنك شغلت منصب علي بن أبي الجود، إنما لأنك زكريا، أتفهمني لأنك زكريا بن راضي أعتى من تولى منصب كبير بصاصي مصر. لم يرد زكريا، ليقل الزيني ما يريد، أمر دفين يوشك الإفصاح عن نفسه، الضوء خافت غامض مرعوش يوشك على توهج لكن يداً قوية تحبسه، يوشك على

إلغائه، قال الزيني بركات بن موسى «أنت تعرف مكان أمواله يا صاحبي كما أعرف أنا قبر شعبان» (١).

وإذا كان المحتسب الموكل بأمر المحافظة على أرواح الناس كان يعرف بأمر جريمة زكريا، قتله لشعبان صفي السلطان وأخلص خلصائه، الذي أقبره زكريا بن راضي فَلِمَ لم يحاكمه، أو يقدمه للسلطان ليرى فيه رأيه، فهذا التصرف الدنس، يفضح نوايا المحتسب الخبيثة، ويعرّي وصوليته الجشعة، التي جعلته يسخّر مثل هذه الأخطاء لمعاونيه، كي يسخرهم لمصالحه، ويجعلهم أداة طيّعة لمطامعه، ونهمه السلطوي الغائل؟؟.

بعد هذه المفاجأة، التي لم يكن يتوقعها زكريا من الزيني، راجع نفسه ولانت قناته، واتفقا معاً على تصنيف الخلق إلى فئات أربع، يتعاملون هم ورجالهم مع كل فئة على حدة، مؤداها مع الجميع السيطرة المطلقة، والنفاذ إلى أخص الخصوصيات من الأسرار: «فكلما ضاقت سبل العيش قلَّت قيمة الحياة، وذهب عناء الحرص عليها، ومن هنا فلا بأس من اختفاء بعضهم من حين إلى آخر بطريقة لا يعرفها أحد، وهذا يرهب الباقين» (٢).

تلك كانت سياسة الزيني بركات المحتسب مع عُمَّاله، والعامة، ممن يرعى مصالحهم مالا يحتاج إلى تعليق!!.

ولعل في النداءات المتوالية (٣) التي يوجهها المحتسب (ناظر الحسبة) إلى أهل المحروسة بأسلوبها التقريري المباشر، تحمل من ملامح الصلف

١- الرواية، ص:١٣٣ - وشعبان قتله البصاص زكريا بن راضي وهو صبي الخليفة الأثير عنده.

٢- الرواية، ص ١٣٩.

٣- النداءات في الرواية ص: ٦٨، ٧٩، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ١٠١، ١١٧، ١٢٧، ١٣٠، ١٤٨، ١٥١، ١٥٢، ١٧٤، ١٨٣، ١٨٤، ٢٣٢، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨.

والعجرفة والقهر وديكتاتورية السلطة، ما يفرض على الرواية (إيقاعاً هو أقرب إلى إيقاع قرع الطبول، ويسفر في الوقت نفسه، عن طبيعة الخطاب السلطوي الحاكم الذي يفرض إرادته على الرعية وليس لهم اختيار في رفضها أو قبولها، فتأتيهم على شكل أوامر صارمة عليهم أن يتبعوها دون خيار، والحوار ملغى إلغاء كلياً، حيث إن الصوت هو صوت السلطة، ولا موقف للشعب سوى موقف المستمع المقهور[١].

ولكن الذين اقتنعوا به واتخذهم جسراً للوصول إلى مآربه، من أهل الرأي والإفتاء (المجاور سعيد الجهيني) الطالب الأزهري، والشيخ أبي السعود الجارحي) وإظهاره لبعض السلوكيات والاختفاء وراء (الأكلشيهات) الجاهزة والعبارات الطنانة ما يجعل ارتقاءه للمناصب الدينية، أمراً معقولاً، وله مبرراته، فدائماً يردد «لولا ثقة مولاي وإمامي الشيخ أبو السعود الجارحي لما قبلت.. أحد المريدين أخبرهم بوقوف الزيني خطيباً في أهالي الصعيد القصي، أخبرهم بأن الشيخ أبا السعود يدعو لهم ليلاً ونهاراً، إنه يأتمنه على الأرض والناس، إنه يوصيه بالعدل والخير، وما هو إلا منفذ لتعاليم مولاه.[٢]

ويحكي أحد سكان الوجه القبلي «الدميري» من مدينة منفلوط عما حدث من أخبار «الزيني بركات» في رحلاته، وحكى لهم في حضرة مولانا «أبي السعود» الغدر الذي حدث من ابن عثمان، ونيته في تحركه نحو مصر، لكن جند السلطان وفرسان الإسلام سيتولون أمره قال:

١- فصول: ٢/٢، مقال: المفارقة في القص العربي المعاصر/ سابق.

٢- الرواية، ص٢١٤.

مصر محمية بأولياء الله، وصعب أخذ بلاد تضم سيدنا الحسين وسيدي أحمد البدوي وسيدي عبد الرحيم القناوي وسيدي الفولي والقطب إبراهيم الدسوقي وسيدي الرفاعي والأولياء أصحاب الأوتاد، ومولاي صاحب الكرامات النورانية أبو السعود.. أجرى الدمع من عيون الخلق يا مولانا» (١).

إن الكاتب يسخر من أولياء الله الموتى، لأنهم على الحقيقة لايستطيعون دفع عدو مقتحم للديار المصرية، ومعلوم أن مصر تعرضت للغزو الأجنبي عدة مرات دون أن يمنع ذلك وجود الأولياء، لأن النصر أو الهزيمة من عند الله يكتبها حسب حالة الشعب إن كان متقاعساً انهزم، وإن كان مناضلاً مضحياً انتصر بفضل الله. ولكن الكاتب من خلال الزيني بركات المنافق، والذي يريد بكلامه هذا أن يستعطف الناس ويحملهم على الميل إليه وتأييده، صنع الكاتب ذلك ليؤكد على نفاق الزيني ودجله أو ليسخر من عواطف الشعب التي تتجه لتقديس أولياء الله الصالحين..

ثم قال: (إن خزانة السلطان في أمسّ الحاجة إلى دراهم ورجاهم تقبُّل ما سيقوله: جَمْعُ ضرائب عام واحد مقدماً غير السنة التي نحن فيها، ولما كان الحال والدنيا متشحطة مع الناس، ضجوا وأعولوا، فتحدث إليهم بلين الكلام، قال من يملك شيئاً ليبيعه، حاش عنهم أذى الأمراء والمماليك، ولو تركهم لجاؤوا بسيوفهم، وباعوا أولادهم وبناتهم كما تباع الماشية، وهذا ليس غريباً، حدث من قبل مرات ومرات، وبين

١ - الرواية ص -٢١٤.

الكلمة والأخرى يذكر وصية مولاه الشيخ أبي السعود له، فصارت الناس يا مولاي.. آه سامحني يا مولاي».

« بعد أن صرف الناس، استبقاني مع أربعة من أهالي البلدة، أخبرنا بأمور عديدة من أموالنا، فعجبنا فيما بعد كيف وصلته، ثم قال: إنه سيفرض على كل منا مبلغاً قدره ألف دينار، قال: لا بد من الدفع، والعجيب يا مولانا، ضاع اللين في حديثه، نَتَرَ في وجوهنا، أظهر القسوة، قال إنه يمهلنا شهراً، ولو تأخرنا سيدعو علينا مولاه.. فتخرب بيوتنا»[١].

فالإسلام كذلك، لم يخصه هو بجمع الضرائب أو تجهيز الجيش، وإن كان ذلك قائماً في الدولة الفاطمية، حيث ضعفت شوكة سلاطينها، وسعى كل مسؤول في الدولة يجمع ويبتكر من الأنظمة التي تؤهله لجمع المال لنفسه يدفع منه رشوة للسلطان يصبح بذلك في مأمن من عقابه، ويضمن دستورية ما يفعل.

إلا أن دولة الإسلام وتشريعاته تدين هذا، وتصنفه ضمن السرقات واللصوصية، فهل كان المحتسب لصاً؟ نعم، في الرواية كان لصاً ومخادعاً ومنافقاً وضالاً، وهكذا أبدعه خيال الكاتب.

ولعل هذا كان بمثابة النبوءة بما ينتظر «الزيني بركات» من مصير. لا سيما، بعدما توفرت كل هذه المعلومات التي لا تقبل الشك، وألقت بمغاليقها عند الشيخ أبي السعود الجارحي، فلنر ما صنعه به الشيخ، والذي عرفنا به خلال التقرير المرفوع إلى الشهاب الأعظم زكريا بن راضي كبير بصاصي السلطنة في الجزء الأخير من هذه الليلة، توجه الزيني بركات بن موسى (استدار الزخيرة ومتولي حسبة الديار

١- الرواية، ص ٢١٤، ٢١٥.

المصرية)، والي القاهرة والمتحدث عن الوجهين القبلي والبحري، إلى كوم الجارح بعد استدعاء الشيخ «أبو السعود الجارحي» العارف بالله، وعندما دخل إليه أجلسه بين يديه، مال الزيني عليه، لكن الشيخ لم يراع هذه، ونتر في وجهه: ياكلب.. لماذا تظلم المسلمين؟ لماذا تنهب أموالهم، وتقول كلاماً تنسبه إليَّ. أبدى الزيني دهشته، حاول الانصراف، لكن الشيخ قام، نادى أحد مريديه (درويش اسمه فرج).. أمره بخلع عباءة الزيني عنه، تجمع حوله الدراويش أحاطوا به، أمر الشيخ، فضرب رأس الزيني بالنعال حتى كاد يهلك، ثم أمر بشك الزيني في الحديد، ثم أرسل إلى الأمير علاّن وأيقظه.. وقال له: اطلع شاور السلطان الأمير طومانباي في أمره، وأعلمه أن هذا الكلب يؤذي المسلمين، وفي الحال طلع الأمير إعلان الداودار الكبير إلى نائب السلطنة وأيقظه وأخبره بما جرى، وقال الأمير طومانباي: ليفعل الشيخ أبو السعود ما يبدو له، وحتى كتابة هذا ما زال الزيني بركات بن موسى محتجزاً عند الشيخ أبو السعود، وقال الشيخ لمريديه: «أبقوا الأمر سراً يوماً أو يومين حتى أستخرج منه ما نهبه من أموال الغلابة، ثم نشهره على حمار، وتخلص الدنيا منه وحتى الآن لا يعلم العامة بما يجري، وإن تساءل البعض عن عدم ركوب الزيني لصلاة الفجر كعادته، ومن ناحيتنا بادرنا فأرسلنا العيون والأرصاد في كل فج وخاصة كوم الجارح، ونمى إلى علمنا أن دراويش الشيخ ومريديه، وكافة أرباب الطرق الصوفية والفقراء في بر مصر سيعلنون الخبر ويهيجون الخلق...

عليكم أمان الله تعالى... مقدم بصاصي القاهرة [1]

١- الرواية، ص ٢١٧ - ٢١٨.

فالشيخ أبو السعود ودراويشه، والأمراء المخلصون عرفوا بجرائم الزيني ومخازيه، وما ارتكبه في حق هذه الأمة في أنفسهم وأعراضهم وأموالهم، إلا أنه خان الأمانة واستلب الأموال، واستحل النفوس والأعراض، وهتك الأستار وأفشى الأسرار، في الوقت الذي كان عليه أن يُعنى بأمورهم، وصون أعراضهم وأسرارهم.. فلذا كان لزاماً على الشيخ، أن يقود حركة تطهير وقضاء على هذا الفساد المستشري في جسد الأمة، إلا أن الغيطاني لم يعجبه صنيع الشيخ وحركته، فتأبى مذهبيته الفكرية إلا أن تطل كلما سنحت لها فرصة فتتضح كلماته بأفكاره وهواجسه، على لسان البصاص الأكبر زكريا بن راضي، عندما عَلِمَ بما فعله الشيخ أبو السعود بالزيني بركات فقال: صحيح الشيخ ولي من أولياء الله وفيه بركة.. ولكن ماللمشايخ وأمور السلطنة؟.. ماللنُّسّاك وأمور الدنيا؟.. لو انشغلوا بأمور الدنانير لضلوا سواء السبيل..) [1].

وهكذا، يدافع زكريا المنحرف عن منحرف مثله، ولعله في تصديه باللوم على ما فعله الشيخ، إنما يخشى أن يقع فيما وقع فيه المحتسب، وأن تطوله يد الشيخ فتصنع به مثلما صنعت مع رئيسه المنحرف.

فنظام الحسبة خلال هذا النموذج الإنساني (الزيني بركات)، نظام إن لم يكن جمال الغيطاني من منطلق الرؤية أو الأيديولوجية[2] الماركسية التي تحكم توجهه وينهل من معينها، ويصدر عنها فتتضح

١- الرواية، ص ٢٣٥.

٢- يقول جمال الغيطاني: اعتنقت الفكر الذي يعبر عن أنبل محاولة إنسانية لتقويم أوضاع مختلفة، وضمان حياة كريمة للبشر، وما زالت قناعاتي الأساسية بالاشتراكية لم تهتز، رغم ما جرى في الاتحاد السوفيتي.. وحاولت خلال هذا كله أن أحقق خصوصيتي الإبداعية.. فصول عدد ٣، المجلد ١١، خريف ١٩٩٢م.

روايته بما يريد أن يقول.. يقول: بأن هذا النظام الذي يستمد وجوده من العقيدة الإسلامية وجوهر تشريعاتها السامية، أصبح في دائرة الاتهام فهو مظهر من مظاهر فساد المجتمع وانحرافه الاجتماعي والسياسي، فالكاتب يؤكد من خلال تقديمه هذا النموذج (الشخصية الإسلامية) المنحرف عن الإطار الذي رسمه الإسلام لهذه الشخصية، ليوحي بفساد هذه الأنظمة التي تنتسب إلى الإسلام.

وعندما تتبعت شخصية الزيني بركات في المصدر التاريخي المعتمد لدى الكاتب، بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس المصري، وجدت الزيني بركات يشغل حيزاً يربو على الخمس عشرة صفحة (المجلد الرابع والخامس) لا خمس صفات كما قال الغيطاني في حواره الذي أجراه على صفحات مجلة الفيصل[١] قدمت لنا هذه الصفحات في كتاب ابن إياس[٢]الزيني بركات شخصية محبوبة من المجتمع والشعب، لأنه كان أحياناً يحارب الغلاء، ويتعقب الفساد[٣].

ولكنه مع ذلك، وكما أنبأت الكتابة عنه كان يقسو في العقاب، ويحدد الأسعار للسلع المطروحة في الأسواق كما يشاء، وفهمنا أن هذا السلوك مضطر إليه، لأن السلطان كان يفرض على بعض الشخصيات إتاوات، ويطلق يد الزيني ليحصلها بطريقته، فكان يعصر كعوب بعضهم في المعاصر كما ورد من أخباره[٤]. مما يدل على أن ذلك العصر كان

---

١ - عدد ٢٢٨، جمادى الآخرة: ١٤١٦هـ - أجرى الحوار: ناصح مروان.

٢- الجزء الرابع والخامس، مواضع متفرقة.

٣- بدائع الزهور في وقائع الدهور، ص ٢٧٥، المجلد الرابع.

٤- المرجع نفسه، ص ٣٧٧/٤، ٣٨٧، ٣٨٨.

عصر ظلم، وفساد مستشر، شمل كل الحاكمين، من أول السلطان إلى أدناهم، السلطان الذي كان يبيع الوظائف ومنها الحسبة الشريفة كما يسميها ابن إياس، مما يدل على جلال هذه الوظيفة ورفعة قدرها، ولكن الذين يقومون بها هم الفاسدون المفسدون، طمعاً في رضاء السلطان عنهم، وعدم سلبها منهم [١].

ويتضح من كل ذلك، أن وظيفة الحسبة في وجدان الناس، وفي أقلام المؤرخين وظيفة خطيرة الشأن متغلغلة في حياة العامة والشعب، فهو يحدد الأسعار ويجبي الضرائب ويأخذ الأموال، ويعفو ويصفح أحياناً ويعاقب بأشنع العقوبات[٢] وليس هذا من ملامح الوظيفة، ولكنه في طبائع القائمين عليها المسخرين لإرضاء أهواء السلطان ونزواته، فهي - إذن - وظيفة في ذاتها تقوم بخدمات جليلة، في إقامة العدل واستقامة ميزان الحياة في شتى نواحيها، لو أخلص القائمون بها وتجردوا من الهوى والظلم..

فالزيني بركات قدمه ابن إياس على أنه يسعى جهده لكسب رضا السلطان، ولو كان ذلك على حساب الشعب، ونحن نقول: إن الزمن كله الذي عاش فيه الزيني بركات كان عصراً فاسداً كله، وهو أحد وسائل هذا الفساد، لأنه لو كان مستقيماً في ذاته، لقام بهذه الوظيفة الخطيرة على خير وجه، وسار فيها سيرة ترضي الله ورسوله، ولكنه يُحسب على فساد هذا العصر فكان منه ما كان..

١- بدائع الزهور. المجلد الخامس، ص ٢٧، وقائع سلب الحسبة من الزيني وبيعها للأمير ماماي.. وكذا المجلد الرابع ص: ١٤٤ وقائع خلع الزيني عن الحسبة وتعيين على الجمالي يوسف رمضان سنة ٩١٤هـ.

٢ - المرجع نفسه، ٢٨٥/٤، ٣٧٧ .

والكاتب حين التقط هذه الشخصية لم يقف عند اللقطات الوجيزة التي قدمها ابن إياس عنه، وإنما غالى وبالغ فيما رسمه من ملامح هذه الشخصية، وله الحق فنياً، وخاصة إذا فهمنا أنه يريد تشويه هذه الشخصية، لكي يلطّخ الوظيفة نفسها، ويجعل الناس يقتنعون بأن وجود وظيفة المحتسب تضر ولا تنفع، وأصبح بذلك توجه الكاتب لا إلى الزيني بركات، ولكن إلى الوظيفة - فكرة العمل - التي يمثلها الزيني بركات، وإلا كانت له الحرية، في أن يبحث عن شخص آخر تولى الحسبة في التاريخ كان مثالاً للنزاهة والأمانة والتفاني في إقامة الحق والعدل.. كما فعل كاتب مسلسلة «القضاء في الإسلام» التي يقدمها التلفزيون المصري في شهر رمضان منذ أعوام، حيث إنه عثر على نماذج مشرفة ومضيئة للقاضي العادل القوي الذي يقف في صلابة منقطعة النظير، ويعارض الحاكمين الطغاة، ولا يقر بظلمهم، بل يسعى جاهداً إلى أخذ الحق منهم، مع أننا لو بحثنا في التاريخ الطويل عن قضاة منحرفين ويمالئون السلطة لوجدنا، وكذلك لو أن الكاتب يريد إقرار وظيفة المحتسب، لوجد غير الزيني بركات ممن ينصفون العدل، ويشرفون هذه الوظيفة، ويعطونها حقها، ممن تمتعوا بسمعة طيبة في مصر فتذكر لنا المراجع: أنه في سنة ست وتسعين وسبعمائة توفي تاج الدين محمد بن محمد المليحي المعروف بصائم الدهر.. وكان ساكناً قليل الكلام جميل السيرة...[1]، والقاضي بدر الدين العيني عندما تولى الحسبة انحط سعر الغلال، ودخل مراكب من الصعيد موسوقة من

١- شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي: ٣٤٧/٦ - مكتبة القدس - د ت: القاهرة.

الغلال من قمح وغيره، وكان العيني يعزّر السوقة بذهاب البضائع.. جمع العيني بين القاضي والحسبة ونظر الأحباس في وقت واحد[١].

ومحتسب القاهرة «منكلى بغا الظاهر» والمحتسب «يشبك الجمالي» الذي تولى الحسبة سنة: ٨٧٣ هـ /١٤٦٨م. (الذي كان في وظيفته نموذجاً يحتذى حذوه) [٢]. حتى إن (السلطان طومانباي طلب من الأمراء وحلّفهم على أن يجروا الأمور ويمشوا الحسبة على طريقة يشبك الجمالي لما كان محتسباً) [٣].

فهذا التحامل الذي بدا من الكاتب، إنما كان مُنصباً على وظيفة الحسبة، أكثر مما كان منصباً على الزيني بركات، وقد وجد في هذه الشخصية بغيته، وكأنه فرح جذلان إذ عثر على شخصية منحرفة يؤكد من خلالها ما يريد إقراره، وتمكينه في أذهان العامة من أن وظيفة الحسبة وظيفة فاسدة وينبغي التخلص منها.. ومن أجل ذلك لم يجد نقيصة إلا ألحقها بالزيني بركات..

وإن زعم الكاتب أنه يريد من وراء ذلك الإسقاط على العصر الذي يعيشه، وما انتاب الدولة من تهالك وانهيار في الأخلاق والتصرفات إثر هزيمة يونية ١٩٦٧م. هذا الزعم لا يجوز التشدق به، لأن الهزيمة وقعت بتخاذل الحاكمين الرؤوس الكبرى في الحكم. فلو كان يقصدهم لكان ركّز على فساد السلطان في أيام الزيني بركات خاصة، وأن ما طالعناه

١ - بدائع الزهور في وقائع الدهور: ٢/٢٦، ١٤١.
٢- الحسبة في مصر الإسلامية ص: ٩٣. سابق.
٣- بدائع الزهور في وقائع الدهور: ٣/٥٧ ابن إياس.

في بدائع الزهور يشهد بأن السلطان أكثر فساداً من الجميع، وأن فساد الزيني بركات من صنعة السلطان نفسه، لكن الكاتب دار وجعل محور الرواية والأحداث من الزيني بركات، فكأن الفساد صنعه الزيني وليس السلطان، حتى اللقطات القليلة التي أطلَّ فيها السلطان، جعله شخصية متمثلة للزيني وتابعة له، يحرص على رضائه وتقريبه منه، في حين أن الحقيقة تقول عكس ذلك، فالزيني هو الذي يأتمر بأمر السلطان..

فعملية الإسقاط التي يزعمها، تحتّم عليه أن يقدم العصر كله، بكل طوائفه في صورة تنبئ عن استشراء الفساد، واتساع رقعته فيما عدا الشعب المقهور الذي مارس فيه هؤلاء الحاكمون ظلمهم بكل شراسة.

هنا يكون الإسقاط مقبولاً، أما أنه يركز على المحتسب، ويجعله أس الفساد كله. فهذا يجعلنا نتهم بأنه يقصد وظيفة المحتسب في ذاتها، مما فتح الباب بعد ذلك لانبعاث هجمة شرسة لأصوات محتجة ورافضة في صراحة لوظيفة المحتسب، يقول الدكتور عبد العظيم رمضان[1]: إن التعديلات التي جرت على مشروع قانون الحسبة تعد جيدة في حدود المشروع الذي قام.. فالمشروع الذي قدم كان مشروعاً سيئاً للغاية، بل يكاد يكون بمثابة تقنين للحسبة، وليس تنظيماً أو وضع ضوابط!!.. ولكن كان يجب أن يكون المشروع بإلغاء مسألة الحسبة، لأنها في حقيقة الأمر مشكلة ليست من الإسلام، ولكنها تستند إلى التاريخ الإسلامي.. وما يقال غير ذلك يعتبر تضليلاً..

١- راجع: «أخبار اليوم» القاهرية، عدد: (٢٦٧٤) الصادر في ١٩٩٦/٢/٣م.

وأفتى الأستاذ نجيب محفوظ الأديب العالمي!! يقول[١] ماحدث تنظيم للموضوع، وهو بغير جدال خير من الحال السابق.. وكنت قد سمعت - والله أعلم - أن الحسبة ليست من الدين، وإنما اجتهاد من الفقهاء، فلو كان الأمر كذلك فإلغاؤه أفضل.

وأفتى كذلك آخرون بأن الإسلام لم يعرف الحسبة، ولم يكن لها أصل في القرآن ولا في السنة[٢] وأنها لم تكن موجودة في عصور الزهو الإسلامي، بل كانت سمة من السمات المميزة لعصور التقهقر والانحطاط الإسلامي[٣].

فإذا كان جمال الغيطاني استطاع من خلال موهبته أن يحقق نجاحاً على المستوى الفني في خلق رمز روائي فائق الإبداع في تجسيد القهر الإنساني، وديكتاتورية الحاكم الفرد، ونجح في تجسيد الظلم الواقع على الرعية من فرط فساد الحكام، إلا أنه انزلق في مهاوٍ فكرية باستطاعتها تحطيم هذا النجاح، إذ كشف عامدا عن رؤية مدخولة وإذعان فكري لمذهبية أو أيديولوجية منحرفة، قدَّم من خلالها تصوره لهذا النمط الإنساني، النموذج الحضاري الإسلامي الذي يرمز إلى وظيفة من وظائف الإسلام الحضارية في روايته فحطمه تحطيماً، وحبسه في دائرة الظلام التي رسم إطارها في عالمه الروائي.. وهذا لايعني أن الإسلام على غرار الشخصيات التي تمثله، ففساد الشخصية (الزيني.. لا يعني بالقياس فساد نظام الحسبة).

١- نفس المرجع وعدده.

٢ - راجع: مجلة «المصور» القاهرية عدد (٣٧٢٠) الصادر في ١٩٩٦/١/٢٦م. ملف خاص تحت عنوان «فوضى الحسبة» والكلام للدكتور/ أحمد صبحي منصور.

٣- نفس المصدر، والكلام للكاتب التلفزيوني «محفوظ عبد الرحمن».

هذه كانت أهم المراحل التي مرت بها الرواية التاريخية، فنياً وإبداعياً، ومن ثم كذلك الشخصية التاريخية.. استطاع كل جيل من الكتّاب الروائيين أن يعبر ويوظف ما أتيح له من معطيات التعبير أو الفن، لإبراز ما يقلقه من أفكار، أو ما يعانيه من هموم قومية أو دينية أو سياسية أو فكرية، لتقديم معنى أو رمز أو رؤية، يعنى بها من خلال إبداعاته الأدبية، خاصة في إطار نوع فني مراوغ كالرواية الفنية.

تلك كانت أهم النماذج المنتقاة في الإبداع الروائي للكُتَّاب الذين يمثلون حركة الإبداع في مصر، تتباين أفكارهم ورؤاهم في التعبير عن الشخصية الإسلامية في إطارها النمطي المستمد من الواقع المعيش، أو التاريخ الذي يمثل ذاكرة الأمة، وتراثها المقدس على امتداد التاريخ الإسلامي. فاستعرضنا نماذج لهؤلاء وهؤلاء، لعلنا استطعنا أن نقدم هذه الرؤى المتباينة، لكننا حاولنا جهدنا في محاكمة كل نموذج على حدة، في إطار إبداعي، يمثل توجهه الفني ورؤيته الفكرية..



المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم (جلّ من أنزله).

ثانياً: السنة النبوية المطهرة: (مصادر مختلفة).

ثالثاً: الكتب والدراسات الأدبية والإسلامية:

١- آفاق الأدب الإسلامي - نجيب الكيلاني - مؤسسة الرسالة - ط/ أولى ١٩٨٥م. بيروت.

٢- اتجاهات الرواية المصرية منذ الحرب العالمية الثانية إلى سنة ١٩٦٧م. مكتبة الشباب ١٩٨٧م. القاهرة.

٣- الاتجاه الإسلامي في أدب طه حسين - رمضان الجازية - طبعة مصورة كمبيوتر، ١٩٨٥م. مصر.

٤- الاتجاه الإسلامي في أعمال باكثير القصصية والمسرحية - عبد الرحمن صالح العشماوي، منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود - مع المهرجان الوطني للتراث والثقافة (الجنادرية) الرياض ١٤١٠ هـ.

٥- الاتجاه نحو الدين وعلاقته ببعض سمات الشخصية، د/ نزار مهدي الطائي - حوليات كلية الآداب - عدد: (١٢) مجلس النشر العلمي - جامعة الكويت.

٦- الأحكام السلطانية للماوردي - دار الفكر - ١٤٠٤هـ - مصر.

٧- أدب نجيب محفوظ وإشكالية الصراع بين الإسلام والتغريب، د/ السيد أحمد فرح - دار الوفاء، أولى - المنصورة.

٩- الأرض (رواية) عبد الرحمن الشرقاوي - دار غريب للطباعة - د ت القاهرة.

١٠- أرمانوسة المصرية (رواية) جورجي زيدان - دار الهلال - ١٩٨٣م. مصر.

١١- الإسلامية والروحية في أدب نجيب محفوظ - د/ محمد حسن عبد الله - دار مصر للطباعة - د ت، القاهرة.

١٢- الإنسان بين المادية والإسلام / محمد قطب - دار الشروق - تاسعة - ١٩٨٨م. القاهرة.

١٣- الأيام (رواية) د/ طه حسين - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤م. مصر.

١٤- بدائع الزهور في وقائع الدهور/ محمد بن أحمد بن إياس/ تحقيق/ محمد مصطفى/ الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٤م. القاهرة.

١٥- بناء الشخصية في القصة القرآنية، د/ مصطفى عليان - دار البشير - أولى /١٩٩٢/ عمان.

١٦- بلال مؤذن الرسول (رواية) عبد الحميد جودة السحار - دار مصر للطباعة - د ت - مصر.

١٧- الترجمة الذاتية في الأدب العربي - د/ يحيى إبراهيم عبد الدايم - دار النهضة العربية - د ت - بيروت.

١٨- التصوير الفني في القرآن سيد قطب - دار الشروق - عاشرة - ١٩٨٨م. القاهرة.

١٩- تطور الرواية العربية الحديثة - د/ عبد المحسن طه بدر - دار المعارف ١٩٦٣م. مصر.

٢٠- التفسير الإسلامي للتاريخ د/ عماد الدين خليل - دار العلم للملايين / ثانية - د ت بيروت.

٢١- تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير - دار إحياء الكتب العربية د ت - مصر.

٢٢- التيار الإسلامي في قصص عبد الحميد جودة السحار د. صفوت يوسف زيد - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٥م. القاهرة.

٢٣ - جورجي زيدان في الميزان - شوقي أبو خليل - دار الفكر - نسخة مصورة عن الطبعة الثالثة ١٩٨٢م. دمشق.

٢٤- جورجي زيدان (نقاد العرب)، د/ أحمد حسين الطماوي/ الهيئة المصرية العامة للكتاب/ القاهرة.

٢٥- حاجة الإنسان إلى ظهور الإسلام، د/ أحمد عبد الرحيم السايح - الدار المصرية اللبنانية / أولى ١٩٩١م. القاهرة.

٢٦- الحسبة في مصر الإسلامية - سهام مصطفى أبو زيد - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦م. القاهرة.

٢٧- حول إعادة تشكيل العقل المسلم، د/ عماد الدين خليل، (كتاب الأمة) عدد (٤) رئاسة المحاكم الشرعية - وزارة الأوقاف، قطر.

٢٨- حمامة سلام (رواية)، نجيب الكيلاني - مؤسسة الرسالة - ثالثة ١٩٨٤م. بيروت.

٢٩- خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، د/ عبد المجيد النجار. منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي - ثانية - ١٩٩٣م. فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية.

٣٠- دراسات في القصة والمسرح/ محمود تيمور، مكتبة الأداب، د ت - القاهرة.

٣١- دراسات في نقد الرواية، د/ طه وادي - الهيئة المصرية العامة للكتاب (دراسات أدبية) ١٩٨٩م. القاهرة.

٣٢- دور التربية الأخلاقية الإسلامية في بناء الفرد والمجتمع، د/ مقداد يالجن - دار الشروق - أولى - ١٩٨٣م. القاهرة.

٣٣- أبو ذر الغفاري (رواية) عبد الحميد جودة السحار - دار مصر للطباعة - د ت - مصر.

٣٤- رأس الشيطان (رواية) نجيب الكيلاني - مؤسسة الرسالة - ١٩٨٥م. بيروت.

٣٥- رؤية إسلامية في قضايا معاصرة، د/ عماد الدين خليل / كتاب الأمة، عدد (٤٥)، قطر.

٣٦- رحلتي مع الأدب الإسلامي - نجيب الكيلاني - مؤسسة الرسالة - أولى، ١٩٨٥م. بيروت.

٣٧- الروائي والأرض، د/ عبد المحسن طه بدر/ دار المعارف/ ثالثة، ١٩٨٣م. مصر.

٣٨- الروائيون الثلاثة، يوسف الشاروني - الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠م. القاهرة.

٣٩- الريف في الرواية العربية، د/ محمد حسن عبد الله - عالم المعرفة - عدد (١٤٣)/ الكويت.

٤٠- زقاق المدق - (رواية) نجيب محفوظ / دار مصر للطباعة، د ت - القاهرة.

٤١- الزيني بركات (رواية) جمال الغيطاني - المجلد الثالث (الأعمال الكاملة)، الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٩٣م). القاهرة.

٤٢- السحار - رحلة إلى السيرة النبوية - محمد جبريل - دار مصر للطباعة - د ت القاهرة.

٤٣- السحار مفكراً وأديباً وسينمائياً/ الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥م. القاهرة.

٤٤- الشخصية في سوائها وانحرافها، د/ مصطفى فهمي - المكتبة الثقافية، عدد (١٦٣) - الدار المصرية للتأليف والترجمة - مصر.

٤٥- شذرات الذهب في أخبار من ذهب - ابن العماد الحنبلي، مكتبة القدس - د ت - القاهرة - طبعة المكتب التجاري للطباعة والنشر بدون تاريخ، بيروت.

٤٦- صورة المرأة في الرواية المعاصرة، د/ طه وادي/ مركز الشرق الأوسط / د ت/ مصر.

٤٧- الطبيعة في الفن الغربي والإسلامي د/ عماد الدين خليل - مؤسسة الرسالة، سنة ١٩٧٧م. بيروت.

٤٨- عمالة الشمال (رواية) نجيب الكيلاني - دار النفائس - ثانية، ١٩٨٤م، بيروت.

٤٩- العناصر التراثية في الرواية العربية في مصر «دراسة نقدية» ١٩١٤ : ١٩٨٦م، د/ مراد عبد الرحمن مبروك، دار المعارف - أولى - ١٩٩١م. القاهرة.

٥٠- فقه تغيير المنكر، د/ توفيق محمد سعد - كتاب الأمة، عدد (٤١) قطر.

٥١- فن الأدب - توفيق الحكيم - دار الكتاب اللبناني - ثانية، ١٩٧٣م. بيروت.

٥٢- فن القصص - محمود تيمور - دار الهلال - ثانية ١٩٤٨. القاهرة.

٥٣- فنون الأدب - تشارلتن - ت: د/ زكي نجيب محمود - لجنة التأليف والترجمة - د ت، مصر.

٥٤- في التاريخ فكرة ومنهاج. سيد قطب - دار الشروق - سابعة - ١٩٨٧م.

٥٥- في الغزو الفكري د/ أحمد عبد الرحيم السايح - كتاب الأمة، عدد (٣٨) قطر.

٥٦- في الفكر الإسلامي من الوجهة الأدبية، د/ محمد أحمد العزب. المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٨٣م. القاهرة.

٥٧- في ظلال القرآن الكريم - سيد قطب - دار الشروق - السابعة عشرة - ١٩٩٢، بمصر.

٥٨- في النفس والمجتمع - محمد قطب - دار الشروق - الحادية عشرة، ١٩٩٣م، مصر.

٥٩- في النقد الإسلامي المعاصر، د/ عماد الدين خليل - مؤسسة الرسالة - ثالثة - ١٩٨٤م. بيروت.

٦٠- قاموس مصطلحات النقد الأدبي المعاصر: سمير خفاجي - مكتبة مدبولي، ١٩٩٠م. القاهرة.

٦١- القرآن وعلم النفس - د/ محمد عثمان نجاتي - دار الشروق - رابعة، ١٩٨٩م. مصر.

٦٢- القصة في الأدب العربي الحديث - د/ محمد يوسف نجم - طبعة المكتبة الأهلية ثانية ١٩٦٢م. بيروت، وطبعة دار الثقافة ثالثة ١٩٦٦م بيروت.

٦٣- القصة القصيرة في الستينات د/ عبد الحميد إبراهيم - كتاب اقرأ - عدد (٥٤١) دار المعارف بمصر.

٦٤- قضية التصوف - د/ عبد الحليم محمود - دار المعارف - ثالثة - د ت مصر.

٦٥- اللص والكلاب (رواية) نجيب محفوظ - دار مصر للطباعة - د ت - القاهرة.

٦٦- مجموع فتاوى ابن تيمية - مكتبة ابن تيمية - نسخة مصورة - د ت - مصر.

٦٧- محاولات جديدة في النقد الإسلامي - د/ عماد الدين خليل - مؤسسة الرسالة، ط/ أولى، ١٩٨١م. بيروت.

٦٨- مدخل إلى الأدب الإسلامي، نجيب الكيلاني، كتاب الأمة، عدد (١٤) قطر.

٦٩- المستقبل للإسلام - د/ أحمد علي الإمام، كتاب الأمة، عدد (٤٦) قطر.

٧٠- مجلة الوعي الإسلامي - الكويت، عدد ٢٥٩، رجب ١٤٠٦هـ.

٧١- معالم في الطريق - سيد قطب - دار الشروق - سادسة عشرة، ١٩٩٣م. القاهرة.

٧٢- المعتقدات الدينية - أشرف على تحريره جفي بارندرت. د/ عبد الفتاح إمام - عالم المعرفة، عدد ١٧٣، الكويت.

٧٣- معركة الإسلام والرأسمالية - سيد قطب - دار الشروق، الحادية عشرة، ١٩٩٠م. مصر.

٧٤- مفهوم العبادة في الإسلام - أحمد ديدات، تحقيق: علي عثمان - المختار الإسلامي - د ت - القاهرة.

٧٥- المقدمة - ابن خلدون - دار الجيل - بدون تاريخ - بيروت.

٧٦- مقدمة رواية طلائع الفجر لنجيب الكيلاني (دراسة نقدية) للدكتور نجيب الكيلاني.

٧٧- مقومات التصور الإسلامي - سيد قطب - دار الشروق، رابعة، ١٩٩٣م. القاهرة.

٧٨- مقومات الشخصية المسلمة (جزآن) د/ ماجد عرسان الكيلاني/ كتاب الأمة/: العدان (٢٩، ٣٠) قطر.

٧٩- من توجيهات الإسلام - الشيخ محمود شلتوت - دار الشروق - ثانية ١٩٨٧م. مصر.

٨٠- المنتمي - د/ غالي شكري - دار المعارف / مكتبة الدراسات الأدبية / عدد (٥١) ثانية، ١٩٦٩م. مصر.

٨١- منهج التربية الإسلامية - محمد قطب - دار الشروق - الثالثة عشرة - ١٩٩٢م. القاهرة.

٨٢- منهج الفن الإسلامي - محمد قطب - دار الشروق - سادسة، ١٩٨٣م. القاهرة.

٨٣- مواكب الأحرار (رواية) نجيب الكيلاني - مؤسسة الرسالة - ثانية ١٩٨٥م. بيروت.

٨٤- نجيب محفوظ: الرؤية والأداء - د/ عبد المحسن طه بدر - دار الثقافة، ١٩٧٨م. القاهرة - وطبعة دار المعارف - مصر.

٨٥- نظرية الرواية في الأدب الإنجليزي الحديث - مجموعة كتاب تقديم - د/ إنجيل بطرس - الهيئة المصرية العامة للكتاب / ١٩٧٨م. القاهرة.

٨٦- النقد الأدبي الحديث - د/ محمد غنيمي هلال - دار نهضة مصر - د ت - القاهرة.

٨٧- النقد الأدبي الحديث في تطوير الفن القصصي - د/ محمد حامد الحضيري - منشورات رابطة الأدب العربي الحديث - القاهرة.

٨٨- النقد الفني: دراسة جمالية وفلسفية - جيروم سولينتز - تحقيق - د/ فؤاد زكريا - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ثانية ١٩٨٥م. القاهرة.

٨٩- النماذج الإنسانية في الدراسات الأدبية المقارنة - د/ محمد غنيمي هلال - دار النهضة مصر - د ت - القاهرة.

٩٠- هارب من الأيام (رواية) ثروت أباظة / الهيئة المصرية العامة للكتاب / ١٩٩٤م. مصر.

٩١- وا إسلاماه (رواية) علي أحمد باكثير - دار مصر للطباعة /بدون تاريخ/ مصر.

٩٢- الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد - د/ أحمد بسام ساعي / دار المنارة - أولى، ١٩٨٥م. جدة.

٩٣- الواقعية في الرواية العربية - د/ محمد حسن عبد الله - الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١م. القاهرة.

رابعاً: الصحف والدوريات:

(أ) - الصحف:

٩٤- أخبار اليوم - القاهرة - عدد ٢٦٧٤ في /١٩٩٦/٢/٣م.

(ب) الدوريات:

٩٥- مجلة الأمة: قطر، عدد ٣٤، شوال ١٤٠٣هـ.

٩٦- عدد ٤٤، شعبان: ١٤٠٤هـ.

٩٧- عدد ٦٧، رمضان ١٤٠٦هـ.

٩٨- مجلة الثقافة الجديدة، القاهرة، عدد ٨٦، نوفمبر ١٩٩٥م.

٩٩- مجلة الثقافة العربية بالجماهيرية العربية الليبية العظمى عدد ٨، السنة (٢٠) - أغسطس ١٩٩٥م.

١٠٠- مجلة الحرس الوطني المملكة العربية السعودية، عدد ١٤٣، المحرم ١٤١٥هـ.

١٠١- مجلة فصول مصر (عدد ٢/٢) مارس ١٩٨٢م.

١٠٢- مجلة فصول مصر (عدد ٢/٣) يونيو ١٩٨٢م.

١٠٣- مجلة فصول مصر (عدد ٣) المجلد ١١ / خريف ١٩٩٢م.

١٠٤- مجلة الفيصل المملكة العربية السعودية، عدد ٢٢٨، جمادى الآخرة، ١٤١٦هـ.

١٠٥- مجلة الكويت - الكويت، عدد ١١٦، في ١٩٩٤/١/١م.

١٠٦- مجلة المسلم المعاصر، الكويت، عدد ٣٠، ٨ رجب ١٤٠٢هـ.

١٠٧- مجلة المسلم المعاصر، عدد ٥٣، ١٤ ربيع الأول ١٤٠٩هـ.

١٠٨- مجلة المصور - القاهرة، عدد ٢٣٧٢٠ في ١٩٩٦/١/٢٦م.

١٠٩- مجلة منار الإسلام - أبو ظبي، عدد ٨، ٥ شعبان ١٤٠٠هـ. وعدد ٧، ١٩ رجب ١٤١٤هـ.

١١٠- مجلة المنهل - السعودية - عدد ٥٢٧، رجب ١٤١٦هـ.





الموضوع	الصفحة

التعريف بالمؤلف

الاسم: كمال سعد محمد خليفة

اسم الشهرة: كمال سعد خليفة

تاريخ الميلاد: ٨/١١/١٩٦٢م

محل الميلاد: القوصية - أسيوط

المؤهلات العلمية وتاريخ الحصول عليها:

١- الإجازة العالية « ليسانس من كلية اللغة العربية جامعة الأزهر ١٩٨٦ في اللغة العربية وآدابها.

٢- دبلوم الدراسات العليا في تخصص الأدب العربي ونقده ١٤٠٨ - ١٩٨٨.

٣- درجة التخصص « الماجستير في اللغة العربية في الأدب العربي ونقده في ١٨ / من صفر ١٤١٨ الموافق ١٧ / من أغسطس ١٩٩٢ في موضوع « نجيب الكيلاني أديباً » بتقدير جيد جداً.

٤- درجة العالمية «الدكتوراة في اللغة العربية في الأدب العربي ونقده في ٣ من جمادى الأولى ١٤١٧، الموافق ١٦ من سبتمبر ١٩٩٦ في موضوع الشخصية الإسلامية في الرواية المصرية الحديثة وقيمتها في العمل الفني « بتقدير مرتبة الشرف الأولى».

الخبرات العملية:

١- مدرس اللغة العربية وآدابها في المعاهد الثانوية الأزهرية.

٢- مدرس مساعد « معاون عضو هيئة تدريس في كلية الدراسات الإسلامية والعربية بجامعة الأزهر - قنا.

٣- مدرس «عضو هيئة تدريس في كلية الدراسات الإسلامية والعربية جامعة الأزهر - قنا.

البحوث العلمية:

أولاً : مجموعة من الدراسات المنشورة في المجلات العربية والإسلامية في الوطن العربي.

١- بحث « جمالية الإبداع في الأدب الإسلامي « منشور بمجلة الفيصل السعودية، عدد ١٩٥ في رمضان ١٤١٣، مارس ١٩٩٣.

٢- بحث «المسرح العربي والتاريخ: دراسة في العلاقات الفنية، منشور بمجلة الفيصل السعودية، عدد ٢٠١، ربيع أول ١٤١٤، أغسطس/ سبتمبر ١٩٩٣.

٣- بحث «الحرية والالتزام في الأدب الإسلامي» رؤية فنية، منشور بمجلة الوعي الإسلامي الكويتية، عدد ٣٣٣، جمادى الأولى ١٤١٤، أكتوبر ١٩٩٣.

٤- بحث « مجالات الإبداع في الأدب الإسلامي وآفاقه « منشور بمجلة الوعي الإسلامي على حلقتين، وفي عددين متتاليين، عدد ٣٤٩ رمضان ١٤١٥، فبراير ١٩٩٥، وعدد ٣٥٠ شوال ١٤١٥/ مارس ١٩٩٥.

٥- بحث «اللغة القصصية» منشور بمجلة الفيصل السعودية، عدد ٢٣٣، ذو القعدة ١٤١٦، مارس/ أبريل ١٩٩٦.

٦- بحث «الأديب مصطفى صادق الرافعي» رائد الأدب الإسلامي، منشور بمجلة منار الإسلام الإماراتية، العدد ٢، السنة ٢٠، صفر ١٤١٥، يوليو ١٩٩٤، وعدد ٣، ٢٠/ ربيع أول ١٤١٥، أغسطس ١٩٩٤.



منشورات رابطة الأدب
الإسلامي العالمية

١- من الشعر الإسلامي الحديث، لشعراء الرابطة.
٢- نظرات في الأدب، أبو الحسن الندوي.
٣- ديوان «رياحين الجنة» عمر بهاء الدين الأميري.
٤- دليل مكتبة الأدب الإسلامي في العصر الحديث، د. عبد الباسط بدر.
٥- النص الأدبي للأطفال، د. سعد أبو الرضا.
٦- ديوان «البوسنة والهرسك»، مختارات من شعراء الرابطة.
٧- لن أموت سدى «رواية»، الكاتبة جهاد الرجبي (الرواية الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة الرواية).
٨- ديوان «يا إلهي»، محمد التهامي.
٩- يوم الكرة الأرضية «مجموعة قصصية» د. عودة الله القيسي.
١٠- ديوان «مدائن الفجر» د. صابر عبد الدايم.
١١- العائدة «رواية»، سلام أحمد إدريسو الرواية الفائزة بالجائزة الثانية في مسابقة الرواية.
١٢- محكمة الأبرياء «مسرحية شعرية» د. غازي مختار طليمات.
١٣- الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني، د. حلمي القاعود.
١٤- ديوان «حديث عصري إلى أبي أيوب الأنصاري» د. جابر قميحة.
١٥- ديوان «في ظلال الرضا»، أحمد محمود مبارك.
١٦- في النقد التطبيقي، د. عماد الدين خليل.

١٧- الشيخ أبو الحسن الندوي، دراسات وبحوث، مجموعة من الكتاب.

١٨- القضية الفلسطينية في الشعر الإسلامي المعاصر، حليمة بنت سويد الحمد.

١٩- د. محمد مصطفى هدارة، دراسات وبحوث، مجموعة من الكتاب.

٢٠- معسكر الأرامل «رواية مترجمة عن الأفغانية» تأليف مرال معروف، ترجمة د. ماجدة مخلوف.

٢١- قصة يوسف عليه السلام في القرآن الكريم «دراسة أدبية»، محمد رشدي عبيد.

٢٢- قصص من الأدب الإسلامي «القصص الفائزة في المسابقة الأدبية الأولى للرابطة».

٢٣- أدب المرأة.. دراسات نقدية من بحوث الملتقى الدولي الأول للأديبات الإسلاميات.

٢٤ - الآمال صارت آلاماً، رواية من الأدب التركي، تأليف د. نور الله، ترجمة د. عوني لطفي أوغلو.

٢٥ - نحو كوكب الحرية - رواية من الأدب الفارسي، تأليف محمود حكيمي، ترجمة عثمان أيزوبناه.

٢٦ - مملكة النحل - رواية من الأدب التركي - تأليف علي نار، ترجمة كمال أحمد خوجه.

٢٧ - أقباس - ديوان شعر - طاهر العتباني.

٢٨ - الشخصية الإسلامية في الرواية المصرية الحديثة - د. كمال سعد خليفة.

*****

سلسلة أدب الأطفال

١- غرد يا شبل الإسلام، شعر، محمود مفلح.

٢- قصص من التاريخ الإسلامي، أبو الحسن الندوي.

٣- تغريد البلابل، شعر يحيى الحاج يحيى.

٤- مذكرات فيل مغرور، شعر قصصي د. حسين علي محمد.

٥- أشجار الشارع أخواتي، شعر، أحمد فضل شبلول.

٦- أشهر الرحلات إلى جزيرة العرب، فوزي خضر.

٧- باقة ياسمين «مجموعة قصصية للأطفال من الأدب التركي» تأليف علي نار، ترجمة شمس الدين درمش.

*****